كتاب الشعب

إحياء علوم الدين

للإمام أبي حامد الغزالي

الجزء السادس عشر

دار الشعب
٩٢ شارع قصر العينى القاهرة ت: ٢١٨١٠

بيان

عذاب القبر وسؤال منكر ونكير

قال [١] البراء بن عازب : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جنازة رجل من الأنصار ، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبره منكسا رأسه ، ثم قال « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ » ثلاثا ثم قال « إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي قُبُلٍ مِنَ الآخِرَةِ بَعَثَ اللهُ مَلاَئِكَةً كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ مَعَهُمْ حَنُوطُهُ وَكَفَنُهُ فَيَجْلِسُونَ مَدَّ بَصَرِهِ فَإِذَا خَرَجَتْ رُوحُهُ صَلَّى عَلَيْهِ كُلُّ مَلَكٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَكُلُّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ وَفُتِحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ فَلَيْسَ مِنْهَا بَابٌ إِلاَّ يُحِبُّ أَنْ يَدْخُلَ بِرُوحِهِ مِنْهُ فَإِذَا صُعِدَ بِرُوحِهِ قِيلَ أَيْ رَبِّ عَبْدُكَ فُلاَنٌ فَيَقُولُ أَرْجِعُوهُ فَأَرُوهُ مَا أَعْدَدْتُ لَهُ مِنَ الْكَرَامَةِ فَإِنِّي وَعَدْتُهُ (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ [١]) الآية . وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِهِمْ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ حَتَّى يُقَالَ يَا هَذَا مَنْ رَبُّكَ وَمَا دِينُكَ وَمَنْ نَبِيُّكَ ؟ فَيَقُولُ رَبِّيَ اللهُ وَدِينِي الإِسْلاَمُ وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . قَالَ فَيَنْتَهِرَانِهِ انْتِهَاراً شَدِيداً وَهِيَ آخِرُ فِتْنَةٍ تُعْرَضُ عَلَى الْمَيِّتِ فَإِذَا قَالَ ذَلِكَ نَادَى مُنَادٍ أَنْ قَدْ صَدَقْتَ وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى (يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ [٢]) الآية ثُمَّ يَأْتِيهِ آتٍ حَسَنُ الْوَجْهِ طَيِّبُ الرِّيحِ حَسَنُ الثِّيَابِ فَيَقُولُ أَبْشِرْ بِرَحْمَةِ رَبِّكَ وَجَنَّاتٍ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ فَيَقُولُ وَأَنْتَ فَبَشَّرَكَ اللهُ بِخَيْرٍ مَنْ أَنْتَ ؟ فَيَقُولُ أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ وَاللهِ مَا عَلِمْتُ أَنْ كُنْتَ لَسَرِيعاً إِلَى طَاعَةِ اللهِ بَطِيئاً عَنْ مَعْصِيَةِ اللهِ فَجَزَاكَ اللهُ خَيْراً قَالَ ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ أَنِ افْرُشُوا لَهُ مِنْ فُرُشِ الْجَنَّةِ وَافْتَحُوا لَهُ بَاباً إِلَى الْجَنَّةِ فَيُفْرَشُ لَهُ مِنْ فُرُشِ الْجَنَّةِ وَيُفْتَحُ

---

(١) حديث البراء خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جنازة رجل من الانصار فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبره منكسا رأسه ثم قال اللهم انى أعوذ بك من عذاب القبر ـ الحديث : بطوله أبوداود والحاكم بكماله وقال صحيح على شرط الشيخين وضعفه ابن حبان ورواه النسائى وابن ماجه مختصرا

---

(١) طه : ٥٥ (٢) ابراهيم : ٢٧

لَهُ بَابٌ إِلَى الْجَنَّةِ فَيَقُولُ اللَّهُمَّ عَجِّلْ قِيَامَ السَّاعَةِ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي قَالَ وَأَمَّا الْكَافِرُ فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ فِي قُبُلٍ مِنَ الْآخِرَةِ وَانْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا نَزَلَتْ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ مَعَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ وَسَرَابِيلُ مِنْ قَطِرَانٍ فَيَحْتَوِشُونَهُ فَإِذَا خَرَجَتْ نَفْسُهُ لَعَنَهُ كُلُّ مَلَكٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَكُلُّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ فَلَيْسَ مِنْهَا بَابٌ إِلَّا يَكْرَهُ أَنْ يَدْخُلَ بِرُوحِهِ مِنْهُ فَإِذَا صُعِدَ بِرُوحِهِ نُبِذَ وَقِيلَ أَيُّ رَبٍّ عَبْدُكَ فُلَانٌ لَمْ تَقْبَلْهُ سَمَاءٌ وَلَا أَرْضٌ فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَرْجِعُوهُ فَأَرُوهُ مَا أَعْدَدْتُ لَهُ مِنَ الشَّرِّ إِنِّي وَعَدْتُهُ (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ [1]) الْآيَةَ وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِهِمْ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ حَتَّى يُقَالَ لَهُ يَا هَذَا مَنْ رَبُّكَ وَمَنْ نَبِيُّكَ وَمَا دِينُكَ ؟ فَيَقُولُ لَا أَدْرِي فَيُقَالُ لَا دَرَيْتَ ثُمَّ يَأْتِيهِ آتٍ قَبِيحُ الْوَجْهِ مُنْتِنُ الرِّيحِ قَبِيحُ الثِّيَابِ فَيَقُولُ أَبْشِرْ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَبِعَذَابٍ أَلِيمٍ مُقِيمٍ فَيَقُولُ بَشَّرَكَ اللَّهُ بِشَرٍّ مَنْ أَنْتَ ؟ فَيَقُولُ أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ وَاللَّهِ إِنْ كُنْتَ لَسَرِيعًا فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ بَطِيئًا عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ لَجَزَاكَ اللَّهُ شَرًّا فَيَقُولُ وَأَنْتَ فَجَزَاكَ اللَّهُ شَرًّا ثُمَّ يُقَيَّضُ لَهُ أَصَمُّ أَعْمَى أَبْكَمُ مَعَهُ مِرْزَبَّةٌ مِنْ حَدِيدٍ لَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهَا الثَّقَلَانِ عَلَى أَنْ يُقِلُّوهَا لَمْ يَسْتَطِيعُوا لَوْ ضُرِبَ بِهَا جَبَلٌ صَارَ تُرَابًا فَيَضْرِبُهُ بِهَا ضَرْبَةً فَيَصِيرُ تُرَابًا ثُمَّ تَعُودُ فِيهِ الرُّوحُ فَيَضْرِبُهُ بِهَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ ضَرْبَةً يَسْمَعُهَا مَنْ عَلَى الْأَرَضِينَ لَيْسَ الثَّقَلَيْنِ قال ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ أَنِ افْرِشُوا لَهُ لَوْحَيْنِ مِنْ نَارٍ وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ فَيُفْرَشُ لَهُ لَوْحَانِ مِنْ نَارٍ وَيُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى النَّارِ » . قال محمد بن على : مامن ميت يموت إلا مثّل له عند الموت أعماله الحسنة وأعماله السيئة . قال فيشخص إلى حسناته ويطرق عن سيئاته

وقال [1] أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا احْتُضِرَ أَتَتْهُ الْمَلَائِكَةُ بِحَرِيرَةٍ فِيهَا مِسْكٌ وَضَبَائِرُ الرَّيْحَانِ فَتُسَلُّ رُوحُهُ كَمَا تُسَلُّ

---

(١) حديث أبي هريرة ان المؤمن اذا حضر أتته الملائكة بحريرة فيها مسك وضبائر الريحان . الحديث : ابن أبي الدنيا وابن حبان مع اختلاف والبزار بلفظ المصنف

(١) طه : ٥٥

الشَّعْرَةُ مِنَ الْعجِينِ وَيُقَالُ أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمطْمَئِنَّةُ اخْرُجِي رَاضِيَةً وَمَرْضِيًّا عَنْكِ إِلَى رُوحِ اللهِ وَكَرَامَتِهِ فَإِذَا أُخْرِجَتْ رُوحُهُ وُضِعَتْ عَلَى ذَلِكَ الْمِسْكِ وَالرَّيْحَانِ وَطُوِيَتْ عَلَيْهَا الْحَرِيرَةُ وَبُعِثَ بِهَا إِلَى عِلِّيِّينَ وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا احْتُضِرَ أَتَتْهُ الْمَلَائِكَةُ بِمِسْحٍ فِيهِ جَمْرَةٌ فَتُنْزَعُ رُوحُهُ انْتِزَاعًا شَدِيدًا وَيُقَالُ أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ اخْرُجِي سَاخِطَةً وَمَسْخُوطًا عَلَيْكِ إِلَى هَوَانِ اللهِ وَعَذَابِهِ فَإِذَا أُخْرِجَتْ رُوحُهُ وُضِعَتْ عَلَى تِلْكَ الْجَمْرَةِ وَإِنَّ لَهَا نَشِيشًا وَيُطْوَى عَلَيْهَا الْمِسْحُ وَيُذْهَبُ بِهَا إِلَى سِجِّينٍ »

وعن محمد بن كعب القرظي ، أنه كان يقرأ قوله تعالى (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ [1]) قال أي شيء تريد؟ في أي شيء ترغب ؟ أتريد أن ترجع لتجمع المال ، وتغرس الغراس ، وتبني البنيان ، وتشقق الأنهار؟ قال لا لعلي أعمل صالحا فيما تركت . قال فيقول الجبار . كلا ، إنها كلمة هو قائلها ، أي ليقولنها عند الموت . وقال [1] أبو هريرة . قال النبي صلى الله عليه وسلم « الْمُؤْمِنُ فِي قَبْرِهِ فِي رَوْضَةٍ خَضْرَاءَ وَيُرَحَّبُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا وَيُضِيءُ حَتَّى يَكُونَ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ هَلْ تَدْرُونَ فِيمَا ذَا أُنْزِلَتْ (فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا [2]) قالوا الله ورسوله أعلم قال « عَذَابُ الْكَافِرِ فِي قَبْرِهِ يُسَلَّطُ عَلَيْهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ تِنِّينًا هَلْ تَدْرُونَ مَا التِّنِّينُ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ حَيَّةً لِكُلِّ حَيَّةٍ سَبْعَةُ رُؤُسٍ يَخْدِشُونَهُ وَيَلْحَسُونَهُ وَيَنْفُخُونَ فِي جِسْمِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ »

ولا ينبغي أن يتعجب من هذا العدد على الخصوص ، فإن أعداد هذه الحيات والعقارب بعدد الأخلاق المذمومة من الكبر ، والرياء ، والحسد ، والغل ، والحقد ، وسائر الصفات ، فإن لها أصولا معدودة ، ثم تتشعب منها فروع معدودة ، ثم تنقسم فروعها إلى أقسام . وتلك الصفات بأعيانها هي المهلكات ، وهي بأعيانها تنقلب عقارب وحيات ، فالقوي منها يلدغ لدغ التنين ، والضعيف يلدغ لدغ العقرب ، وما بينهما يؤذي إيذاء الحية . وأرباب القلوب والبصائر يشاهدون بنور البصيرة هذه المهلكات وانشعاب فروعها ، إلا أن مقدار

(١) حديث أبي هريرة المؤمن في قبره في روضة خضراء ويرحب له في قبره سبعون ذراعا الحديث : ورواه ابن حبان

(١) المؤمنون : ٩٩ ، ١٠٠ (٢) طه : ١٢٤

عددها لا يوقف عليه إلا بنور النبوة . فأمثال هـذه الأخبار لها ظواهر صحيحة ، وأسرار خفيّة ، ولكنها عند أرباب البصائر واضحة . فمن لم تنكشف له حقائقها فلا ينبغي أن ينكر ظواهرها . بل أقل درجات الإيمان التصديق والتسليم

فإن قلت : فنحن نشاهد الكافر في قبره مدة ونراقبه ، ولا نشاهد شيئا من ذلك ، فما وجه التصديق على خلاف المشاهـدة ؟

فاعلم أن لك ثلاث مقامات في التصديق بأمثال هذا :

أحدها : وهو الأظهر والأصح والأسلم ، أن تصدق بأنها موجودة ، وهي تلدغ الميت ، ولكنك لا تشاهد ذلك ، فإن هذه العين لا تصلح لمشاهدة الأمور الملكوتية ، وكل ما يتعلق بالآخرة فهو من عالم الملكوت . أما ترى الصحابة رضي الله عنهم كيف كانوا يؤمنون بنزول جبريل ، وما كانوا يشاهدونه ، ويؤمنون بأنه عليه السلام يشاهده ؟ فإن كنت لا تؤمن بهذا فتصحيح أصل الإيمان بالملائكة والوحي أهم عليك . وإن كنت آمنت به ، وجوّزت أن يشاهـد النبي ما لا تشاهده الأمة ، فكيف لا تجوّز هذا في الميت ؟ وكما أن الملك لا يشبه الآدميين والحيوانات ، فالحيات والعقارب التي تلدغ في القبر ليست من جنس حيات عالمنا ، بل هي جنس آخر ، وتدرك بحاسة أخرى

المقام الثاني : أن تتذكر أمر النائم ، وأنه قد يرى في نومه حية تلدغه ، وهو يتألم بذلك ، حتى تراه يصيح في نومه ، ويعرق جبينه ، وقد ينزعج من مكانه . كل ذلك يدركه من نفسـه ، ويتأذى به كما يتأذى اليقظان ، وهو يشاهده ، وأنت ترى ظاهره ساكنا ، ولا ترى حواليه حية ، والحية موجودة في حقه ، والعذاب حاصل ، ولـكنه في حقك غير مشاهد . وإذا كان العذاب في ألم اللدغ ، فلا فرق بين حية تتخيل أو تشاهد

المقام الثالث : أنك تعلم أن الحية بنفسها لا تؤلم ، بل الذي يلقاك منها وهو السم . ثم السم ليس هو الألم ، بل عذابك في الأثر الذي يحصل فيك من السم . فلو حصل مثل ذلك الأثر من غير سم لـكان العذاب قد توفر ، وكان لا يمكن تعريف ذلك النوع من العذاب إلا بأن يضاف إلى السبب الذي يفضي إليه في العادة . فإنه لو خلق في الإنسان لذة الوقاع مثلا من غير مباشرة صورة الوقاع ، لم يمكن تعريفها إلا بالإضافة إليه ، لتكون الإضافة للتعريف بالسبب ،

وتكون ثمرة السبب حاصلة وإن لم تحصل صورة السبب : والسبب يراد لثمرته لا لذاته ، وهذه الصفات المهلكات تنقلب مؤذيات ومؤلمات في النفس عند الموت ، فتكون آلامها كآلام لدغ الحيات من غير وجود حيّات . وانقلاب الصفة مؤذية يضاهي انقلاب العشق مؤذيا عند موت المعشوق ، فإنه كان لذيذا فطرأت حالة صار اللذيذ بنفسه مؤلما ، حتى يرد بالقلب من أنواع العذاب مايتمنى معه أن لم يكن قدتنعم بالعشق والوصال . بل هذا بعينه هو أحد أنواع ؛ عذاب الميت ، فإنه قدسلط العشق في الدنيا على نفسه ، فصار يعشق ماله ، وعقاره ، وجاهه ، وولده ، وأقاربه ، ومعارفه ، ولو أخذ جميع ذلك في حياته من لا يرجو استرجاعه منه فماذا ترى يكون حاله ؟ أليس يعظم شقاؤه ، ويشتد عذابه ، ويتمنى ويقول ليته لم يكن لي مال قط . ولا جاه قط ، فكنت لا أتأذى بفراقه ؟ فالموت عبارة عن مفارقة المحبوبات الدنيوية كلها دفعة واحدة

ماحال من كان له واحد غيب عنه ذلك الواحد

فما حال من لا يفرح إلا بالدنيا ، فتؤخذ منه الدنيا وتسلّم إلى أعدائه ، ثم ينضاف إلى هذا العذاب تحسّره على مافاته من نعيم الآخرة ، والحجاب عن الله عزوجل ، فإن حب غير الله يحجبه عن لقاء الله والتنعم به ، فيتوالى عليه ألم فراق جميع محبوباته ، وحسرته على مافاته من نعيم الآخرة أبد الآباد ، وذل الرد والحجاب عن الله تعالى ، وذلك هو العذاب الذى يعذّب به ، إذ لا يتبع نار الفراق إلا نار جهنم ، كما قال تعالى (كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ [1])

وأما من لم يأنس بالدنيا ، ولم يحب إلا الله ، وكان مشتاقا إلى لقاء الله ، فقد تخلص من سجن الدنيا ومقاساة الشهوات فيها ، وقدم على محبوبه ، وانقطعت عنه العوائق والصوارف ، وتوفر عليه النعيم مع الأمن من الزوال أبد الآباد ، ولمثل ذلك فليعمل العاملون

والمقصود أن الرجل قد يحب فرسه بحيث لو خيّر بين أن يؤخذ منه وبين أن تلدغه عقرب ، آثر الصبر على لدغ العقرب . فإذاً ألم فراق الفرس عنده أعظم من لدغ العقرب ، وحبه للفرس هو الذي يلدغه إذا أخذ منه فرسه ، فليستمد لهذه اللدغات ، فإن الموت يأخذ

[1] التطفيف : ١٥ ، ١٦

منه فرسه ، ومركبه ، وداره ، وعقاره ، وأهله ، وولده ، وأحبابه ، ومعارفه ، ويأخذ منه جاهه وقبوله ، بل يأخذ منه سمعه ، وبصره ، وأعضاءه ، وييأس من رجوع جميع ذلك إليه . فإذا لم يحب سواه ، وقد أخذ جميع ذلك منه ، فذلك أعظم عليه من العقارب والحيّات . وكما لو أخذ ذلك منه وهو حي فيعظم عقابه ، فكذلك إذا مات ، لأنا قد بيّنا أن المعنى الذى هو المدرك للآلام واللذات لم يمت ، بل عذابه بعد الموت أشد ، لأنه فى الحياة يتسلى بأسباب يشغل بها حواسه من مجالسة ومحادثة ، ويتسلى برجاء العود إليه ، ويتسلى برجاء العوض منه ، ولاسلوة بعد الموت ، إذ قد انسد عليه طرق التسلي ، وحصل اليأس ، فإذا كل قميص له ومنديل قد أحبه بحيث كان يشق عليه لو أخذ منه فإنه يبقى متأسفا عليه ، ومعذبا به . فإن كان مخفا فى الدنيا سلم ، وهو المعني بقولهم نجا المخفون . وإن كان مثقلا عظم عذابه

وكما أن حال من يسرق منه دينار أخف من حال من يسرق منه عشرة دنانير ، فكذلك حال صاحب الدرهم أخف من حال صاحب الدرهمين . وهو المعني بقوله صلى الله عليه وسلم[1] « صَاحِبُ الدِّرْهَمِ أَخَفُّ حِسَابًا مِنْ صَاحِبِ الدِّرْهَمَيْنِ » ومامن شيء من الدنيا يتخلف عنك عند الموت إلا وهو حسرة عليك بعد الموت ، فإن شئت فاستكثر ، وإن شئت فاستقلل . فإن استكثرت فلست بمستكثر إلا من الحسرة ، وإن استقللت فلست تخفف إلا عن ظهرك . وإنما تكثر الحيّات والعقارب فى قبور الأغنياء الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، وفرحوا بها ، واطمأنوا إليها

فهذه مقامات الإيمان فى حيّات القبر وعقاربه ، وفى سائر أنواع عذابه

رأى أبو سعيد الخدرى ابنا له قد مات فى المنام ، فقال له يابني عظني . قال لاتخالف الله تعالى فيما يريد . قال يابني زدني قال ياأبت لاتطيق . قال قل ، قال لاتجعل بينك وبين الله قميصا . فما لبس قميصا ثلاثين سنة

فإن قلت : فما الصحيح من هذه المقامات الثلاث ؟ فاعلم أن فى الناس من لم يثبت إلا الأول وأنكر مابعده . ومنهم من أنكر الأول وأثبت الثانى . ومنهم من لم يثبت إلا الثالث . وإنما الحق الذى انكشف لنا بطريق الاستبصار أن كل ذلك فى حيز الإمكان ، وأن من ينكر

---

(١) حديث صاحب الدرهم أخف حسابا من صاحب الدرهمين : لم أجد له أصلا

بعض ذلك فهو لضيق حوصلته وجهله باتساع قدرة الله سبحانه وعجائب تدبيره ، فينكر من أفعال الله تعالى مالم يأنس به ويألفه ، وذلك جهل وقصور . بل هذه الطرق الثلاثة فى التعذيب ممكنة، والتصديق بها واجب . وربّ عبد يعاقب بنوع واحد من هذه الأنواع، وربّ عبد تجمع عليه هذه الأنواع الثلاثة ، نعوذ بالله من عذاب الله قليله وكثيره

هذا هو الحق فصدّق به تقليدا ، فيعز على بسيط الأرض من يعرف ذلك تحقيقا ، والذى أوصيك به أن لا تكثر نظرك فى تفصيل ذلك ، ولا تشتغل بمعرفته ، بل اشتغل بالتدبير فى دفع العذاب كيفما كان ، فإن أهملت العمل والعبادة واشتغلت بالبحث عن ذلك ، كنت كمن أخذه سلطان وحبسه ليقطع يده ويجدع أنفه ، فأخذ طول الليل يتفكر فى أنه هل يقطعه بسكين ، أو بسيف ، أو بموسى ، وأهمل طريق الحيلة فى دفع أصل العذاب عن نفسه ، وهذا غاية الجهل. فقد عُلم على القطع أن العبد لا يخلو بعد الموت من عذاب عظيم ، أو نعيم مقيم ، فينبغى أن يكون الاستعداد له . فأما البحث عن تفصيل العقاب والثواب ففضول وتضييع زمان

بيان

سؤال منكر ونكير وصورتهما وضغط القبر وبقية القول فى عذاب القبر

قال [1] أبو هريرة : قال النبي صلى الله عليه وسلم « إِذَا مَاتَ ٱلْعَبْدُ أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا مُنْكَرٌ وَلِلْآخَرِ نَكِيرٌ فَيَقُولَانِ لَهُ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي النَّبِيِّ؟ فَإِنْ كَانَ مُؤْمِناً قَالَ هُوَ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ فَيَقُولَانِ إِنْ كُنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ ذٰلِكَ ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعاً فِي سَبْعِينَ ذِرَاعاً وَيُنَوَّرُ لَهُ فِي قَبْرِهِ ثُمَّ يُقَالُ لَهُ نَمْ فَيَقُولُ دَعُونِي أَرْجِعْ إِلَى أَهْلِي فَأُخْبِرُهُمْ فَيُقَالُ لَهُ نَمْ فَيَنَامُ كَنَوْمَةِ ٱلْعَرُوسِ الَّذِي لَا يُوقِظُهُ إِلَّا أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ حَتَّى يَبْعَثَهُ اللهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذٰلِكَ . وَإِنْ كَانَ مُنَافِقاً قَالَ لَا أَدْرِي كُنْتُ أَسْمَعُ النَّاسَ يَقُولُونَ

---

(١) حديث أبي هريرة اذا مات العبد أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما منكر وللآخر نكير الحديث : الترمذي وحسنه وابن حبان مع اختلاف

شَيْئًا وَكُنْتُ أَقُولُهُ فَيَقُولاَنِ إِنْ كُنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ ذَلِكَ ثُمَّ يُقَالُ لِلأَرْضِ الْتَئِمِي عَلَيْهِ فَتَلْتَئِمُ عَلَيْهِ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهَا أَضْلاَعُهُ فَلاَ يَزَالُ مُعَذَّبًا حَتَّى يَبْعَثَهُ اللهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ » . وعن[1] عطاء بن يسار قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب رضي الله عنه « يَاعُمَرُ كَيْفَ بِكَ إِذَا أَنْتَ مُتَّ فَانْطَلَقَ بِكَ قَوْمُكَ فَقَاسُوا لَكَ ثَلاَثَةَ أَذْرُعٍ فِي ذِرَاعٍ وَشِبْرٍ ثُمَّ رَجَعُوا إِلَيْكَ فَغَسَّلُوكَ وَكَفَّنُوكَ وَحَنَّطُوكَ ثُمَّ احْتَمَلُوكَ حَتَّى يَضَعُوكَ فِيهِ ثُمَّ يُهِيلُوا عَلَيْكَ التُّرَابَ وَيَدْفِنُوكَ فَإِذَا انْصَرَفُوا عَنْكَ أَتَاكَ فَتَّانَا الْقَبْرِ مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ أَصْوَاتُهُمَا كَالرَّعْدِ الْقَاصِفِ وَأَبْصَارُهُمَا كَالْبَرْقِ الْخَاطِفِ يَجُرَّانِ أَشْعَارَهُمَا وَيَبْحَثَانِ الْقَبْرَ بِأَنْيَابِهِمَا فَتَلْتَلاَكَ وَتَرْتَرَاكَ كَيْفَ بِكَ عِنْدَ ذَلِكَ يَاعُمَرُ » فقال عمر ويكون معي مثل عقلي الآن؟ قال نعم . قال إذاً أكفيكهما

وهذا نص صريح فى أن العقل لايتغير بالموت ، إنما يتغير البدن والأعضاء ، فيكون الميت عاقلا ، مدركا ، عالما بالآلام واللذات كما كان ، لايتغير من عقله شيء . وليس العقل المدرك هذه الأعضاء ، بل هو شيء باطن ليس له طول ولا عرض ، بل الذى لاينقسم فى نفسه هو المدرك للأشياء . ولو تناثرت أعضاء الإنسان كلها ، ولم يبق إلا الجزء المدرك الذى لايتجزأ ولا ينقسم ، لكان الإنسان العاقل بكماله قائما باقيا . وهو كذلك بعد الموت ، فإن ذلك الجزء لايحله الموت ، ولا يطرأ عليه العدم

وقال محمد بن المنكدر : بلغنى أن الكافر يسلط عليه فى قبره دابة عمياء ، صماء ، فى يدها سوط من حديد ، فى رأسه مثل غرب الجمل ، تضربه به إلى يوم القيامة ، لاتراه فتتقيه ، ولاتسمع صوته فترحمه

وقال أبو هريرة : إذا وضع الميت فى قبره جاءت أعماله الصالحة فاحتوشته ، فإن أتاه

---

(١) حديث عطاء بن يسار قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب ياعمر كيف بك اذا أنت مت فانطلق بك قومك فقاسوا لك ثلاثة أذرع فى ذراع وشبر ـ الحديث : ابن أبى الدنيا فى كتاب القبور هكذا مرسلا ورجاله ثقات قال البيهقى فى الاعتقاد رويناه من وجه صحيح عن عطاء ابن يسار مرسلا قلت ووصله ابن بطة فى الابانة من حديث ابن عباس ورواه البيهقى فى الاعتقاد من حديث عمر وقال غريب بهذا الاسناد تفرد به مفضل ولأحمد وابن حبان من حديث عبد الله ابن عمر فقال عمر أترد الينا عقولنا فقال نعم كهيئتكم اليوم فقال عمر بفيه الحجر

من قبل رأسه جاء قراءته القرءان ، وإن أتاه من قبل رجليه جاء قيامه، وإن أتاه من قبل يده قالت اليدان والله لقد كان يبسطني للصدقة والدعاء ، لاسبيل لكم عليه ، وإن جاء من قبل فيه جاء ذكره وصيامه ، وكذلك تقف الصلاة والصبر ناحية ، فيقول . أما إني لو رأيت خللا لكنت أناصاحبه . قال سفيان . تجاحش عنه أعماله الصالحة كما يجاحش الرجل عن أخيه ، وأهله ، وولده ، ثم يقال له عند ذلك : بارك الله لك فى مضجعك ، فنعم الأخلاء أخلاؤك ، ونعم الأصحاب أصحابك

وعن [1] حذيفة قال . كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جنازة ، فجلس على رأس القبر ، ثم جعل ينظر فيه ، ثم قال « يُضْغَطُ الْمُؤْمِنُ فِي هَذَا ضَغْطَةً تُرَدُّ مِنْهَا حَمَائِلُهُ »

وقالت [2] عائشة رضي الله عنها . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ لِلْقَبْرِ ضَغْطَةً وَلَوْسَلِمَ أَوْ نَجَا مِنْهَا أَحَدٌ لَنَجَا سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ »

وعن أنس قال : [3] توفيت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت امرأة مسقامة ، فتبعها رسول الله صلى الله عليه وسلم . فساءنا حاله ، فلما انتهينا إلى القبر فدخله التمع وجهه صفرة ، فلما خرج أسفر وجهه ، فقلنا يارسول الله رأينا منك شأنا فمم ذلك ؟ قال « ذَكَرْتُ ضَغْطَةَ ابْنَتِي وَشِدَّةَ عَذَابِ الْقَبْرِ فَأَتَيْتُ فَأُخْبِرْتُ أَنَّ اللَّهَ قَدْ خَفَّفَ عَنْهَا وَلَقَدْ ضُغِطَتْ ضَغْطَةً سَمِعَ صَوْتَهَا مَا بَيْنَ الْخَافِقَيْنِ »

الباب الثامن

فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة فى المنام

اعلم أن أنوار البصائر المستفادة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومن مناهج الاعتبار ، تعرفنا أحوال الموتى على الجملة ، وانقسامهم إلى سعداء وأشقياء .

---

(١) حديث حذيفة كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جنازة فجلس على رأس القبر ثم جعل ينظر فيه ـ الحديث: رواه أحمد بسند ضعيف

(٢) حديث عائشة ان للقبر ضغطة لوسلم أونجا منها أحد لنجا سعد بن معاذ :رواه أحمد باسناد جيد

(٣) حديث أنس توفيت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت امرأة مسقامة ـ الحديث : وفيه لقد ضغطت ضغطة سمع صوتها مابين الخافقين : ابن أبى الدنيا فى الموت من رواية سليمان الاعمش عن أنس ولم يسمع منه

ولكن حال زيد وعمرو بعينه فلا ينكشف أصلا ، فإنا إن عولنا على إيمان زيد وعمرو فلا ندرى على ماذا مات ، وكيف ختم له . وإن عولنا على صلاحه الظاهر فالتقوى محله القلب ، وهو غامض يخفى على صاحب التقوى ، فكيف على غيره ، فلا حكم لظاهر الصلاح دون التقوى الباطن قال الله تعالى (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ[1]) فلا يمكن معرفة حكم زيد وعمرو إلا بمشاهدته ومشاهدة ما يجرى عليه . وإذا مات فقد تحول من عالم الملك والشهادة إلى عالم الغيب والملكوت ، فلا يرى بالعين الظاهرة ، وإنما يرى بعين أخرى ، خلقت تلك العين فى قلب كل إنسان ، ولكن الإنسان جعل عليها غشاوة كثيفة من شهواته وأشغاله الدنيوية ، فصار لا يبصر بها ، ولا يتصور أن يبصر بها شيئا من عالم الملكوت مالم تنقشع تلك الغشاوة عن عين قلبه . ولما كانت الغشاوة منقشعة عن أعين الأنبياء عليهم السلام ، فلا جرم نظروا إلى الملكوت وشاهدوا عجائبه ، والموتى فى عالم الملكوت ، فشاهدوهم وأخبروا . ولذلك[1] رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ضغطة القبر فى حق سعد بن معاذ ، وفى حق زينب ابنته . وكذلك حال أبى جابر لما استشهد ، إذ أخبره أن الله أقعده بين يديه ليس بينهما ستر

ومثل هذه المشاهدة لا مطمع فيها لغير الأنبياء والأولياء الذين تقرب درجتهم منهم . وإنما الممكن من أمثالنا مشاهدة أخرى ضعيفة ، إلا أنها أيضا مشاهدة نبوية ، وأعنى بها المشاهدة فى المنام ، وهي من أنوار النبوة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] « الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءاً مِنَ النُّبُوَّةِ » وهو أيضا انكشاف لا يحصل إلا بانقشاع الغشاوة عن القلب ، فلذلك لا يوثق إلا برؤيا الرجل الصالح الصادق . ومن كثر كذبه لم تصدق رؤياه ، ومن كثر فساده ومعاصيه أظلم قلبه فكان ما يراه أضغاث أحلام ولذلك[3] أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطهارة عند النوم لينام طاهرا ، وهو إشارة

﴿ الباب الثامن فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة ﴾

(١) حديث رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ضغطة القبر فى حق سعد بن معاذ وفى حق زينب ابنته وكذلك حال أبى جابر لما استشهد : تقدمت الثلاثة أحاديث فى الباب الذى قبله

(٢) حديث الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة : تقدم

(٣) حديث أمره بالطهارة عند النوم متفق عليه من حديث البراء اذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة الحديث :

(١) المائدة : ٢٧

إلى طهارة الباطن أيضا ، فهو الأصل ، وطهارة الظاهر بمنزلة التتمة والتكملة لها ومهما صفا الباطن انكشف فى حدقة القلب ماسيكون فى المستقبل ، كما [1] انكشف دخول مكة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم ، حتى نزل قوله تعالى (لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ [(1)]) وقلما يخلو الإنسان عن منامات دلت على أمور فوجدها صحيحة

والرؤيا ومعرفة الغيب فى النوم من عجائب صنع الله تعالى ، وبدائع فطرة الآدمي ، وهو من أوضح الأدلة على عالم الملكوت ، والخلق غافلون عنه كغفلتهم عن سائر عجائب القلب وعجائب العالم . والقول فى حقيقة الرؤيا من دقائق علوم المكاشفة ، فلا يمكن ذكره ، علاوة على علم المعاملة ، ولكن القدر الذى يمكن ذكره ههنا مثال يفهمك المقصود ، وهو أن تعلم أن القلب مثاله مثال مرآة تتراءى فيها الصور وحقائق الأمور ، وأن كل ماقدره الله تعالى من ابتداء خلق العالم إلى آخره مسطور ومثبت فى خلق خلقه الله تعالى ، يعبر عنه تارة باللوح ، وتارة بالكتاب المبين ، وتارة بإمام مبين كما ورد فى القرءان . فجميع ماجرى فى العالم وماسيجرى مكتوب فيه ، ومنقوش عليه نقشا لا يشاهد بهذه العين . ولا تظنن أن ذلك اللوح من خشب ، أو حديد ، أو عظم ، وأن الكتاب من كاغد أو رق ، بل ينبغى أن تفهم قطعا أن لوح الله لا يشبه لوح الخلق ، وكتاب الله لا يشبه كتاب الخلق ، كما أن ذاته وصفاته لا تشبه ذات الخلق وصفاتهم . بل إن كنت تطلب له مثالا يقربه إلى فهمك فاعلم أن ثبوت المقادير فى اللوح يضاهى ثبوت كلمات القرءان وحروفه فى دماغ حافظ القرءان وقلبه ، فإنه مسطور فيه ، حتى كأنه حين يقرؤه ينظر إليه ، ولو فتشت دماغه جزأ جزأ لم تشاهد من ذلك الخط حرفا ، وإن كان ليس هناك خط يشاهد ولا حرف ينظر

فمن هذا النمط ينبغى أن تفهم كون اللوح منقوشا بجميع ماقدره الله تعالى وقضاه ، واللوح فى المثال كمرآة ظهر فيها الصور ، فلو وضع فى مقابلة المرآة مرآة أخرى لكانت صورة تلك المرآة تتراءى فى هذه ، إلا أن يكون بينهما حجاب . فالقلب مرآة تقبل رسوم العلم ، واللوح مرآة رسوم العلم كلها موجودة فيها ، واشتغال القلب بشهواته ومقتضى

---

(١) حديث انكشف دخول مكة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم : ابن أبى حاتم فى تفسيره من رواية مجاهد مرسلا .

---

(١) الفتح : ٢٧

حواسه حجاب مرسل بينه وبين مطالعة اللوح الذى هو من عالم الملكوت . فإن هبت ريح حركت هذا الحجاب ورفعته ، تلألأ فى مرآة القلب شيء من عالم الملكوت كالبرق الخاطف ، وقد يثبت ويدوم ، وقد لا يدوم وهو الغالب . وما دام متيقظا فهو مشغول بما توروده الحواس عليه من عالم الملك والشهادة ، وهو حجاب عن عالم الملكوت . ومعنى النوم أن تركد الحواس عليه فلا توروده على القلب . فإذا تخلص منه ومن الخيال ، وكان صافيا فى جوهره ، ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ ، فوقع فى قلبه شيء مما فى اللوح ، كما تقع الصورة من مرآة فى مرآة أخرى إذا ارتفع الحجاب بينهما . إلا أن النوم مانع سائر الحواس عن العمل ، وليس مانعا للخيال عن عمله وعن تحركه . فما يقع فى القلب يبتدره الخيال فيحاكيه بمثال يقاربه ، وتكون التخيلات أثبت فى الحفظ من غيرها ، فيبقى الخيال فى الحفظ ، فإذا انتبه لم يتذكر إلا الخيال ، فيحتاج المعبر أن ينظر إلى هذا الخيال حكاية أي معنى من المعانى ، فيرجع إلى المعانى بالمناسبة التى بين المتخيل والمعانى

وأمثلة ذلك ظاهرة عند من نظر فى علم التعبير ، ويكفيك مثال واحد ، وهو أن رجلا قال لابن سيرين : رأيت كأن بيدى خاتما أختم به أفواه الرجال وفروج النساء . فقال أنت مؤذن تؤذن قبل الصبح فى رمضان . قال صدقت . فانظر أن روح الختم هو المنع ، ولأجله يراد الختم ، وإنما ينكشف للقلب حال الشخص من اللوح المحفوظ كما هو عليه ، وهو كونه مانعا للناس من الأكل والشرب ، ولكن الخيال ألف المنع عند الختم بالخاتم ، فتمثله بالصورة الخيالية التى تتضمن روح المعنى ، ولا يبقى فى الحفظ إلا الصورة الخيالية

فهذه نبذة يسيرة من بحر علم الرؤيا الذى لا تنحصر عجائبه ، وكيف لا وهو أخو الموت ، وإنما الموت هو عجب من العجائب ، وهذا لأنه يشبهه من وجه ضعيف أثر فى كشف الغطاء عن عالم الغيب ، حتى صار النائم يعرف ما سيكون فى المستقبل . فماذا ترى فى الموت الذى يخرق الحجاب ، ويكشف الغطاء بالكلية ، حتى يرى الإنسان عند انقطاع النفس من غير تأخير نفسه إما محفوفة بالأنكال والمخازى والفضائح ، نعوذ بالله من ذلك ، وإما محفوفا بنعيم مقيم وملك كبير لا آخر له ، وعند هذا يقال للأشقياء وقد انكشف الغطاء (لَقَدْ كُنْتَ فِى غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ [1]) ويقال (أَفَسِحْرٌ هَذَا

---

[1] ق : ٢٢

أم أنتم لا تبصرون اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون [١]) وإليهم الإشارة بقوله تعالى (وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون [٢]) فأعلم العلماء، وأحكم الحكماء ينكشف له عقيب الموت من العجائب والآيات مالم يخطر قط بباله ، ولا اختلج به ضميره . فلو لم يكن للعاقل هم وغم إلا الفكرة في خطر تلك الحال ، أن الحجاب عما ذا يرتفع ، وما الذي ينكشف عنه الغطاء من شقاوة لازمة أم سعادة دائمة ، لكان ذلك كافيا في استغراق جميع العمر

والعجب من غفلتنا وهذه العظائم بين أيدينا ، وأعجب من ذلك فرحنا بأموالنا ، وأهلينا ، وبأسبابنا ، وذريتنا ، بل بأعضائنا ، وسمعنا ، وبصرنا ، مع أنا نعلم مفارقة جميع ذلك يقينا ، ولكن [١] أين من ينفث روح القدس في روعه فيقول ما قال لسيد النبيين : أحبب من أحببت فإنك مفارقه ، وعش ماشئت فإنك ميت ، واعمل ماشئت فإنك مجزي به ؟ فلاجرم لما كان ذلك مكشوفا له بعين اليقين كان في الدنيا كعابر سبيل [٢] لم يضع لبنة على لبنة ، ولا قصبة على قصبة [٣] ، ولم يخلف دينارا ولا درهما ، ولم يتخذ حبيبا ولا خليلا . نعم قال [٤] « لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الرحمن » فبين أن خلة الرحمن تخللت باطن قلبه ، وأن حبه تمكن من حبة قلبه ، فلم يترك فيه متسعا لخليل ولا حبيب . وقد قال لأمته (إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله [٣]) فإنما أمته من اتبعه ، وما اتبعه إلا من أعرض عن الدنيا وأقبل على الآخرة ، فإنه مادعا إلا إلى الله واليوم الآخر ، وما صرف إلا عن الدنيا والحظوظ العاجلة . فبقدر ما أعرضت عن الدنيا وأقبلت على الآخرة فقد سلكت سبيله الذي سلكه . وبقدر ماسلكت سبيله فقد اتبعته ، وبقدر ما اتبعته فقد صرت من أمته ، وبقدر ما أقبلت على الدنيا عدلت عن سبيله ورغبت عن متابعته ،

---

(١) حديث ان روح القدس نفث في روعي أحبب من أحببت فانك مفارقه : الحديث تقدم
(٢) حديث لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة : تقدم أيضا
(٣) حديث لم يخلف دينارا ولا درهما : تقدم أيضا
(٤) حديث لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر ولكن صاحبكم خليل الرحمن : تقدم أيضا

---

(١) الطور : ١٥ ، ١٦ (٢) الزمر : ٤٧ (٣) آل عمران : ٣١

والتحقت بالذين قال الله تعالى فيهم (فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى[١])

فلو خرجت من مكمن الغرور ، وأنصفت نفسك يارجل ، وكلنا ذلك الرجل ، لعلمت أنك من حين تصبح إلى حين تمسى لا تسعى إلا في الحظوظ العاجلة ، ولا تتحرك ولا تسكن إلا لعاجل الدنيا ، ثم تطمع أن تكون غدا من أمته وأتباعه ! ما أبعد ظنك ، وما أبرد طمعك (أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ[٢])

ولنرجع إلى ما كنا فيه وبصدده فقد امتدّ عنان الكلام إلى غير مقصده . ولنذكر الآن من المنامات الكاشفة لأحوال الموتى ما يعظم الانتفاع به ، إذ ذهبت النبوة وبقيت المبشرات وليس ذلك إلا المنامات .

بيان

منامات تكشف عن أحوال الموتى والأعمال النافعة فى الآخرة

فمن ذلك رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم[١] وقد قال عليه السلام « مَنْ رَآنِي فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَآنِي حَقًّا فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَمَثَّلُ بِي » وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام ، فرأيته لا ينظر إليّ ، فقلت يارسول الله ما شأنى؟ فالتفت إليّ وقال : ألست المقبّل وأنت صائم؟ قال والذى نفسى بيده لا أقبّل امرأة وأنا صائم أبدا

وقال العباس رضي الله عنه . كنت ودا لعمر ، فاشتهيت أن أراه فى المنام ، فما رأيته إلا عند رأس الحول ، فرأيته يمسح العرق عن جبينه وهو يقول هذا أوان فراغى ، إن كان عرشى ليهد لولا أنى لقيته رؤفا رحيما .

وقال الحسن بن على . قال لى علي رضي الله عنه . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سنح لى الليلة فى منامى ، فقلت يارسول الله ، مالقيت من أمتك ! قال ادع عليهم . فقلت اللهم أبدلنى بهم من هو خير لى منهم ، وأبدلهم بى من هو شر لهم منى فخرج فضربه ابن ملجم

---

(١) حديث من رآنى فى المنام فقد رآنى فان الشيطان لا يتخيل بى : متفق عليه من حديث أبى هريرة

[١] النازعات : ٣٧ [٢] القلم : ٣٥ ، ٣٦

وقال بعض الشيوخ : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت يا رسول الله استغفر لي ، فأعرض عني . فقلت يا رسول الله إن سفيان[1] بن عيينة حدثنا عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله ، أنك لم تُسأل شيئاً قط فقلت لا . فأقبل علي فقال غفر الله لك

وروي عن العباس بن عبد المطلب قال : كنت مواخيا لأبي لهب ، مصاحبا له ؛ فلما مات وأخبر الله عنه بما أخبر ، حزنت عليه ، وأهمني أمره . فسألت الله تعالى حولا أن يريني إياه في المنام . قال فرأيته يلتهب نارا ، فسألته عن حاله فقال : صرت إلى النار في العذاب ، لا يخفف عني ولا يروّح إلا ليلة الإثنين في كل الأيام والليالي ؛ قلت وكيف ذلك؟ قال ولد في تلك الليلة محمد صلى الله عليه وسلم ، فجاءتني أميمة فبشرتني بولادة آمنة إياه ، ففرحت به ، وأعتقت وليدة لي فرحا به ، فأثابني الله بذلك أن رفع عني العذاب في كل ليلة اثنين

وقال عبد الواحد بن زيد : خرجت حاجا ، فصحبني رجل كان لا يقوم ، ولا يقعد ، ولا يتحرك ، ولا يسكن ، إلا صلى على النبي صلى الله عليه وسلم . فسألته عن ذلك فقال : أخبرك عن ذلك . خرجت أول مرة إلى مكة ومعي أبي ، فلما انصرفنا نمت في بعض المنازل ، فبينا أنا نائم إذ أتاني آت فقال لي : قم فقد أمات الله أباك وسود وجهه ، قال فقمت مذعورا ، فكشفت الثوب عن وجهه ، فإذا هو ميت أسود الوجه . فداخلني من ذلك رعب . فبينا أنا في ذلك الغم ، إذ غلبتني عيني فنمت ، فإذا على رأس أبي أربعة سودان معهم أعمدة حديد ، إذ أقبل رجل حسن الوجه بين ثوبين أخضرين ، فقال لهم تنحوا . فمسح وجهه بيده ، ثم أتاني فقال قم فقد بيض الله وجه أبيك . فقلت له من أنت بأبي أنت وأمي ؟ فقال أنا محمد . قال فقمت فكشفت الثوب عن وجه أبي ، فإذا هو أبيض فما تركت الصلاة بعد ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم

وعن عمر بن عبد العزيز قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما جالسان عنده ، فسلّمت وجلست ، فبينما أنا جالس إذ أُتي بعليّ ومعاوية ، فأدخلا بيتا ، وأجيف عليهما الباب وأنا أنظر ، فما كان بأسرع من أن خرج

---

(١) حديث ابن عيينة عن محمد بن المنكدر عن جابر ماسئل النبي صلى الله عليه وسلم شيئا قط فقال لا : رواه مسلم وقد تقدم

علي رضي الله عنه وهو يقول : قضى لى ورب الكعبة . وما كان باسرع من أن خرج معاوية على أثره وهو يقول : غفر لى ورب الكعبة

واستيقظ ابن عباس رضي الله عنهما مرة من نومه فاسترجع وقال : قتل الحسين والله وكان ذلك قبل قتله ، فأنكره أصحابه . فقال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه زجاجة من دم ، فقال ألا تعلم ماصنعت أمتى بعدى ؟ قتلوا ابنى الحسين ، وهذا دمه ودم أصحابه أرفعها إلى الله تعالى . فجاء الخبر بعد أربعة وعشرين يوما بقتله فى اليوم الذى رآه

ورؤي الصديق رضي الله عنه ، فقيل له إنك كنت تقول أبدا فى لسانك : هذا أوردنى الموارد ، فماذا فعل الله بك ؟ قال قلت به لا إله إلا الله فأوردنى الجنة

بيان

منامات المشايخ رحمة الله عليهم أجمعين

قال بعض المشايخ : رأيت متمما الدورقى فى المنام ، فقلت ياسيدى مافعل الله بك ؟ فقال ديرىى فى الجنان ، فقيل لى يامتمم هل استحسنت فيها شيئا ؟ قلت لاياسيدى . فقال لواستحسنت منها شيئا لوكلتك إليه ، ولم أوصلك إلىّ

ورؤي يوسف بن الحسين فى المنام ، فقيل له مافعل الله بك ؟ قال غفرلى . قيل بماذا ؟ قال ماخلطت جدا بهزل

وعن منصور بن اسماعيل قال : رأيت عبد الله البزار فى النوم ، فقلت مافعل الله بك ؟ قال أوقفنى بين يديه ، فغفرلى كل ذنب أقررت به إلاذنبا واحدا ، فإنى استحييت أن أقرّ به . فأوقفنى فى العرق حتى سقط لحم وجهى . فقلت ماكان ذلك الذنب ؟ قال نظرت إلى غلام جميل فاستحسنته ، فاستحييت من الله أن أذكره

وقال أبو جعفر الصيدلانى : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم ، وحوله جماعة من الفقراء فبينما نحن كذلك إذ انشقت السماء ، فنزل ملكان ، أحدهما بيده طشت ، وبيد الآخر إبريق . فوضع الطشت بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فغسل يده ، ثم أمر حتى غسلوا ، ثم وضع الطشت بين يديّ ، فقال أحدهما للآخر : لاتصب على يده

فإنه ليس منهم . فقلت يارسول الله أليس قد روي عنك أنك قلت المرء مع من أحب ؟ قال بلى : قلت يارسول الله فإني أحبك وأحب هؤلاء الفقراء . فقال صلى الله عليه وسلم : صب على يده فإنه منهم

وقال الجنيد : رأيت في المنام كأني أتكلم على الناس ، فوقف علي ملك فقال : أقرب ماتقرب به المتقربون إلى الله تعالى ماذا ؟ فقلت عمل خفي بميزان وفي . فولى الملك وهو يقول: كلام موفق والله . ورؤي مجمع في النوم ، فقيل له كيف رأيت الأمر ؟ فقال رأيت الزاهدين في الدنيا ذهبوا بخير الدنيا والآخرة

وقال رجل من أهل الشام للعلاء بن زياد : رأيتك في النوم كأنك في الجنة . فنزل عن مجلسه وأقبل عليه ثم قال : لعل الشيطان أراد أمرا فعصمت منه ، فأشخص رجلا يقتلني

وقال محمد بن واسع : الرؤيا تسر المؤمن ولا تغره

وقال صالح بن بشير : رأيت عطاء السلمي في النوم فقلت له رحمك الله ، لقد كنت طويل الحزن في الدنيا . قال أما والله لقد أعقبني ذلك راحة طويلة وفرحا دائما . فقلت في أي الدرجات أنت ؟ فقال مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين الآية

وسئل زرارة بن أبي أوفى في المنام أي الأعمال أفضل عندكم ؟ فقال: الرضا وقصر الأمل

وقال يزيد بن مذعور : رأيت الأوزاعي في المنام ، فقلت : ياأباعمرو ، دلني على عمل أتقرب به إلى الله تعالى قال : ما رأيت هناك درجة أرفع من درجة العلماء ، ثم درجة المحزونين . قال وكان يزيد شيخا كبيرا فلم يزل يبكي حتى أظلمت عيناه

وقال ابن عيينة : رأيت أخي في المنام ، فقلت ياأخي مافعل الله بك ؟ فقال كل ذنب استغفرت منه غفر لي ، وما لم أستغفر منه لم يغفر لي

وقال علي الطلحي : رأيت في المنام امرأة لاتشبه نساء الدنيا ؛ فقلت من أنت ؟ فقالت حوراء . فقلت زوجيني نفسك . قالت اخطبني إلى سيدي وأمهرني . قلت وما مهرك ؟ قالت حبس نفسك عن آفاتها

وقال ابراهيم بن اسحاق الحربي : رأيت زبيدة في المنام ، فقلت مافعل الله بك ؟ قالت غفر لي . فقلت لها بما أنفقت في طريق مكة ؟ قالت أما النفقات التي أنفقتها رجعت

أجورهاالتي أربابها وغفر لي بذلك

ولما مات سفيان الثوري رئي في المنام، فقيل له مافعل الله بك ؟ قال وضعت أول قدمي على الصراط ، والثاني في الجنـــة

وقال أحمد بن أبي الحواري : رأيت فيما يري النائم جارية مارأيت أحسن منها وكان يتلألأ وجهها نورا ، فقلت لها مما ذا ضوء وجهك ؟ قالت تذكر تلك الليلة التي بكيت فيها قلت نعم قالت أخذت دمعك فسحت به وجهي،فمن ثم ضوء وجهي،كما ترى

وقال الكتاني : رأيت الجنيد في المنام ، فقلت له مافعل الله بك ؟ قال طاحت تلك الإشارات ، وذهبت تلك العبارات ، وما حصلنا إلا على ركعتين كنا نصليهما في الليل

ورئيت زبيدة في المنام ، فقيل لها مافعل الله بك ، قالت غفر لي بهذه الكلمات الأربع لا إله إلا الله أفني بها عمري . لا إله إلا الله أدخل بهـا قبري ، لا إله إلا الله أخلو بها وحدي ،لا إله إلا الله ألقى بها ربي

وريء بشر في المنام ، فقيل له مافعل الله بك ، قال رحمني ربي عز وجل وقال : يابشر أما استحييت مني ؟ كنت تخافني كل ذلك الخوف ؟

ورؤي أبو سليمان في النوم ، فقيل له مافعل الله بك ؟ قال رحمني ، وما كان شيء أضر علي من إشارات القوم إلي

وقال أبو بكر الكتاني : رأيت في النوم شابا لم أر أحسن منه ، فقلت له من أنت؟ قال التقوى. قلت فأين تسكن ؟ قال كل قلب حزين . ثم التفت وإذا امرأة سوداء فقلت من أنت ؟ قالت أنا السقم . قلت فأين تسكنين ، قالت كل قلب فرح مرح . قال فانتبهت وتعاهدت أن لاأضحك إلا غلبة

وقال أبو سعيد الخراز : رأيت في المنام كأن إبليس وثب علي ، فأخذت العصا لأضربه فلم يفزع منها ، فهتف بي هاتف : إن هذا لايخاف من هذه ، وإنما يخاف من نور يكون في القلب

وقال المسوحي : رأيت إبليس في النوم يمشي عريانا ، فقلت ألا تستحيي من الناس ، فقال بالله هؤلاء ناس ؟ لو كانوا من الناس ما كنت ألعب بهم طرفي النهار كما يتلاعب الصبيان بالكرة ، بل الناس قوم غير هؤلاء قد أسقموا جسمي ، وأشار بيده إلى أصحابنا الصوفية

وقال أبو سعيد الخراز : كنت فى دمشق ، فرأيت فى المنام كأن النبي صلى الله عليه وسلم جاءنى متكئا على أبى بكر وعمر رضي الله عنهما ، فجاء فوقف عليّ وأنا أقول شيئا من الأصوات وأدق فى صدرى ، فقال شر هذا أكثر من خيره .

وعن ابن عيينة قال : رأيت سفيان الثورى فى النوم كأنه فى الجنة ، يطير من شجرة إلى شجرة ، يقول لمثل هذا فليعمل العاملون . فقلت له أوصنى . قال أقلل من معرفة الناس

وروي أبو حاتم الرازى ، عن قبيصة بن عقبة قال : رأيت سفيان الثورى ، فقلت مافعل الله بك ؟ فقال :

نظرت إلى ربى كفاحا فقال لى ... هنيئا رضائى عنك ياابن سعيد
فقد كنت قواما إذا أظلم الدجى ... بعبرة مشتاق وقلب عميد
فدونك فاختر أى قصر أردته ... وزرنى فإنى منك غير بعيد

ورؤى الشبلى بعد موته بثلاثة أيام ، فقيل له مافعل الله بك ؟ قال ناقشنى حتى أيست فلما رأى يأسى تغمدنى برحمته .

ورؤي مجنون بنى عامر بعد موته فى المنام ، فقيل له مافعل الله بك ؟ قال غفر لى وجعلنى حجة على المحبين .

ورؤي الثورى فى المنام ، فقيل له مافعل الله بك ؟ قال رحمنى . فقيل له ماحال عبد الله ابن المبارك ؟ فقال هو ممن يلج على ربه فى كل يوم مرتين .

ورؤي بعضهم فسئل عن حاله ، فقال حاسبونا فدققوا ، ثم منوا فأعتقوا

ورؤي مالك بن أنس ، فقيل له مافعل الله بك ؟ قال غفر لى بكلمة كان يقولها عثمان ابن عفان رضي الله عنه عند رؤية الجنازة ، سبحان الحي الذى لايموت .

ورئ فى الليلة التى مات فيها الحسن البصرى ، كأن أبواب السماء مفتحة ، وكأن مناديا ينادى : ألا إن الحسن البصرى قدم على الله وهو عنه راض

ورئ الجاحظ ، فقيل له مافعل الله بك ؟ فقال :

ولا تكتب بخطك غير شىء ... يسرك فى القيامة أن تراه

ورأى الجنيد إبليس فى المنام عريانا ، فقال ألا تستحيي من الناس ؟ فقال وهؤلاء ناس ؟

الناس النوام فى مسجد الشونيزية ، قد أضنوا جسدى ؛ وأحرقوا كبدى . قال الجنيد . فلما انتبهت غدوت إلى المسجد ، فرأيت جماعة قد وضعوا رؤسهم على ركبهم يتفكرون فلما رأونى قالوا لا يغرنك حديث الخبيث .

ورؤى النصراباذى بمكة بعد وفاته فى النوم ، فقيل له مافعل الله بك ؟ قال عوتبت عتاب الأشراف ، ثم نوديت ياأبا القاسم ، أَبَعْدَ الاتصال انفصال ؟ فقلت لا ياذا الجلال فما وضعت فى اللحد حتى لحقت بربى .

ورأى عتبة الغلام حوراء فى المنام على صورة حسنة ، فقالت ياعتبة ، أنا لك عاشقة ، فانظر لاتعمل من الأعمال شيئا فيحال بينى وبينك . فقال عتبة : طلقت الدنيا ثلاثا ، لارجعة لى عليها حتى ألقاك .

وقيل رأى أيوب السختيانى جنازة عاص ، فدخل الدهليز كيلا يصلى عليها ، فرأى الميت بعضهم فى المنام ، فقيل له مافعل الله بك ، قال غفرلى وقال : قل لأيوب (قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّى إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ [1])

وقال بعضهم : رأيت فى الليلة التى مات فيها داود الطائى نورا ، وملائكة نزولا ، وملائكة صعودا . فقلت أى ليلة هذه ؟ فقالوا ليلة مات فيها داود الطائى وقد زخرفت الجنة لقدوم روحه

وقال أبو سعيد الشحام : رأيت سهلا الصعلوكى فى المنام ، فقلت أيها الشيخ ، قال دع التشييخ . قلت تلك الأحوال التى شاهدتها ، فقال لم تغن عنا . فقلت مافعل الله بك . قال غفرلى بمسائل كان يسأل عنها العجز

وقال أبو بكر الرشيدى : رأيت محمدا الطوسى المعلم فى النوم ، فقال لى : قل لأبى سعيد الصفار المؤدب .

وكنا على أن لانحول عن الهوى ۝ فقد وحياة الحب حلتم وما حلنا

قال فانتبهت فذكرت ذلك له ، فقال كنت أزور قبره كل جمعة ، فلم أزره هذه الجمعة

وقال ابن راشد : رأيت ابن المبارك فى النوم بعد موته ، فقلت أليس قدمت ؟ قال بلى ،

---

(١) الاسراء : ١٠٠

قلت فما صنع الله بك ؟ قال غفرلى مغفرة احاطت بكل ذنب . قلت فسفيان الثوري ، قال بخ بخ ، ذلك من الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين الآية

وقال الربيع بن سليمان : رأيت الشافعى رحمة الله عليه بعد وفاته فى المنام ، فقلت ياأبا عبد الله ، ماصنع الله بك ؟ قال أجلسنى على كرسي من ذهب ونثر عليّ اللؤلؤ الرطب

ورأى رجل من أصحاب الحسن البصرى ليلة مات الحسن، كأن مناديا ينادى (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ [1]) واصطفى الحسن البصرى على أهل زمانه . وقال أبو يعقوب القارى الدقيق رأيت فى منامى رجلا آدم طوالا والناس يتبعونه فقلت من هذا ؟ قالوا أويس القرنى . فأتيته فقلت وصنى رحمك الله . فكلح فى وجهى فقلت مسترشد فأرشدنى أرشدك الله . فأقبل علي وقال :اتبع رحمة ربك عند محبته ،واحذر نقمته عند معصيته ، ولا تقطع رجاءك منه فى خلال ذلك ، ثم ولى وتركنى

وقال أبو بكر بن أبى مريم . رأيت ورقاء بن بشر الحضرمى ، فقلت مافعلت ياورقاء قال نجوت بعد كل جهد . قلت فأي الأعمال وجدتموها أفضل ، قال البكاء من خشية الله

وقال يزيد ابن نعامة : هلكت جارية فى الطاعون الجارف ، فرآها أبوها فى المنام فقال لها يابنية أخبرينى عن الآخرة . قالت ياأبت قدمنا على أمر عظيم ، نعلم ولا نعمل ، وتعملون ولا تعلمون ، والله لتسبيحة أو تسبيحتان ، أو ركعة أو ركعتان فى فسحة عمل أحب إلىّ من الدنيا وما فيها .

وقال بعض أصحاب عتبة الغلام : رأيت عتبة فى المنام . فقلت ماصنع الله بك ؟ قال دخلت الجنة بتلك الدعوة المكتوبة فى بيتك . قال فلما أصبحت جئت إلى بيتى ، فإذا خط عتبة الغلام فى حائط البيت : ياهادي المضلين ، وياراحم المذنبين ، ويامقيل عثرات العاثرين ، ارحم عبدك ذا الخطر العظيم والمسلمين كلهم أجمعين ، واجعلنا مع الأحياء المرزوقين الذين أنعمت عليهم من النبيين ، والصديقين ، والشهداء والصالحين آمين يارب العالمين

وقال موسى بن حماد : رأيت سفيان الثورى فى الجنة ، يطير من نخلة إلى نخلة ،

---

(1) آل عمران : ٣٣

ومن شجرة إلى شجرة . فقلت ياأبا عبد الله ، بم نلت هـذا ؟ قال بالورع . قلت فما بال علي بن عاصم ؟ قال ذاك لايكاد يرى إلا كما يرى الكوكب

ورأى رجل من التابعين النبي صلى الله عليه وسلم في المنام . فقال: يارسول الله عظني . قال نعم من لم يتفقد النقصان فهو في نقصان . ومن كان في نقصان فالموت خير له

وقال الشافعي رحمة الله عليه : دهمني في هذه الأيام أمر أمضني وآلمني ، ولم يطلع عليه غير الله عز وجل ، فلما كان البارحة أتاني آت في منامي ، فقال لي يامحمد بن إدريس ، قل اللهم إني لا أملك لنفسي نفعا ، ولا ضرا ، ولا موتا ، ولا حياة ، ولا نشورا . ولا أستطيع أن آخذ إلا ماأعطيتني ، ولا اتقي إلا ماوقيتني . اللهم فوفقني لما تحب وترضى من القول والعمل في عافية . فلما أصبحت أعدت ذلك ، فلما ترحل النهار أعطاني الله عز وجل طلبتي ، وسهل لي الخلاص مما كنت فيه ، فعليكم بهذه الدعوات لاتغفلوا عنها

فهذه جملة من المكاشفات تدل على أحوال الموتى ، وعلى الأعمال المقربة إلى الله زلفى فلنذكر بعدها مابين يدي الموتى من ابتداء نفخة الصور إلى آخر القرار ، إما في الجنة أو في النار ، والحمد لله حمد الشاكرين

الشطر الثاني

من كتاب ذكر الموت ، في أحوال الميت من وقت نفخة الصور

إلى آخر الاستقرار في الجنة أو في النار ، وتفصيل مابين يديه من الأهوال والأخطار

وفيه بيان نفخة الصور ، وصفة أهل المحشر وأهله ، وصفة عرق أهل المحشر ، وصفة طول يوم القيامة ، وصفة يوم القيامة ودواهيها وأساميها ، وصفة المساءلة عن الذنوب وصفة الميزان ، وصفة الخصماء ورد المظالم ، وصفة الصراط ، وصفة الشفاعة ، وصفة الحوض وصفة جهنم وأهوالها ، وأنكالها ، وحياتها ، وعقاربها ، وصفة الجنة وأصناف نعيمها ، وعدد الجنان ، وأبوابها ، وغرفها ، وحيطانها ، وأنهارها ، وأشجارها ، ولباس أهلها ، وفرشهم وسررهم ، وصفة طعامهم ، وصفة الحور العين والولدان ، وصفة النظر إلى وجه الله تعالى ، وباب في سعة رحمة الله تعالى ، وبه ختم الكتاب إن شاء الله تعالى

صفة

نفخة الصور

قد عرفت فيما سبق شدة أحوال الميت فى سكرات الموت ، وخطره فى خوف العاقبة ، ثم مقاساته لظلمة القبر وديدانه ، ثم لمنكر ونكير وسؤالهما ، ثم لعذاب القبر وخطره إن كان مغضوبا عليه . وأعظم من ذلك كله الأخطار التى بين يديه ، من نفخ الصور ، والبعث يوم النشور ، والعرض على الجبار ، والسؤال عن القليل والكثير ، ونصب الميزان لمعرفة المقادير ، ثم جواز الصراط مع دقته وحدته ، ثم انتظار النداء عند فصل القضاء إما بالإسعاد وإما بالإشقاء . فهذه أحوال وأهوال لابد لك من معرفتها ثم الإيمان بها على سبيل الجزم والتصديق ، ثم تطويل الفكر فى ذلك لينبعث من قلبك دواعى الاستعداد لها

وأكثر الناس لم يدخل الإيمان باليوم الآخر صميم قلوبهم ، ولم يتمكن من سويداء أفئدتهم . ويدل على ذلك شدة تشمرهم واستعدادهم لحر الصيف وبرد الشتاء ، وتهاونهم بحر جهنم وزمهريرها ، مع ماتكتنفه من المصاعب والأهوال . بل إذا سئلوا عن اليوم الآخر نطقت به ألسنتهم ، ثم غفلت عنه قلوبهم . ومن أخبر بأن مابين يديه من الطعام مسموم ، فقال لصاحبه الذى أخبره صدقت ، ثم مد يده لتناوله ، كان مصدقا بلسانه ، ومكذبا بعمله ، وتكذيب العمل أبلغ من تكذيب اللسان

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم[1] « قَالَ اللهُ تَعَالَى شَتَمَنِي ابْنُ آدَمَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَشْتُمَنِي وَكَذَّبَنِي وَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُكَذِّبَنِي ، أَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَيَقُولُ إِنَّ لِي وَلَدًا وَأَمَّا تَكْذِيبُهُ فَقَوْلُهُ لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي »

وإنما فتور البواطن عن قوة اليقين والتصديق بالبعث والنشور لقلة الفهم فى هذا العالم لأمثال تلك الأمور . ولو لم يشاهد الإنسان توالد الحيوانات ، وقيل له إن صانعا يصنع من النطفة

(الشطر الثانى من وقت نفخة الصور)

(١) حديث قال الله تعالى شتمنى ابن آدم وما ينبغى له أن يشتمنى وكذبنى وما ينبغى له أن يكذبنى الحديث : البخارى من حديث أبى هريرة

القـذرة مثل هـذا الآدمي المصور ، العاقل ، المتكلم ، المتصرف ، لاشتد نفور باطنه عن التصديق به . ولذلك قال الله تعالى (أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ [١]) وقال تعالى (أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِن مَّنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى [٢])

ففي خلق الآدمي مع كثرة عجائبه ، واختلاف تركيب أعضائه ، أعاجيب تزيد على الأعاجيب في بعثه وإعادته . فكيف ينكر ذلك من قدرة الله تعالى وحكمته من يشاهد ذلك في صنعته وقدرته ! فإن كان في إيمانك ضعف فقو الإيمان بالنظر في النشأة الأولى ، فإن الثانية مثلها وأسهل منها . وإن كنت قوى الإيمان بها فأشعر قلبك تلك المخاوف والأخطار ، وأكثر فيها التفكر والاعتبار ، لتسلب عن قلبك الراحة والقرار ، فتشتغل بالتشمر للعرض على الجبار ، وتفكر أولا فيما يقرع سمع سكان القبور ، من شدة نفخ الصور ، فإنها صيحة واحدة تنفرج بها القبور عن رءوس الموتى ، فيثورون دفعة واحدة ، فتوهم نفسك وقد وثبت متغيرا وجهك ، مغبرا بدنك من فرقك إلى قدمك من تراب قبرك ، مبهوتا من شدة الصعقة ، شاخص العين نحو النداء ، وقد ثار الخلق ثورة واحدة من القبور التي طال فيها بلاؤهم ، وقد أزعجهم الفزع والرعب مضافا إلى ما كان عندهم من الهموم ، والغموم ، وشدة الانتظار لعاقبة الأمر ، كما قال تعالى (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ [٣]) وقال تعالى (فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ [٤]) وقال تعالى (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلاَ إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ [٥])

فلو لم يكن بين يدى الموتى إلا هول تلك النفخة ، لكان ذلك جديرا بأن يتقى ، فإنها

---

(١) يس : ٧٧ (٢) القيامة : ٣٦ إلى ٣٩ (٣) الزمر : ٦٨ (٤) المدثر : ٨ إلى ١٠ (٥) يس : ٤٨ إلى ٥٢

نفخة وصيحة يصعق بها من فى السموات والأرض ، يعنى يموتون بها إلا من شاء الله وهو بعض الملائكة . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الصُّورِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ وَحَنَى الْجَبْهَةَ وَأَصْغَى بِالْأُذُنِ يَنْتَظِرُ مَتَى يُؤْمَرُ فَيَنْفُخُ » قال مقاتل : الصور هو القرن . وذلك أن إسرافيل عليه السلام واضع فاه على القرن كهيئة البوق ، ودائرة رأس القرن كعرض السموات والأرض ، وهو شاخص بصره نحو العرش ، ينتظر متى يؤمر فينفخ النفخة الأولى . فإذا نفخ صعق من فى السموات والأرض ، أي مات كل حيوان من شدة الفزع إلا من شاء الله ، وهو جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل وملك الموت . ثم يأمر ملك الموت أن يقبض روح جبريل ، ثم روح ميكائيل ، ثم روح إسرافيل . ثم يأمر ملك الموت فيموت ، ثم يلبث الخلق بعد النفخة الأولى فى البرزخ أربعين سنة ، ثم يحيي الله إسرافيل ، فيأمره أن ينفخ الثانية . فذلك قوله تعالى (ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ [١]) على أرجلهم ينظرون إلى البعث

وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « حِينَ بُعِثَ إِلَيَّ بُعِثَ إِلَى صَاحِبِ الصُّورِ فَأَهْوَى بِهِ إِلَى فِيهِ وَقَدَّمَ رِجْلاً وَأَخَّرَ أُخْرَى يَنْتَظِرُ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ أَلاَ فَاتَّقُوا النَّفْخَةَ » فتفكر فى الخلائق وذلهم ، وانكسارهم ، واستكانتهم عند الانبعاث خوفا

---

(١) حديث كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن وحنى الجبهة ـ الحديث : الترمذى من حديث أبى سعيد وقال حسن ورواه ابن ماجه بلفظ أن صاحبي القرن بأيديهما أو فى أيديهما قرنان يلاحظان النظر متى يؤمران وفى رواية ابن ماجه الحجاج بن أرطاه : مختلف فيه

(٢) حديث حين بعث إلي بعث إلى صاحب الصور فأهوى به إلى فيه وقدم رجلا وأخر أخرى ـ الحديث : لم أجده هكذا بل قد ورد أن اسرافيل من حين ابتداء الخلق وهو كذلك كما رواه البخارى فى التاريخ وأبو الشيخ فى كتاب العظمة من حديث أبى هريرة أن الله تبارك وتعالى لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصور فأعطاه اسرافيل فهو واضعه على فيه شاخص ببصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر : قال البخارى ولم يصح وفى رواية لأبى الشيخ ماطرف صاحب الصور مذ وكل به مستعد ينظر نحو العرش مخافة أن يؤمر قبل أن يرتد إليه طرفه كأن عينيه كوكبان دريان : وإسنادها جيد

---

(١) الزمر : ٦٨

من هذه الصعقة ، وانتظارا لما يقضى عليهم من سعادة أوشقاوة ، وأنت فيما بينهم منكسر كانكسارهم ، متحير كتحيرهم بل إن كنت فى الدنيا من المترفهين والأغنياء المتنعمين ، فلوك الأرض فى ذلك اليوم أذل أهل أرض الجمع ، وأصغرهم ، وأحقرهم ، يوطؤن بالأقدام مثل الذر . وعند ذلك تقبل الوحوش من البرارى والجبال ، منكسة رءوسها ، مختلطة بالخلائق بعد توحشها ، ذليلة ليوم النشور من غير خطيئة تدنست بها . ولكن حشرتهم شدة الصعقة ، وهول النفخة ، وشغلهم ذلك عن الهرب من الخلق والتوحش منهم . وذلك قوله تعالى (وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ [1]) ثم أقبلت الشياطين المردة بعد تمردها وعتوّها ، وأذعنت خاشعة من هيبة العرض على الله تعالى ، تصديقا لقوله تعالى (فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا [2]) فتفكر فى حالك وحال قلبك هنالك

صفة

أرض المحشر وأهله

ثم انظر كيف يساقون بعد البعث والنشور حفاة ، عراة ، غرلا ، إلى أرض المحشر ، أرض بيضاء ، قاع صفصف ، لاترى فيها عوجا ولاأمتا ، ولاترى عليها ربوة يختفى الإنسان وراءها ، ولاوهدة ينخفض عن الأعين فيها ، بل هو صعيد واحد بسيط ، لاتفاوت فيه ، يساقون إليه زمرا . فسبحان من جمع الخلائق على اختلاف أصنافهم من أقطار الأرض ، إذ ساقهم بالراجفة تتبعها الرادفة . والراجفة هي النفخة الأولى ، والرادفة هي النفخة الثانية . وحقيق لتلك القلوب أن تكون يومئذ واجفة ، ولتلك الأبصار أن تكون خاشعة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] « يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ

---

(١) حديث يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرص النقى ليس فيها معلم لأحد متفق

(١) التكوير : ٥ (٢) مريم : ٦٨

بَيْضاءَ عفراءَ كَقُرْصِ النَّقِيّ لَيْسَ فِيها مَعْلَمٌ لِأَحَدٍ » قال الراوى . والعفرة بياض ليس بالناصع ، والنقى هو النقى عن القشر والنخالة ، ومعلم أى لابناء يستر ، ولاتفاوت يرد البصر . ولاتظنن أن تلك الأرض مثل أرض الدنيا ، بل لاتساويها إلا فى الاسم ، قال تعالى (يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمٰوَاتُ[1]) قال ابن عباس يزاد فيها وينقص ، وتذهب أشجارها ، وجبالها ، وأوديتها ، وما فيها ، وتمد مد الأديم العكاظى ، أرض بيضاء مثل الفضة ، لم يسفك عليها دم ، ولم يعمل عليها خطيئة والسموات تذهب شمسها ، وقمرها ، ونجومها

فانظر يامسكين فى هول ذلك اليوم وشدته ، فإنه إذا اجتمع الخلائق على هذا الصعيد تناثرت من فوقهم نجوم السماء ، وطمس الشمس والقمر ، وأظلمت الأرض لخمود سراجها ، فبيناهم كذلك إذ دارت السماء من فوق رءوسهم ، وانشقت مع غلظها وشدتها خمسمائة عام ، والملائكة قيام على حافاتها وأرجائها ، فيا هول صوت انشقاقها فى سمعك ، وياهيبة ليوم تنشق فيه السماء مع صلابتها وشدتها ، ثم تنهار وتسيل كالفضة المذابة تخالطها صفرة ، فصارت وردة كالدهان ، وصارت السماء كالمهل ، وصارت الجبال كالعهن ، واشتبك الناس كالفراش المبثوث ، وهم حفاة ، عراة ، مشاة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] « يُبْعَثُ النَّاسُ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً * قَدْ أَلْجَمَهُمُ الْعَرَقُ وَبَلَغَ شُحُومَ الآذَانِ » قالت سودة زوج النبي صلى الله عليه وسلم راوية الحديث : قلت يارسول الله واسوأتاه ! ينظر بعضنا إلى بعض ؟ فقال شغل الناس عن ذلك بهم (لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ[2]) فأعظم بيوم تنكشف فيه العورات ، ويؤمن فيه مع ذلك النظر والالتفات . كيف وبعضهم يمشون على

علبة من حديث سهل ابن سعد وفصل البخارى قوله ليس فيها معلم لأحد فجعلها من قول سهل أو غيره وأدرجها مسلم فيه

(١) حديث يبعث الناس حفاة عراة غرلا قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان قالت سوده رواية الحديث واسوأتاه ـ الحديث : الثعلبي والبغوى وهو فى الصحيحين من حديث عائشة وهى القائلة واسوأتاه : ورواه الطبرانى فى الأوسط من حديث أم سلمة وهى القائلة واسوأتاه.

---

(١) ابراهيم : ٤٨ (٢) عبس ، ٣٧

---

* غرلا : أى من غير اختتان .

بطونهم ووجوههم ، فلا قدرة لهم على الالتفات إلى غيرهم قال [١] أبو هريرة رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلاثَةَ أَصْنَافٍ رُكْبَانًا وَمُشَاةً وَعَلَى وُجُوهِهِمْ » فقال رجل يارسول الله ، وكيف يمشون على وجوههم ؟ قال « الَّذِي أَمْشَاهُمْ عَلَى أَقْدَامِهِمْ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُمْ عَلَى وُجُوهِهِمْ »

في طبع الآدمي إنكار كل مالم يأنس به . ولولم يشاهد الإنسان الحية وهي تمشى على بطنها كالبرق الخاطف ، لأنكر تصوّر المشي على غير رجل . والمشي بالرجل أيضا مستبعد عند من لم يشاهد ذلك . فإياك أن تنكر شيئا من عجائب يوم القيامة لمخالفته قياس مافى الدنيا ، فإنك لولم تكن قد شاهدت عجائب الدنيا ، ثم عرضت عليك قبل المشاهدة ، لكنت أشد إنكارا لها : فأحضر فى قلبك صورتك وأنت واقف عاريا ، مكشوفا ، ذليلا ، مدحورا ، متحيرا ، مبهوتا ، منتظرا لما يجرى عليك من القضاء بالسعادة أو بالشقاوة ، وأعظم هذه الحال فإنها عظيمة

صفة العرق

ثم تفكر فى ازدحام الخلائق واجتماعهم ، حتى ازدحم على الموقف أهل السموات السبع والأرضين السبع ، من ملك ، وجن ، وإنس ، وشيطان ، ووحش ، وسبع ، وطير ، فأشرقت عليهم الشمس وقد تضاعف حرها ، وتبدلت عما كانت عليه من خفة أمرها ، ثم أدنيت من رءوس العالمين كقاب قوسين ، فلم يبق على الأرض ظل إلا ظل عرش رب العالمين ولم يمكّن من الاستظلال به إلا المقربون ، فمن بين مستظل بالعرش ، وبين مضح لحر الشمس ، قد صهرته بحرّها ، واشتد كربه وغمه من وهجها . ثم تدافعت الخلائق ، ودفع بعضهم بعضا لشدة الزحام واختلاف الأقدام ، وانضاف إليه شدة الخجلة والحياء من الافتضاح ؛ والاختزاء عند العرض على

(١) حديث أبي هريرة يحشر الناس يوم القيامة ركبانا ومشاة على وجوههم الحديث ـ رواه الترمذى وحسنه وفى الصحيحين من حديث أنس أن رجلا قال يانبي الله كيف يحشر الكافر على وجهه قال أليس الذى أمشاه على الرجلين فى الدنيا قادرا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة

بجبار السماء ، فاجتمع وهج الشمس ، وحر الأنفاس ، واحتراق القلوب بنار الحياء والخوف ، ففاض العرق من أصل كل شعرة حتى سال على صعيد القيامة ، ثم ارتفع على أبدانهم على قدر منازلهم عند الله ، فبعضهم بلغ العرق ركبتيه ، وبعضهم حقويه ، وبعضهم إلى شحمة أذنيه ، وبعضهم كاد يغيب فيه

قال [1] ابن عمر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ حَتَّى يَغِيبَ أَحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ » وقال [2] أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يَعْرَقُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَذْهَبَ عَرَقُهُمْ فِي الْأَرْضِ سَبْعِينَ بَاعاً وَيُلْجِمُهُمْ وَيَبْلُغُ آذَانَهُمْ » كذا رواه البخارى ومسلم فى الصحيح

وفى حديث آخر [3] « قِيَاماً شَاخِصَةً أَبْصَارُهُمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً إِلَى السَّمَاءِ فَيُلْجِمُهُمُ الْعَرَقُ مِنْ شِدَّةِ الْكَرْبِ »

وقال [4] عقبة بن عامر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تَدْنُو الشَّمْسُ مِنَ الْأَرْضِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَعْرَقُ النَّاسُ فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَبْلُغُ عَرَقُهُ عَقِبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ نِصْفَ سَاقِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ رُكْبَتَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ فَخِذَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ خَاصِرَتَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ فَاهُ » وأشار بيده فألجمها فاه « وَمِنْهُمْ مَنْ يُغَطِّيهِ الْعَرَقُ » وضرب بيده على رأسه هكذا

فتأمل يامسكين فى عرق أهل المحشر وشدة كربهم ، وفيهم من ينادى فيقول :

---

(١) حديث ابن عمر يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم فى رشحه إلى أنصاف أذنيه : متفق عليه

(٢) حديث أبى هريرة يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم فى الأرض سبعين ذراعا ـ الحديث : أخرجاه فى الصحيحين كما ذكر المصنف

(٣) حديث قياما شاخصة أبصارهم أربعين سنة إلى السماء يلجمهم العرق من شدة الكرب : ابن عدى من حديث ابن مسعود وفيه أبو طيبة عيسى بن سليمان الجرجانى : ضعفه ابن معين وقال ابن عدى لاأظن أنه كان يتعمد الكذب لكن لعله تشبه عليه

(٤) حديث عقبة بن عامر تدنو الشمس من الأرض يوم القيامة فيعرق الناس فمنهم من يبلغ عرقه عقبه الحديث رواه أحمد وفيه ابن لهيعة

رب أرحني من هـذا الكرب والانتظار ولو إلى النار . وكل ذلك ولم يلقوا بعد حسابا ولاعقابا ، فإنك واحد منهم ، ولاتدرى إلى أين يبلغ بك العرق .

واعلم أن كل عرق لم يخرجه التعب فى سبيل الله من حج ، وجهاد ، وصيام ، وقيام ، وتردد فى قضاء حاجة مسلم ، وتحمل مشقة فى أمر بمعروف ونهي عن منكر ، فسيخرجه الحياء والخوف فى صعيد القيامة ، ويطول فيه الكرب . ولوسلم ابن آدم من الجهل والغرور لعلم أن تعب العرق فى تحمل مصاعب الطاعات أهون أمرا ، وأقصر زمانا من عرق الكرب والانتظار فى القيامة ، فإنه يوم عظيمة شدته ، طويـــلة مدته

صفـــة

طول يوم القيامة

يوم تقف فيه الخلائق شاخصة أبصارهم ، منفطرة قلوبهم ، لايتكلمون ولاينظر فى أمورهم يقفون ثلثمائة عام لايأكلون فيه أكلة ، ولايشربون فيه شربة ولايجدون فيه روح نسيم . قال كعب وقتادة (يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ [1]) قال يقومون مقدار ثلثمائة عام . بل قال عبد الله [1] بن عمرو : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هـذه الآية ثم قال « كَيْفَ بِكُمْ إِذَا جَمَعَكُمُ اللهُ كَمَا تُجْمَعُ النَّبْلُ فِي الْكِنَانَةِ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ لاَ يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ »

وقال الحسن . ماظنك بيوم قاموا فيه على أقدامهم مقدار خمسين ألف سنة ، لايأكلون فيها أكلة ، ولايشربون فيها شربة ، حتى إذا انقطعت أعناقهم عطشا ، واحترقت أجوافهم جوعا ، انصرف بهم إلى النار ، فسقوا من عين آنية قد آن حرها ،

(١) حديث ابن عمرو تلا هذه الآية يوم يقوم الناس لرب العالمين ثم قال كيف بكم إذا جمعكم الله كما يجمع النبل فى الكنانة خمسين ألف سنة لاينظر إليكم قلت إنما هو عبدالله بن عمر : ورواه الطبرانى فى الكبير وفيه عبد الرحمن بن ميسرة ولم يذكر له ابن أبى حاتم راويا غير ابن وهب ولهم عبدالرحمن ابن ميسرة الحضرمى أربعة هذا أحدهم مصرى والثلاثة الآخرون شاميون

(١) التطفيف : ٦

واشتد لفحها . فلما بلغ المجهود منهم مالا طاقة لهم به ، كلم بعضهم بعضا فى طلب من يكرم على مولاه ليشفع فى حقهم ، فلم يتعلقوا بنبيّ إلا دفعهم وقال : دعونى نفسى نفسى ، شغلنى أمرى عن أمر غيرى . واعتذر كل واحد بشدة غضب الله تعالى ، وقال قد غضب اليوم ربنا غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولايغضب بعده مثله ، حتى يشفع نبينا صلى الله عليه وسلم لمن يؤذن له فيه لايملكون الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا

فتأمل فى طول هذا اليوم وشدة الانتظار فيه ، حتى يخف عليك انتظار الصبر عن المعاصى فى عمرك المختصر

واعلم أن من طال انتظاره فى الدنيا الموت ، لشدة مقاساته للصبر عن الشهوات ، فإنه يقصر انتظاره فى ذلك اليوم خاصة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] لما سئل عن طول ذلك اليوم فقال « وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ إِنَّهُ لَيُخَفَّفُ عَلَى الْمُؤْمِنِ حَتَّى يَكُونَ أَهْوَنَ عَلَيْهِ مِنَ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ يُصَلِّيهَا فِى الدُّنْيَا »

فاجتهد أن تكون من أولئك المؤمنين ، فما دام يبقى لك نفس من عمرك فالأمر إليك ، والاستعداد بيديك ، فاعمل فى أيام قصار لأيام طوال تربح ربحا لا منتهى لسروره ، واستحقر عمرك بل عمر الدنيا وهو سبعة آلاف سنة ، فإنك لوصبرت سبعة آلاف سنة مثلا لتخلص من يوم مقداره خمسون ألفا لكان ربحك كثيرا ، وتعبك يسيرا

---

(١) حديث سئل عن طول ذلك اليوم فقال والذى نفسى بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أهون عليه من الصلاة المكتوبة يصليها فى الدنيا : أبو يعلى والبيهقى فى الشعب من حديث أبى سعيد الخدرى وفيه ابن لهيعة وقد رواه ابن وهب عن عمرو بن الحارث بدل ابن لهيعة وهو حسن ولأبى يعلى من حديث أبى هريرة باسناد جيد يهون ذلك على المؤمن كتدلى الشمس للغروب إلى أن تغرب : ورواه البيهقى فى الشعب الى أن قال أظنه رفعه بلفظ إن الله ليخفف على من يشاء من عباده طوله كوقت صلاة مفروضة

صفة

يوم القيامة ودواهيه وأساميه

فاستعد يامسكين لهذا اليوم العظيم شأنه ، المديد زمانه ، القاهر سلطانه ، القريب أوانه . يوم ترى السماء فيه قد انفطرت ، والكواكب من هوله قد انتثرت ، والنجوم الزواهر قد انكدرت ، والشمس قد كورت ، والجبال قد سيرت ، والعشار قد عطلت ، والوحوش قد حشرت ، والبحار قد سجرت ، والنفوس إلى الأبدان قد زوجت ، والجحيم قد سعرت ، والجنة قد أزلفت ، والجبال قد نسفت ، والأرض قد مدت

يوم ترى الأرض قد زلزلت فيه زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها ، يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم

يوم تحمل الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة ، وانشقت السماء فهي يومئذ واهية ، والملك على أرجائها ، ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية . يومئذ تعرضون لاتخفى منكم خافية

يوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة

يوم ترج الأرض فيه رجا ، وتبس الجبال بسا ، فكانت هباء منبثا

يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ، وتكون الجبال كالعهن المنفوش

يوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد

يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ، وبرزوا لله الواحد القهار

يوم تنسف فيه الجبال نسفا ، فتترك قاعاصفصفا ، لاترى فيها عوجا ولا أمتا

يوم ترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب

يوم تنشق فيه السماء فتكون وردة كالدهان ، فيومئذ لايسئل عن ذنبه إنس ولاجان

يوم يمنع فيه العاصي من الكلام ، ولا يسئل فيه عن الإجرام ، بل يؤخذ بالنواصي والأقـــــدام

يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا ، وماعملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا

يوم تعلم فيه كل نفس ماأحضرت ، وتشهد ماقدمت وأخرت .

يوم تخرس فيه الألسن ، وتنطق الجوارح

يوم شيب ذكره سيد المرسلين ، إذ قال له الصدّيق رضي الله عنه ، أراك قد شبت يارسول الله . قال[1] « شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا » وهي الواقعة ، والمرسلات ، وعم يتساءلون ، وإذا الشمس كوّرت . فيا أيها القارىء العاجز إنما حظك من قراءتك أن تمجمج القرءان ، وتحرك به اللسان ، ولو كنت متفكرا فيما تقرؤه لكنت جديرا بأن تنشق مرارتك مما شاب منه شعر سيد المرسلين . وإذا قنعت بحركة اللسان فقد حرمت ثمرة القرءان ، فالقيامة أحد ماذكر فيه ، وقد وصف الله بعض دواهيها وأكثر من أساميها ، لتقف بكثرة أساميها على كثرة معانيها ، فليس المقصود بكثرة الأسامي تكرير الأسامي والألقاب ، بل الغرض تنبيه أولى الألباب ، فتحت كل اسم من أسماء القيامة سرّ ، وفى كل نعت من نعوتها معنى فاحرص على معرفة معانيها

ونحن الآن نجمع لك أساميها ، وهي يوم القيامة ، ويوم الحسرة ، ويوم الندامة ، ويوم المحاسبة ، ويوم المساءلة ، ويوم المسابقة ، ويوم المناقشة ، ويوم المنافسة ، ويوم الزلزلة ، ويوم الدمدمة ، ويوم الصاعقة . ويوم الواقعة ، ويوم القارعة ، ويوم الراجفة ، ويوم الرادفة ، ويوم الغاشية ، ويوم الداهية ، ويوم الآزفة ، ويوم الحاقة ، ويوم الطامة ، ويوم الصاخة ، ويوم التلاق ، ويوم الفراق ، ويوم المساق ، ويوم القصاص ، ويوم التناد ، ويوم الحساب ، ويوم المآب ،

---

(١) حديث شيبتنى هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت : الترمذى وحسنه والحاكم وصححه وقد تقدم

ويوم العذاب ، ويوم الفرار ، ويوم القرار ، ويوم اللقاء ، ويوم البقاء ،
ويوم القضاء ، ويوم الجزاء ، ويوم البلاء ، ويوم البكاء ، ويوم الحشر ،
ويوم الوعيد ، ويوم العرض ، ويوم الوزن ، ويوم الحق ، ويوم الحكم ،
ويوم الفصل ، ويوم الجمع ، ويوم البعث ، ويوم الفتح ، ويوم الخزي ،
ويوم عظيم ، ويوم عقيم ، ويوم عسير ، ويوم الدين ، ويوم اليقين ، ويوم النشور ،
ويوم المصير ، ويوم النفخة ، ويوم الصيحة ، ويوم الرجفة ، ويوم الرجة ،
ويوم الزجرة ، ويوم السكرة ، ويوم الفزع ، ويوم الجزع ، ويوم المنتهى ،
ويوم المأوى ، ويوم الميقات ، ويوم الميعاد ، ويوم المرصاد ، ويوم القلق ، ويوم العرق ،
ويوم الافتقار ، ويوم الانكدار ، ويوم الانتشار ، ويوم الانشقاق ، ويوم الوقوف ،
ويوم الخروج ، ويوم الخلود ، ويوم التغابن ، ويوم عبوس ، ويوم معلوم ،
ويوم موعود ، ويوم مشهود ، ويوم لاريب فيه . ويوم تبلى السرائر ، ويوم
لايجزى نفس عن نفس شيئا ، ويوم تشخص فيه الأبصار ، ويوم لايغنى مولى
عن مولى شيئا ، ويوم لاتملك نفس لنفس شيئا ، ويوم يدعون إلى نار جهنم
دعا ؛ ويوم يسحبون فى النار على وجوههم ، ويوم تقلب وجوههم فى النار ،
ويوم لايجزى والد عن ولده ، ويوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه ، ويوم
لاينطقون ، ولا يؤذن لهم فيعتذرون ، يوم لامرد له من الله ، يوم هم بارزون ،
يوم هم على النار يفتنون ، يوم لاينفع مال ولا بنون ، يوم لاتنفع الظالمين معذرتهم
ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ، يوم ترد فيه المعاذير ، وتبلى السرائر ، وتظهر
الضمائر ، وتكشف الأستار ، يوم تخشع فيه الأبصار ، وتسكن الأصوات ، ويقل
فيه الالتفات ، وتبرز الخفيات ، وتظهر الخطيئات . يوم يساق العباد ومعهم الأشهاد
ويشيب الصغير ، ويسكر الكبير ، فيومئذ وضعت الموازين ، ونشرت الدواوين
وبرزت الجحيم ، وأغلي الحميم ، وزفرت النار ، ويئس الكفار ، وسعرت النيران ،
وتغيرت الألوان ، وخرس اللسان ، ونطقت جوارح الإنسان

فيا أيها الإنسان ماغرك بربك الكريم ، حيث أغلقت الأبواب ، وأرخيت الستور

واستترت عن الخلائق ففارقت الفجور ، فماذا تفعل وقد شهدت عليك جوارحك فالويل كل الويل لنا معاشر الغافلين ، يرسل الله لنا سيد المرسلين ، وينزل عليه الكتاب المبين ، ويخبرنا بهذه الصفات من نعوت يوم الدين ، ثم يعرفنا غفلتنا ، ويقول (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ [1]) ثم يعرفنا قرب القيامة فيقول (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ [2]) (إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا [3]) (وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا [4]) ثم يكون أحسن أحوالنا أن نتخذ دراسة هذا القرءان عملا ، فلا نتدبر معانيه ولا ننظر فى كثرة أوصاف هذا اليوم وأساميه ، ولا نستعد للتخلص من دواهيه ، فنعوذ بالله من هذه الغفلة إن لم يداركنا الله بواسع رحمته

صفة المساءلة

ثم تفكر يامسكين بعد هذه الأحوال فيما يتوجه عليك من السؤال شفاها من غير ترجمان ، فتسئل عن القليل والكثير ، والنقير والقطمير . فبينا أنت فى كرب القيامة وعرقها ، وشدة عظائمها ، إذ نزلت ملائكة من أرجاء السماء بأجسام عظام ، وأشخاص ضخام غلاظ شداد ، أمروا أن يأخذوا بنواصى المجرمين إلى موقف العرض على الجبار ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَلَكًا مَا بَيْنَ شَفْرَيْ عَيْنَيْهِ مَسِيرَةُ مِائَةِ عَامٍ » فما ظنك بنفسك إذا شاهدت مثل هؤلاء الملائكة أرسلوا إليك ليأخذوك إلى مقام العرض ؟ وترام على عظم أشخاصهم منكسرين لشدة اليوم ، مستشعرين مما بدا من غضب الجبار على عباده وعند نزولهم لايبقى نبي ، ولاصديق ، ولاصالح ، إلا ويخرون لأذقانهم خوفا من

---

(١) حديث ان لله عز وجل ملكا مابين شفرى عينيه مسيرة خمسمائة عام : لم أره بهذا اللفظ

---

(١) الأنبياء : ١ ، ٢ ، ٣ (٢) القمر : ١ (٣) المعارج : ٦ ، ٧ (٤) الأحزاب : ٦٣

أن يكونوا هم المأخوذين ، فهذا حال المقربين ، فما ظنك بالعصاة المجرمين ؟
وعند ذلك يبادر أقوام من شدة الفزع فيقولون للملائكة : أفيكم ربنا ؟ وذلك لعظم موكبهم ، وشدة هيبتهم . فتفزع الملائكة من سؤالهم إجلالا لخالقهم عن أن يكون فيهم ، فنادوا بأصواتهم منزهين لمليكهم عما توهمه أهل الأرض ، وقالوا سبحان ربنا ماهو فينا ، ولكنه آت من بعد . وعند ذلك تقوم الملائكة صفا محدقين بالخلائق من الجوانب ، وعلى جميعهم شعار الذل والخضوع وهيئة الخوف والمهابة لشدة اليوم ، وعند ذلك يصدق الله تعالى قوله[1] (فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ) وقوله (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ[2]) فيبدأ سبحانه بالأنبياء (يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ[3]) . فيا لشدة يوم تذهل فيه عقول الأنبياء ، وتنمحي علومهم من شدة الهيبة ، إذ يقال لهم ماذا أجبتم وقد أرسلتم إلى الخلائق ، وكانوا قد علموا فتدهش عقولهم فلا يدرون بماذا يجيبون ، فيقولون من شدة الهيبة لاعلم لنا ، إنك أنت علام الغيوب . وهم فى ذلك الوقت صادقون ، إذ طارت منهم العقول ، وانمحت العلوم ، إلى أن يقويهم الله تعالى ،

فيدعى نوح عليه السلام ، فيقال له : هل بلغت ؟ فيقول نعم . فيقال لأمته هل بلغكم ؟ فيقولون ماأتانا من نذير . ويؤتى بعيسى عليه السلام ، فيقول الله تعالى له : أأنت قلت للناس اتخذونى وأمي إلهين من دون الله ؟ فيبقى متشحطا تحت هيبة هذا السؤال سنين ، فيا لعظم يوم تقام فيه السياسة على الأنبياء بمثل هذا السؤال . ثم تقبل الملائكة ، فينادون واحدا واحدا ، يافلان بن فلانة ، هلم إلى موقف العرض . وعند ذلك ترتعد الفرائص وتضطرب الجوارح ، وتبهت العقول ، ويتمنى أقوام أن يذهب بهم إلى النار ، ولاتعرض قبائح أعمالهم على الجبار ، ولايكشف سترهم على ملأ الخلائق

(١) الأعراف : ٦ ، ٧ (٢) الحجر : ٩٢ (٣) المائدة : ١٠٩

. وقبل الابتداء بالسؤال يظهر نور العرش ، وأشرقت الأرض بنور ربها ، وأيقن قلب كل عبد بإقبال الجبار لمساءلة العباد ، وظن كل واحد أنه مايراه أحد سواه ، وأنه المقصود بالأخذ والسؤال دون من عداه . فيقول الجبار سبحانه وتعالى عند ذلك : ياجبريل ائتني بالنار . فيجيء لها جبريل ويقول : ياجهنم أجيبي خالقك ومليكك . فيصادفها جبريل على غيظها وغضبها ، فلم يلبث بعد ندائه أن ثارت ، وفارت ، وزفرت إلى الخلائق وشهقت ، وسمع الخلائق تغيظها وزفيرها ، وانتهضت خزنتها متوثبة إلى الخلائق غضبا على من عصى الله تعالى وخالف أمره

فأخطر ببالك وأحضر فى قلبك حالة قلوب العباد وقد امتلأت فزعا ورعبا فتساقطوا جثيا على الركب ، وولوا مدبرين . يوم ترى كل أمة جاثية ، وسقط بعضهم على الوجوه منكبين . وينادى العصاة والظالمون بالويل والثبور ، وينادى الصديقون نفسى نفسى . فبينما هم كذلك إذ زفرت النار زفرتها الثانية ، فتضاعف خوفهم ، وتخاذلت قواهم ، وظنوا أنهم مأخوذون . ثم زفرت الثالثة ، فتساقط الخلائق على وجوههم ، وشخصوا بأبصارهم ينظرون من طرف خفي خاشع ، وانهضمت عند ذلك قلوب الظالمين ، فبلغت الحناجر كاظمين ، وذهلت العقول من السعداء والأشقياء أجمعين . وبعد ذلك أقبل الله تعالى على الرسل وقال : ماذا أجبتم فإذا رأوا ماقد أقيم من السياسة على الأنبياء ، اشتد الفزع على العصاة ، ففر الوالد من ولده ، والأخ من أخيه ، والزوج من زوجته ، وبقى كل واحد منتظرا لأمره

ثم يؤخذ واحد واحد ، فيسأله الله تعالى شفاها عن قليل عمله وكثيره ، وعن سره وعلانيته ، وعن جميع جوارحه وأعضائه . قال أبو هريرة[1] : قالوا يارسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال « هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ فِي الظَّهِيرَةِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ » قالوا لا قال « فَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ » قالوا لا قال « فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَاتُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ فَيَلْقَى الْعَبْدَ

---

(١) حديث أبي هريرة هل نرى ربنا يوم القيامة قال هل تضارون فى رؤية الشمس فى الظهيرة ليس دونها سحاب . الحديث : متفق عليه دون قوله فيلقى العبد الخ فانفرد بها مسلم

فَيَقُولُ لَهُ أَلَمْ أُكَرِّمْكَ وَأُسَوِّدْكَ وَأُزَوِّجْكَ وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالإِبِلَ وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ * فَيَقُولُ الْعَبْدُ بَلَى فَيَقُولُ أَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلاَقِيَّ فَيَقُولُ لاَ فَيَقُولُ فَأَنَا أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي »

فتوهم نفسك يامسكين وقد أخذت الملائكة بعضديك وأنت واقف بين يدي الله تعالى يسألك شفاها، فيقول لك ألم أنعم عليك بالشباب ؟ ففيما ذا أبليته ؟ ألم أمهل لك فى العمر ؟ ففيما ذا أفنيته ؟ ألم أرزقك المال، فمن أين اكتسبته ؟ وفيماذا أنفقته ؟ ألم أكرمك بالعلم ؟ فماذا عملت فيما علمت ؟ فكيف ترى حياءك وخجلتك وهو يعدّ عليك إنعامه ومعاصيك، وأياديه ومساويك، فإن أنكرت شهدت عليك جوارحك

(١) قال أنس رضي الله عنه : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك ثم قال « أَتَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ ؟ » قلنا الله ورسوله أعلم . قال « مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ يَقُولُ يَارَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ قَالَ يَقُولُ بَلَى قَالَ فَيَقُولُ فَإِنِّي لاَ أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي فَيَقُولُ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا قَالَ فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ وَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ انْطِقِي قَالَ فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلاَمِ فَيَقُولُ لِأَعْضَائِهِ بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ »

فنعوذ بالله من الافتضاح على ملأ الخلق بشهادة الأعضاء . إلا أن الله تعالى وعد المؤمن بأن يستر عليه، ولا يطلع عليه غيره . (٢) سأل ابن عمر رجل فقال له : كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى النجوى ؟ فقال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يَدْنُو أَحَدُكُمْ مِنْ رَبِّهِ حَتَّى يَضَعَ كَنَفَهُ عَلَيْهِ فَيَقُولُ عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا فَيَقُولُ نَعَمْ فَيَقُولُ عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا فَيَقُولُ نَعَمْ ثُمَّ يَقُولُ إِنِّي سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَإِنِّي أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ »

---

(١) حديث أنس أتدرون مم أضحك قلنا الله ورسوله أعلم قال من مخاطبة العبد ربه ـ الحديث رواه مسلم

(٢) حديث سأل ابن عمر رجل فقال كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى النجوى ـ الحديث رواه مسلم

---

* تربع : أى تأخذ ربع الغنيمة : يريد ألم اجعلك رئيسا مطاعا

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « مَنْ سَتَرَ عَلَى مُؤْمِنٍ عَوْرَتَهُ سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » فهذا إنما يرجى لعبد مؤمن ستر على الناس عيوبهم ، واحتمل فى حق نفسه تقصيرهم ، ولم يحرك لسانه بذكر مساويهم ، ولم يذكرهم فى غيبتهم بما يكرهون لو سمعوه ، فهذا جدير بأن يجازى بمثله فى القيامة

وهب أنه قد ستره عن غيرك ، أليس قد قرع سمعك النداء إلى العرض ؟ فيكفيك تلك الروعة جزاء عن ذنوبك ، إذ يؤخذ بناصيتك فتقاد وفؤادك مضطرب ولبك طائر ، وفرائصك مرتعدة ، وجوارحك مضطربة ، ولونك متغير ، والعالم عليك من شدة الهول مظلم . فقدر نفسك وأنت بهذه الصفة تتخطى الرقاب ، وتخرق الصفوف ، وتقاد كما تقاد الفرس المجنوب ، وقد رفع الخلائق إليك أبصارهم فتوهم نفسك أنك فى أيدى الموكلين بك على هذه الصفة ، حتى أنتهى بك إلى عرش الرحمن ، فرموك من أيديهم ، وناداك الله سبحانه وتعالى بعظيم كلامه ياابن آدم ادن منى . فدنوت منه بقلب خافق محزون وجل ، وطرف خاشع ذليل ، وفؤاد منكسر ، وأعطيت كتابك الذى لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، فكم من فاحشة نسيتها فتذكرتها ، وكم من طاعة غفلت عن آفاتها فانكشف لك عن مساويها فكم لك من خجل وجبن ، وكم لك من حصر وعجز ، فليت شعرى بأي قدم تقف بين يديه ، وبأي لسان تجيب ، وبأي قلب تعقل ماتقول

ثم تفكر فى عظم حيائك إذا ذكرك ذنوبك شفاها ، إذ يقول ياعبدى أما استحييت منى فبارزتنى بالقبيح ، واستحييت من خلق فأظهرت لهم الجميل ؟ أكنت أهون عليك من سائر عبادى ؟ استخففت بنظرى إليك فلم تكترث ، واستعظمت نظر غيرى . ألم أنعم عليك ؟ فماذا غرك بى ؟ أظننت أنى لاأراك وأنك لاتلقانى ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] « مَامِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ وَيَسْأَلُهُ اللهُ رَبُّ

---

(١) حديث من ستر على مؤمن عورته ستر الله عورته يوم القيامة : تقدم

(٢) حديث مامنكم من أحد إلا ويسأله رب العالمين ـ الحديث : متفق عليه من حديث ابن عدى عن أبى حاتم بلفظ إلا سيكلمه ـ الحديث

الْعَالَمِينَ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حِجَابٌ وَلاَ تُرْجُمَانٌ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] « لَيَقِفَنَّ أَحَدُكُمْ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حِجَابٌ فَيَقُولُ لَهُ أَلَمْ أُنْعِمْ عَلَيْكَ أَلَمْ أُوتِكَ مَالاً ؟ فَيَقُولُ بَلَى فَيَقُولُ أَلَمْ أُرْسِلْ إِلَيْكَ رَسُولاً ؟ فَيَقُولُ بَلَى ثُمَّ يَنْظُرُ عَنْ يَمِينِهِ فَلاَ يَرَى إِلاَّ النَّارَ ثُمَّ يَنْظُرُ عَنْ شِمَالِهِ فَلاَ يَرَى إِلاَّ النَّارَ فَلْيَتَّقِ أَحَدُكُمُ النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ »

وقال ابن مسعود : مامنكم من أحد إلا سيخلو الله عز وجل به كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر ، ثم يقول ياابن آدم ، ماغرك بى ؟ ياابن آدم ماعملت فيما علمت ؟ ياابن آدم ماذا أجبت المرسلين ؟ ياابن آدم ألم أكن رقيبا على عينك وأنت تنظر بها إلى مالا يحل لك ؟ ألم أكن رقيبا على أذنيك ؟ وهكذا حتى عد سائر أعضائه

وقال مجاهد : لاتزول قدما عبد يوم القيامة من بين يدى الله عز وجل حتى يسأله عن أربع خصال : عن عمره فيما أفناه ، وعن علمه ماعمل فيه ، وعن جسده فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيماذا أنفقه

فأعظم يامسكين بحيائك عند ذلك وبخطرك ، فإنك بين أن يقال لك سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ، فعند ذلك يعظم سرورك وفرحك ، ويغبطك الأولون والآخرون ، وإما أن يقال للملائكة خذوا هذا العبد السوء فغلوه ، ثم الجحيم صلوه ، وعند ذلك لو بكت السموات والأرض عليك لكان ذلك جديرا بعظم مصيبتك ، وشدة حسرتك على مافرطت فيه من طاعة الله ، وعلى مابعت آخرتك من دنيا دنيئة لم تبق معك

صفة الميزان

ثم لاتغفل عن الفكر فى الميزان ، وتطاير الكتب إلى الأيمان والشمائل ، فإن الناس بعد السؤال ثلاث فرق : فرقة ليس لهم حسنة ، فيخرج من النار عنق

---

(١) حديث ليقفن أحدكم بين يدى الله تعالى ليس بينه وبينه ترجمان ـ الحديث : البخارى من حديث عدى بن حاتم

أسود فيلقطهم لقط الطير الحب ، وينطوى عليهم ويلقيهم فى النار فتبتلعهم النار ، وينادى عليهم شقاوة لاسعادة بعدها . وقسم آخر لاسيئة لهم ، فينادى مناد ليقم الحمادون لله على كل حال ، فيقومون ويسرحون إلى الجنة ، ثم يفعل ذلك بأهل قيام الليل ، ثم بمن لم تشغله تجارة الدنيا ولا بيعها عن ذكر الله تعالى ، وينادى عليهم سعادة لاشقاوة بعدها . ويبقى قسم ثالث ، وهم الأكثرون ، خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ، وقد يخفى عليهم ولايخفى على الله تعالى أن الغالب حسناتهم أوسيئاتهم ، ولكن يأبى الله إلا أن يعرفهم ذلك ليبين فضله عند العفو ، وعدله عند العقاب ، فتتطاير الصحف والكتب منطوية على الحسنات والسيئات ، وينصب الميزان ، وتشخص الأبصار إلى الكتب أتقع فى اليمين أوفى الشمال ، ثم إلى لسان الميزان أيميل إلى جانب السيئات أو إلى جانب الحسنات ، وهذه حالة هائلة تطيش فيها عقول الخلائق

وروى [1] الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان رأسه فى حجر عائشة رضي الله عنها ، فنعس ، فذكرت الآخرة فبكت حتى سال دمعها . فنقط على خد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانتبه فقال « مَا يُبْكِيكِ يَا عَائِشَةُ » قالت ذكرت الآخرة ، هل تذكرون أهليكم يوم القيامة ؟ قال « وَالَّذِى نَفْسِي بِيَدِهِ فِي ثَلَاثِ مَوَاطِنَ فَإِنَّ أَحَدًا لَا يَذْكُرُ إِلَّا نَفْسَهُ إِذَا وُضِعَتِ الْمَوَازِينُ وَوُزِنَتِ الْأَعْمَالُ حَتَّى يَنْظُرَ ابْنُ آدَمَ أَيَخِفُّ مِيزَانُهُ أَمْ يَثْقُلُ وَعِنْدَ الصُّحُفِ حَتَّى يَنْظُرَ أَبِيَمِينِهِ يَأْخُذُ كِتَابَهُ أَوْ بِشِمَالِهِ وَعِنْدَ الصِّرَاطِ »

وعن أنس قال : يؤتى بابن آدم يوم القيامة حتى يوقف بين كفتي الميزان ، ويوكل به ملك ، فإن ثقل ميزانه نادى الملك بصوت يسمع الخلائق : سعد فلان سعادة

---

(١) حديث الحسن أن عائشة ذكرت الآخرة فبكت ــ الحديث وفيه فقال مايبكيك ياعائشة قالت ذكرت الآخرة هل تذكرون أهليكم يوم القيامة ــ الحديث : أبو داود من رواية الحسن أنها ذكرت النار فبكت فقال مايبكيك دون كون رأسه صلى الله عليه وسلم فى حجرها وانه نعس واسناده جيد

لايشقى بعدها أبدا. وإن خف ميزانه نادى بصوت يسمع الخلائق : شقي فلان شقاوة لايسعد بعدها أبدا.

وعند خفة كفة الحسنات تقبل الزبانية وبأيديهم مقامع من حديد، عليهم ثياب من نار فيأخذون نصيب النار إلى النار . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في يوم القيامة « إِنَّهُ يَوْمٌ يُنَادِي اللهُ تَعَالَى فِيهِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ [1] فَيَقُولُ لَهُ قُمْ يَا آدَمُ فَابْعَثْ بَعْثَ النَّارِ فَيَقُولُ وَكَمْ بَعْثُ النَّارِ فَيَقُولُ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ » فلما سمع الصحابة ذلك أبلسوا حتى ماأوضحوا بضاحكة . فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ماعند أصحابه قال « اعْمَلُوا وَأَبْشِرُوا فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّ مَعَكُمْ لَخَلِيقَتَيْنِ مَا كَانَتَا مَعَ أَحَدٍ قَطُّ إِلاَّ كَثَّرَتَاهُ مَعَ مَنْ هَلَكَ مِنْ بَنِي آدَمَ وَبَنِي إِبْلِيسَ » قالوا وما هما يارسول الله؟ قال « يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ » قال فسرّي عن القوم فقال « اعْمَلُوا وَأَبْشِرُوا فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ فِي النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلاَّ كَالشَّامَةِ فِي جَنْبِ الْبَعِيرِ أَوْ كَالرَّقْمَةِ فِي ذِرَاعِ الدَّابَّةِ »

صفة

الخصماء ورد المظالم

قد عرفت هول الميزان وخطره ، وأن الأعين شاخصة إلى لسان الميزان (فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌ [1]) واعلم أنه لاينجو من خطر الميزان إلا من حاسب في الدنيا نفسه ، ووزن فيها بميزان الشرع أعماله وأقواله ، وخطراته ولحظاته ، كما قال عمر رضي الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوها قبل أن

---

(١) حديث يقول الله يا آدم قم فابعث بعث النار فيقول وكم بعث النار فيقول من كل ألف تسعمائة وتسع وتسعون ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري ورواه البخاري من حديث أبي هريرة نحوه وقد تقدم

---

(١) القارعة : ٦ الي ١١

توزنوا . وإنما حسابه لنفسه أن يتوب عن كل معصية قبل الموت توبة نصوحا، ويتدارك مافرط من تقصيره فى فرائض الله تعالى ، ويرد المظالم حبة بعد حبة ، ويستحل كل من تعرض له بلسانه ، ويده وسوء ظنه بقلبه ، ويطيب قلوبهم ، حتى يموت ولم يبق عليه مظلمة ولافريضة ، فهذا يدخل الجنة بغير حساب

وإن مات قبل رد المظالم أحاط به خصماؤه ، فهذا يأخذ بيده ، وهذا يقبض على ناصيته ، وهذا يتعلق بلببه . هذا يقول ظلمتنى ، وهذا يقول شتمتنى ، وهذا يقول استهزأت بى ، وهذا يقول ذكرتنى فى الغيبة بما يسوءنى ، وهذا يقول جاورتنى فأسأت جوارى ، وهذا يقول عاملتنى فغششتنى ، وهذا يقول بايعتنى فغبنتنى وأخفيت عنى عيب سلعتك ، وهذا يقول كذبت فى سعر متاعك ، وهذا يقول رأيتنى محتاجا وكنت غنيا فما أطعمتنى ، وهذا يقول وجدتنى مظلوما وكنت قادرا على دفع الظلم عنى فداهنت الظالم وماراعيتنى ، فبينا أنت كذلك وقد أنشب الخصماء فيك مخالبهم ، وأحكموا فى تلابيبك أيديهم ، وأنت مبهوت متحير من كثرتهم ، حتى لم يبق فى عمرك أحد عاملته على درهم ، أو جالسته فى مجلس ، إلا وقد استحق عليك مظلمة بغيبة ، أو خيانة ، أو نظر بعين استحقار ، وقد ضعفت عن مقاومتهم ، ومددت عنق الرجاء إلى سيدك ومولاك لعله يخلصك من أيديهم ، إذ قرع سمعك نداء الجبار جل جلاله (أَلْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَاظُلْمَ الْيَوْمَ [1]) فعند ذلك ينخلع قلبك من الهيبة ، وتوقن نفسك بالبوار ، وتتذكر ماأنذرك الله تعالى على لسان رسوله حيث قال (وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُؤُسِهِمْ لَايَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ وَأَنْذِرِ النَّاسَ [2])

فما أشد فرحك اليوم بتمضمضك بأعراض الناس ، وتناولك أموالهم ، وما أشد حسراتك فى ذلك اليوم إذا وقف ربك على بساط العدل ، وشوفهت بخطاب السياسة ، وأنت مفلس فقير ، عاجز مهين ، لاتقدر على أن ترد حقا ،

---

(١) غافر : ١٧ (٢) إبراهيم : ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤

أو تظهر عذرا ، فعند ذلك تؤخذ حسناتك التي تعبت فيها عمرك ، وتنقل إلى خصمائك عوضا عن حقوقهم . قال [١] أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هَلْ تَدْرُونَ مَنِ الْمُفْلِسُ » قلنا المفلس فينا يارسول الله من لادرهم له ولادينار ولامتاع قال « الْمُفْلِسُ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي وَقَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يَقْضِيَ مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ »

فانظر إلى مصيبتك في مثل هذا اليوم ، إذ ليس يسلم لك حسنة من آفات الرياء ومكايد الشيطان ، فإن سلمت حسنة واحدة في كل مدة طويلة ابتدرها خصماؤك وأخذوها . ولعلك لو حاسبت نفسك وأنت مواظب على صيام النهار وقيام الليل ، لعلمت أنه لاينقضي عنك يوم إلا ويجرى على لسانك من غيبة المسلمين مايستوفي جميع حسناتك ، فكيف بقية السيئات من أكل الحرام والشبهات ، والتقصير في الطاعات ، وكيف ترجو الخلاص من المظالم في يوم يقتص فيه للجمّاء من القرناء ، فقد روى أبو ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى شاتين ينتطحان فقال [٢] « يَاأَبَا ذَرٍّ أَتَدْرِي فِيمَ يَنْتَطِحَانِ ؟ » قلت لا . قال « وَلَكِنَّ اللَّهَ يَدْرِي وَسَيَقْضِي بَيْنَهُمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

وقال أبو هريرة في قوله عز وجل (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ [١]) إنه يحشر الخلق كلهم يوم القيامة ، البهائم ، والدواب ، والطير ، وكل شيء ، فيبلغ من عدل الله تعالى أن يأخذ للجماء من القرناء ، ثم يقول كوني ترابا . فذلك حين يقول الكافر ياليتني كنت ترابا

---

(١) حديث أبي هريرة هل تدرون من المفلس قالوا المفلس يارسول الله من لادرهم له ولامتاع الحديث : تقدم

(٢) حديث ياأباذر أتدرى فيم ينتطحان قلت لا قال ولكن ربك يدرى وسيقضى بينهما : أحمد من رواية أشياخ لم يسموا عن أبي ذر

---

(١) الأنعام : ٣٨

فكيف أنت يامسكين في يوم ترى صحيفتك خالية عن حسنات طال فيها تعبك ، فتقول أين حسناتي ؟ فيقال نقلت إلى صحيفة خصمائك . وترى صحيفتك مشحونة بسيئات طال في الصبر عنها نصبك ، واشتد بسبب الكف عنها عناؤك ، فتقول يارب هذه سيئات ماقارفتها قط ، فيقال هذه سيئات القوم الذين اغتبتهم ، وشتمتهم ، وقصدتهم بالسوء ، وظلمتهم في المبايعة ، والمجاورة ، والمخاطبة ، والمناظرة ، والمذاكرة ، والمدارسة ، وسائر أصناف المعاملة قال [1] ابن مسعود : قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَئِسَ أَنْ تُعْبَدَ الْأَصْنَامُ بِأَرْضِ الْعَرَبِ وَلَكِنْ سَيَرْضَى مِنْكُمْ بِمَا هُوَ دُونَ ذَلِكَ بِالْمُحَقَّرَاتِ وَهِيَ الْمُوبِقَاتُ فَاتَّقُوا الظُّلْمَ مَااسْتَطَعْتُمْ فَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَمْثَالِ الْجِبَالِ مِنَ الطَّاعَاتِ فَيَرَى أَنَّهُنَّ سَيُنْجِينَهُ فَمَا يَزَالُ عَبْدٌ يَجِيءُ فَيَقُولُ رَبِّ إِنَّ فُلَانًا ظَلَمَنِي بِمَظْلَمَةٍ فَيَقُولُ امْحُ مِنْ حَسَنَاتِهِ فَمَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى لَا يَبْقَى لَهُ مِنْ حَسَنَاتِهِ شَيْءٌ وَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ مَثَلُ سَفْرٍ نَزَلُوا بِفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ لَيْسَ مَعَهُمْ حَطَبٌ فَتَفَرَّقَ الْقَوْمُ فَحَطَبُوا فَلَمْ يَلْبَثُوا أَنْ أَعْظَمُوا نَارَهُمْ وَصَنَعُوا مَاأَرَادُوا وَكَذَلِكَ الذُّنُوبُ »

[2] ولما نزل قوله تعالى (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ [1]) قال الزبير : يارسول الله ، أيكرر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب ؟ قال « نَعَمْ لَيُكَرَّرَنَّ عَلَيْكُمْ حَتَّى تُؤَدُّوا إِلَى

---

(١) حديث ابن مسعود ان الشيطان قد أيس ان تعبد الاصنام بأرض العرب ولكن سيرضى منكم بما دون ذلك المحقرات وهى الموبقات ـ الحديث : وفى آخره وان مثل ذلك مثل سفر نزلوا بفلاة الحديث : رواه أحمد والبيهقى فى الشعب مقتصرا على آخره اياكم ومحقرات الذنوب فانهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه وان رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب لهن مثلا الحديث وأسناده جيد فأما أول الحديث فرواه مسلم مختصرا من حديث جابر أن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون فى جزيرة العرب ولكن فى التحريش بينهم

(٢) حديث لما نزل قوله تعالى انك ميت وانهم ميتون ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون قال الزبير يارسول الله أيكرر علينا ما كان بيننا الحديث أحمد واللفظ له والترمذى من حديث الزبير وقال حسن صحيح

---

(١) الزمر : ٣٠ ، ٣١

كُلَّ ذِى حَقٍّ حَقَّهُ » قال الزبير : والله إن الأمر لشديد فأعظم بشدة يوم لايسامح فيه بخطوة ، ولايتجاوز فيه عن لطمة ، ولاعن كلمة ، حتى ينتقم للمظلوم من الظالم . قال [1] أنس : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يَحْشُرُ اللهُ الْعِبَادَ عُرَاةً غُبْرًا بُهْمًا » قال قلنا مابهما ؟ قال « لَيْسَ مَعَهُمْ شَىْءٌ ثُمَّ يُنَادِيهِمْ رَبُّهُمْ تَعَالَى بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ أَنَا الْمَلِكُ أَنَا الدَّيَّانُ لَا يَنْبَغِى لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ وَلِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ عَلَيْهِ مَظْلَمَةٌ حَتَّى أَقْتَصَّهُ مِنْهُ وَلَا لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ وَلِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ حَتَّى أَقْتَصَّهُ مِنْهُ حَتَّى اللَّطْمَةِ » قلنا وكيف وإنما نأتى الله عز وجل عراة غبرا بهما ؟ فقال « بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ فَاتَّقُوا اللهَ عِبَادَ اللهِ »

ومظالم العباد بأخذ أموالهم ، والتعرض لأعراضهم ، وتضييق قلوبهم ، وإساءة الخلق فى معاشرتهم ، فإن مابين العبد وبين الله خاصة فالمغفرة إليه أسرع ، ومن اجتمعت عليه مظالم وقد تاب عنها ، وعسر عليه استحلال أرباب المظالم ، فليكثر من حسناته ليوم القصاص وَلْيُسِرّ ببعض الحسنات بينه وبين الله بكمال الإخلاص ، بحيث لايطلع عليه إلا الله ، فعساه يقربه ذلك إلى الله تعالى ، فينال به لطفه الذى ادخره لأحبابه المؤمنين فى دفع مظالم العباد عنهم ، كما روي عن [2] أنس ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس ، إذ رأيناه يضحك حتى بدت ثناياه . فقال عمر : مايضحكك يارسول الله بأبى أنت وأمى ؟ قال « رَجُلَانِ مِنْ أُمَّتِى جَثَيَا بَيْنَ يَدَىْ رَبِّ الْعِزَّةِ فَقَالَ أَحَدُهُمَا يَارَبِّ خُذْلِى مَظْلَمَتِى مِنْ أَخِى فَقَالَ اللهُ تَعَالَى أَعْطِ أَخَاكَ مَظْلَمَتَهُ

---

(١) حديث أنس يحشر العباد عراة غبرا بهما قلنا مابهما قال ليس معهم شيء الحديث : قلت ليس من حديث أنس وإنما هو عبيد الله بن أنيس رواه أحمد باسناد حسن وقال غرلا مكان غبرا

(٢) حديث أنس بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر ماأضحكك يارسول الله بأبى وأمى قال رجلان من أمتى جثيا بين يدي رب العالمين الحديث بطوله ابن أبى الدنيا فى حسن الظن بالله والحاكم فى المستدرك وقد تقدم

فَقَالَ يَارَبِّ لَمْ يَبْقَ مِنْ حَسَنَاتِي شَيْءٌ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِلطَّالِبِ كَيْفَ تَصْنَعُ وَلَمْ يَبْقَ مِنْ حَسَنَاتِهِ شَيْءٌ قَالَ يَارَبِّ يَتَحَمَّلُ عَنِّي مِنْ أَوْزَارِي » قال وفاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبكاء ثم قال « إِنَّ ذَلِكَ لَيَوْمٌ عَظِيمٌ يَوْمَ يَحْتَاجُ النَّاسُ إِلَى أَنْ يُحْمَلَ عَنْهُمْ مِنْ أَوْزَارِهِمْ » قال « فَقَالَ اللَّهُ لِلطَّالِبِ ارْفَعْ رَأْسَكَ فَانْظُرْ فِي الْجِنَانِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ يَارَبِّ أَرَى مَدَائِنَ مِنْ فِضَّةٍ مُرْتَفِعَةً وَقُصُوراً مِنْ ذَهَبٍ مُكَلَّلَةً بِاللُّؤْلُؤِ لِأَيِّ نَبِيٍّ هَذَا أَوْ لِأَيِّ صِدِّيقٍ هَذَا أَوْ لِأَيِّ شَهِيدٍ هَذَا ؟ قَالَ لِمَنْ أَعْطَانِي الثَّمَنَ قَالَ يَارَبِّ وَمَنْ يَمْلِكُ ثَمَنَهُ ؟ قَالَ أَنْتَ تَمْلِكُهُ قَالَ وَمَا هُوَ ؟ قَالَ عَفْوُكَ عَنْ أَخِيكَ قَالَ يَارَبِّ إِنِّي قَدْ عَفَوْتُ عَنْهُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى خُذْ بِيَدِ أَخِيكَ فَأَدْخِلْهُ الْجَنَّةَ » ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك « اتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ فَإِنَّ اللَّهَ يُصْلِحُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ .» وهذا تنبيه على أن ذلك إنما ينال بالتخلق بأخلاق الله ، وهو إصلاح ذات البين وسائر الأخلاق

فتفكر الآن فى نفسك إن خلت صحيفتك عن المظالم ، أو تلطف لك حتى عفا عنك ، وأيقنت بسعادة الأبد ، كيف يكون سرورك فى منصرفك من مفصل القضاء ، وقد خلع عليك خلعة الرضا ، وعدت بسعادة ليس بعدها شقاء ، وبنعيم لايدور بحواشيه الفناء . وعند ذلك طار قلبك سرورا وفرحا ، وابيض وجهك واستنار ، وأشرق كما يشرق القمر ليلة البدر ، فتوهم تبخترك بين الخلائق رافعا رأسك ، خاليا عن الأوزار ظهرك ، ونضرة نسيم النعيم وبرد الرضا يتلألأ من جبينك ، وخلق الأولين والآخرين ينظرون إليك وإلى حالك ، ويغبطونك فى حسنك وجمالك ، والملائكة يمشون بين يديك ومن خلفك ، وينادون على رءوس الأشهاد هذا فلان بن فلان ، رضي الله عنه وأرضاه ، وقد سعد سعادة لايشقى بعدها أبدا . أفترى أن هذا المنصب ليس بأعظم من المكانة التى تنالها فى قلوب الخلق فى الدنيا بريائك ، ومداهنتك ، وتصنعك ، وتزينك ؟ فإن كنت تعلم أنه

خير منه ، بل لانسبة له إليه ، فتوسل إلى إدراك هذه الرتبة بالإخلاص الصافى ، والنية الصادقة فى معاملتك مع الله ، فلن تدرك ذلك إلا به

وإن تكن الأخرى والعياذ بالله ، بأن خرج من صحيفتك جريمة كنت تحسبها هينة وهي عند الله عظيمة ، فمقتك لأجلها ، فقال عليك لعنتى ياعبد السوء ، لاأتقبل منك عبادتك ، فلا تسمع هذا النداء إلا ويسودّ وجهك ، ثم تغضب الملائكة لغضب الله تعالى فيقولون . وعليك لعنتنا ولعنة الخلائق أجمعين ، وعند ذلك تتثال إليك الزبانية وقد غضبت لغضب خالقها ، فأقدمت عليك بفظاظتها ، وزعارتها ، وصورها المنكرة ، فأخذوا بناصيتك يسحبونك على وجهك على ملأ الخلق ، وهم ينظرون إلى اسوداد وجهك ، وإلى ظهور خزيك ، وأنت تنادى بالويل والثبور ، وهم يقولون لك لاتدعُ اليوم ثبورا واحدا وادعُ ثبورا كثيرا ، وتنادى الملائكة ويقولون ، هذا فلان بن فلان ، كشف الله عن فضائحه ومخازيه ولعنه بقبائح مساويه ، فشقى شقاوة لايسعد بعدها أبدا . وربما يكون ذلك بذنب أذنبته خفية من عباد الله ، أوطلبا للمكانة فى قلوبهم ، أوخوفا من الافتضاح عندهم فما أعظم جهلك إذ تحترز عن الافتضاح عند طائفة يسيرة من عباد الله فى الدنيا المنقرضة ، ثم لاتخشى من الافتضاح العظيم فى ذلك الملأ العظيم ، مع التعرض لسخط الله وعقابه الأليم ، والسياق بأيدى الزبانية إلى سواء الجحيم . فهذه أحوالك وأنت لم تشعر بالخطر الأعظم وهو خطر الصراط

صفة الصراط

ثم تفكر بعد هذه الأهوال فى قول الله تعالى (يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا [1]) وفى قوله تعالى (فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ [2]) فالناس بعد هذه الأهوال يساقون إلى الصراط ، وهو جسر ممدود على متن النار ، أحد من السيف ، وأدق

(١) مريم : ٨٥ ، ٨٦ (٢) الصافات : ٢٣ ، ٢٤

من الشعر ، فمن استقام فى هذا العالم على الصراط المستقيم خف على صراط الآخرة ونجا ، ومن عدل عن الاستقامة فى الدنيا ، وأثقل ظهره بالأوزار وعصى ، تعثّر فى أول قدم من الصراط وتردى . فتفكر الآن فيما يحل من الفزع بفؤادك إذا رأيت الصراط ودقته ، ثم وقع بصرك على سواد جهنم من تحته ، ثم قرع سمعك شهيق النار وتغيظها ، وقد كلفت أن تمشي على الصراط مع ضعف حالك ، واضطراب قلبك ، وتزلزل قدمك ، وثقل ظهرك بالأوزار المانعة لك عن المشي على بساط الأرض فضلا عن حدّة الصراط ، فكيف بك إذا وضعت عليه إحدى رجليك فأحسست بحدّته ، واضطررت إلى أن ترفع القدم الثانية ، والخلائق بين يديك يزلون ويتعثرون ، وتتناولهم زبانية النار بالخطاطيف والكلاليب ، وأنت تنظر إليهم كيف ينتكسون فتتسفل إلى جهة النار رءوسهم ، وتعلو أرجلهم ، فيالَه من منظر ماأفظعه ، ومرتقى ماأصعبه ، ومجاز ماأضيقه

فانظر إلى حالك وأنت تزحف عليه ، وتصعد إليه وأنت مثقل الظهر بأوزارك ، تلتفت يمينا وشمالا إلى الخلق وهم يتهافتون فى النار ، والرسول عليه السلام يقول يارب سلّم سلم ، والزعقات بالويل والثبور قد ارتفعت إليك من قعرجهنم لكثرة من زل عن الصراط من الخلائق ، فكيف بك لوزلت قدمك ، ولم ينفعك ندمك فناديت بالويل والثبور ، وقلت هذا ماكنت أخافه ، فيا ليتنى قدمت لحياتى ، ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ، ياويلتا ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا ، ياليتنى كنت ترابا ، ياليتنى كنت نسيا منسيا ، ياليت أمى لم تلدنى . وعند ذلك تختطفك النيران والعياذ بالله ، وينادى المنادى اخسئوا فيها ولاتكلمون ؛ فلا يبقى سبيل إلا الصياح والأنين ، والتنفس والاستغاثة ، فكيف ترى الآن عقلك وهذه الأخطار بين يديك ، فإن كنت غير مؤمن بذلك فما أطول مقامك مع الكفار فى دركات جهنم . وإن كنت به مؤمنا وعنه غافلا ، وبالاستعداد له متهاونا ، فما أعظم خسرانك وطغيانك ، وماذا ينفعك إيمانك إذا لم يبعثك على السعى فى طلب رضا الله تعالى بطاعته وترك معاصيه ؟ فلو لم يكن بين يديك إلا هول الصراط ،

وارتياع قلبك من خطر الجواز عليه وإن سلمت ، فناهيك به هولا وفزعا ورعبا

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « يُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ جَهَنَّمَ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُ بِأُمَّتِهِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرُّسُلُ وَدَعْوَى الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ اللَّهُمَّ سَلِّمْ اللَّهُمَّ سَلِّمْ وَفِي جَهَنَّمَ كَلَالِيبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ هَلْ رَأَيْتُمْ شَوْكَ السَّعْدَانِ ؟ » قالوا نعم يارسول الله . قال « فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ قَدْرَ عِظَمِهَا إِلَّا اللهُ تَعَالَى تَخْتَطِفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ يُوبَقُ بِعَمَلِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُخَرْدَلُ ثُمَّ يَنْجُو » وقال [٢] أبو سعيد الخدرى : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ وَعَلَيْهِ حَسَكٌ وَكَلَالِيبُ وَخَطَاطِيفُ تَخْتَطِفُ النَّاسَ يَمِينًا وَشِمَالًا وَعَلَى جَنْبَتَيْهِ مَلَائِكَةٌ يَقُولُونَ اللَّهُمَّ سَلِّمْ اللَّهُمَّ سَلِّمْ فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَمُرُّ مِثْلَ الْبَرْقِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالرِّيحِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالْفَرَسِ الْمُجْرِي وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْعَى سَعْيًا وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي مَشْيًا وَمِنْهُمْ مَنْ يَحْبُو حَبْوًا وَمِنْهُمْ مَنْ يَزْحَفُ زَحْفًا فَأَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فَلَا يَمُوتُونَ وَلَا يَحْيَوْنَ وَأَمَّا نَاسٌ فَيُؤْخَذُونَ بِذُنُوبٍ وَخَطَايَا فَيَحْتَرِقُونَ فَيَكُونُونَ فَحْمًا ثُمَّ يُؤْذَنُ فِي الشَّفَاعَةِ » وذكر إلى آخر الحديث ، وعن [٣] ابن مسعود رضي الله عنه ، أنه صلى الله عليه وسلم قال « يَجْمَعُ اللهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ قِيَامًا أَرْبَعِينَ سَنَةً شَاخِصَةً أَبْصَارُهُمْ إِلَى السَّمَاءِ يَنْتَظِرُونَ فَصْلَ الْقَضَاءِ » وذكر الحديث إلى أن ذكر وقت سجود المؤمنين قال « ثُمَّ يَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ ارْفَعُوا رُؤُسَكُمْ فَيَرْفَعُونَ رُؤُسَهُمْ فَيُعْطِيهِمْ نُورَهُمْ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورَهُ مِثْلَ الْجَبَلِ

---

(١) حديث يُنصب الصراط بين ظهرى جهنم فأكون أول من يجيز : متفق عليه من حديث أبي هريرة في أثناء حديث طويل

(٢) حديث أبي سعيد يحشر الناس على جسر جهنم وعليه حسك وكلاليب وخطاطيف ـ الحديث : متفق عليه مع اختلاف ألفاظ

(٣) حديث ابن مسعود يجمع الله الاولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياماأربعين سنة شاخصة أبصارهم الى السماء ينتظرون فصل القضاء قال وذكر الحديث الى ذكر سجود المؤمنين الحديث: بطوله رواه ابن عدي والحاكم وقد تقدم بعضه مختصرا

الْعَظِيمِ يَسْعَى بَيْنَ يَدَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورَهُ أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورَهُ مِثْلَ النَّخْلَةِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورَهُ أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى يَكُونَ آخِرُهُمْ رَجُلاً يُعْطَى نُورَهُ عَلَى إِبْهَامِ قَدَمِهِ فَيُضِيءُ مَرَّةً وَيَخْبُو مَرَّةً فَإِذَا أَضَاءَ قَدَّمَ قَدَمَهُ فَمَشَى وَإِذَا أَظْلَمَ قَامَ » ثم ذكر مرورهم على الصراط على قدر نورهم فمنهم من يمر كطرف العين ، ومنهم من يمر كالبرق ، ومنهم من يمر كالسحاب ، ومنهم من يمر كانقضاض الكواكب ، ومنهم من يمر كشد الفرس ، ومنهم من يمر كشد الرجل ، حتى يمر الذى أعطى نوره على إبهام قدمه يحبو على وجهه ويديه ورجليه ، تجر منه يد ، وتعلق أخرى ، وتعلق رجل ، وتجر أخرى ، وتصيب جوانبه النار . قال « فَلاَ يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يَخْلُصَ فَإِذَا خَلَصَ وَقَفَ عَلَيْهَا ثُمَّ قَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ لَقَدْ أَعْطَانِي اللهُ مَا لَمْ يُعْطِ أَحَداً إِذْ نَجَّانِي مِنْهَا بَعْدَ إِذْ رَأَيْتُهَا فَيَنْطَلِقُ بِهِ إِلَى غَدِيرٍ عِنْدَ بَابِ الْجَنَّةِ فَيَغْتَسِلُ »

وقال [1] أنس بن مالك : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « الصِّرَاطُ كَحَدِّ السَّيْفِ أَوْ كَحَدِّ الشَّعْرَةِ وَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ يُنْجُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَإِنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ لآخِذٌ بِحُجْزَتِي وَإِنِّي لأَقُولُ يَارَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ فَالزَّالُّونَ وَالزَّالاَّتُ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ »

فهذه أهوال الصراط وعظائمه ، فطول فيه فكرك ، فإن أسلم الناس من أهوال يوم القيامة من طال فيها فكره فى الدنيا ، فإن الله لايجمع بين خوفين على عبد ، فمن خاف هذه الأهوال فى الدنيا أمنها فى الآخرة . ولست أعنى بالخوف رقة كرقة النساء تدمع عينك ، ويرق قلبك حال السماع ، ثم تنساه على القرب ، وتعود إلى لهوك ولعبك ، فماذا من الخوف فى شيء . بل من خاف شيئا هرب منه ، ومن رجا شيئا طلبه ، فلا ينجيك إلا خوف يمنعك عن معاصى الله تعالى ، ويحثك على طاعته

---

(١) حديث أنس الصراط كحد السيف أوكحد الشعرة ـ الحديث : البيهقى فى الشعب وقال هذا اسناد ضعيف قال وروي عن زياد النميرى عن أنس مرفوعا الصراط كحد الشعرة أوكحد السيف قال وهى رواية صحيحة انتهى ورواه أحمد من حديث عائشة وفيه ابن لهيعة

وأبعد من رقة النساء خوف الحمقى ، إذا سمعوا الأهوال سبق إلى ألسنتهم الاستعاذة فقال أحدهم : استعنت بالله نعوذ بالله اللهم سلم سلم . وهم مع ذلك مصرون على المعاصي التي هي سبب هلاكهم ، فالشيطان يضحك من استعاذتهم ، كما يضحك على من يقصده سبع ضار في صحراء ، ووراءه حصن ، فإذا رأى أنياب السبع وصولته من بُعد قال بلسانه : أعوذ بهذا الحصن الحصين ، وأستعين بشدة بنيانه ، وإحكام أركانه ، فيقول ذلك بلسانه وهو قاعد في مكانه . فأنّى يغني ذلك عنه من السبع ! وكذلك أهوال الآخرة ليس لها حصن إلا قول لا إله إلا الله صادقا ، ومعنى صدقه أن لايكون له مقصود سوى الله تعالى ، ولا معبود غيره ، ومن اتخذ إلهه هواه فهو بعيد من الصدق في توحيده ، وأمره مخطر في نفسه

فإن عجزت عن ذلك كله فكن محبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، حريصا على تعظيم سنته ، ومتشوّقا إلى مراعاة قلوب الصالحين من أمته ، ومتبركا بأدعيتهم فعساك أن تنال من شفاعته أو شفاعتهم ، فتنجو بالشفاعة إن كنت قليل البضاعة

صفة الشفاعة

اعلم أنه إذا حق دخول النار على طوائف من المؤمنين ، فإن الله تعالى بفضله يقبل فيهم شفاعة الأنبياء والصديقين ، بل شفاعة العلماء والصالحين . وكل من له عند الله جاه وحسن معاملة ، فإن له شفاعة في أهله ، وقرابته ، وأصدقائه . ومعارفه . فكن حريصا على أن تكتسب لنفسك عندهم رتبة الشفاعة ، وذلك بأن لاتحقر آدميا أصلا ، فإن الله تعالى خبأ ولايته في عباده ، فلعل الذي تزدريه عينك هو ولي الله ، ولا تستصغر معصية أصلا ، فإن الله تعالى خبأ غضبه في معاصيه ، فلعل مقت الله فيه . ولا تستحقر أصلا طاعة ، فإن الله تعالى خبأ رضاه في طاعته ، فلعل رضاه فيه ، ولو الكلمة الطيبة ، أو اللقمة ، أو النية الحسنة ، أو مايجرى مجراه

وشواهد الشفاعة في القرآن والأخبار كثيرة . قال الله تعالى (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى [1])

---

(1) الضحى : ٥

روى [١] عمرو بن العاص ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قول إبراهيم عليه السلام (رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ [١]) وقول عيسى عليه السلام (إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ [٢]) ثم رفع يديه وقال « أُمَّتِي أُمَّتِي » ثم بكى . فقال الله عز وجل : ياجبريل اذهب إلى محمد فسله مايبكيك ؟ فأتاه جبريل فسأله ، فأخبره والله أعلم به ، فقال ياجبريل اذهب إلى محمد فقل له : إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك

وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَتُرَابُهَا طَهُورًا فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ وَكُلُّ نَبِيٍّ بُعِثَ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً »

وقال صلى الله عليه وسلم « إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ كُنْتُ إِمَامَ النَّبِيِّينَ وَخَطِيبَهُمْ وَصَاحِبَ شَفَاعَتِهِمْ مِنْ غَيْرِ فَخْرٍ »

وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ عَنْهُ وَأَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ بِيَدِي لِوَاءُ الْحَمْدِ تَحْتَهُ آدَمُ فَمَنْ دُونَهُ » وقال صلى الله عليه وسلم [٤] « لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ

---

(١) حديث عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلاقول ابراهيم صلى الله عليه وسلم رب انهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فانه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم وقول عيسى صلى الله عليه وسلم ان تعذبهم فانهم عبادك ثم رفع يديه ثم قال أمتي أمتي ثم بكي ـ الحديث : وفيه ياجبريل اذهب الى محمد فقل انا سنرضيك ولانسوءك في أمتك قلت ليس هو من حديث عمرو بن العاص وإنما هو من حديث ابنه عبد الله بن عمرو بن العاص كما رواه مسلم ولعله سقط من الاحياء ذكر عبد الله من بعض النساخ

(٢) حديث أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي ـ الحديث : وفيه وأعطيت الشفاعة متفق عليه من حديث جابر اذا كان يوم القيامة كنت امام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم من غير فخر : الترمذي وابن ماجه من حديث أبي بن كعب قال الترمذي حسن صحيح

(٣) حديث أنا سيد ولد آدم ولا فخر ـ الحديث: الترمذي وقال حسن وابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري

(٤) حديث لكل نبي دعوة مستجابة فأريد أن أختبئ دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة: متفق عليه من حديث أنس ورواه مسلم من حديث أبي هريرة

---

[١] ابرهيم : ٣٦ [٢] المائدة : ١١٨

فَأُرِيدُ أَنْ أَخْتَبِئَ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ »

وقال (١) ابن عباس رضي الله عنهما ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يُنْصَبُ لِلْأَنْبِيَاءِ مَنَابِرُ مِنْ ذَهَبٍ فَيَجْلِسُونَ عَلَيْهَا وَيَبْقَى مِنْبَرِي لَا أَجْلِسُ عَلَيْهِ قَائِمًا بَيْنَ يَدَيْ رَبِّي مُنْتَصِبًا مَخَافَةَ أَنْ يَبْعَثَ بِي إِلَى الْجَنَّةِ وَتَبْقَى أُمَّتِي بَعْدِي فَأَقُولُ يَارَبِّ أُمَّتِي فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَامُحَمَّدُ وَمَا تُرِيدُ أَنْ أَصْنَعَ بِأُمَّتِكَ؟ فَأَقُولُ يَارَبِّ عَجِّلْ حِسَابَهُمْ فَمَا أَزَالُ أَشْفَعُ حَتَّى أُعْطَى صِكَاكًا بِرِجَالٍ قَدْ بُعِثَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ وَحَتَّى أَنَّ مَالِكًا خَازِنَ النَّارِ يَقُولُ يَامُحَمَّدُ مَاتَرَكْتَ النَّارَ لِغَضَبِ رَبِّكَ فِي أُمَّتِكَ مِنْ بَقِيَّةٍ »

وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « إِنِّي لَأَشْفَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِأَكْثَرَ مِمَّا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مِنْ حَجَرٍ وَمَدَرٍ »

وقال (٣) أبو هريرة : أتي رسول الله صلى الله عليه وسلم بلحم ، فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه ، فنهش منها نهشة ثم قال « أَنَا سَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذَلِكَ يَجْمَعُ اللهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ وَتَدْنُو الشَّمْسُ فَيَبْلُغُ النَّاسُ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَالَا يُطِيقُونَ وَلَا يَحْتَمِلُونَ فَيَقُولُ النَّاسُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ أَلَا تَرَوْنَ مَاقَدْ بَلَغَكُمْ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ عَلَيْكُمْ بِآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ لَهُ أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ أَشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ

---

(١) حديث ابن عباس ينصب للانبياء منابر من ذهب يجلسون عليها ويبقى منبرى لا أجلس عليه قائما بين يدى ربى منتصبا ـ الحديث : الطبرانى فى الاوسط وفي اسناده محمد بن ثابت البنانى ضعيف

(٢) حديث انى لاشفع يوم القيامة لاكثر مما على وجه الارض من حجر ومدر : أحمد والطبرانى من حديث بريدة بسند حسن

(٣) حديث أبى هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى بلحم فرفع اليه الدراع وكان يعجبه فنهش منها نهشة ثم قال أنا سيد الناس ـ الحديث : بطوله فى الشفاعة قال وفى حديث آخر هذا السياق مع ذكر خطايا ابراهيم متفق عليه وهذه الرواية الثانية أخرجها مسلم

ألاَ تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ ألاَ تَرَى مَاقَدْ بَلَغنَا فَيَقُولُ لَهُمْ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ
إِنَّ رَبِّى قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ
وَإِنَّهُ قَدْ نَهَانِى عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ نَفْسِى نَفْسِى اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِى اذْهَبُوا إِلَى
نُوحٍ فَيَأْتُونَ نُوحاً عَلَيْهِ السَّلاَمُ فَيَقُولُونَ يَانُوحُ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ
الأَرْضِ وَقَدْ سَمَّاكَ اللهُ عَبْداً شَكُوراً اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ
فَيَقُولُ إِنَّ رَبِّى قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلاَ يَغْضَبُ بَعْدَهُ
مِثْلَهُ وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِى دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَى قَوْمِى نَفْسِى نَفْسِى اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِى
اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللهِ فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَ اللهِ عَلَيْهِ السَّلاَمُ فَيَقُولُونَ
أَنْتَ نَبِيُّ اللهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ
فِيهِ فَيَقُولُ لَهُمْ إِنَّ رَبِّى قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلاَ
يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَإِنِّى كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلاَثَ كَذَبَاتٍ وَيَذْكُرُهَا نَفْسِى نَفْسِى
اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِى اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى فَيَأْتُونَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ فَيَقُولُونَ
يَامُوسَى أَنْتَ رَسُولُ اللهِ فَضَّلَكَ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلاَمِهِ عَلَى النَّاسِ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ
أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَيَقُولُ إِنَّ رَبِّى قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ
وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَإِنِّى قَتَلْتُ نَفْساً لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا نَفْسِى نَفْسِى
اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِى اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُونَ
يَاعِيسَى أَنْتَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ وَكَلَّمْتَ النَّاسَ
فِى الْمَهْدِ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَيَقُولُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ
إِنَّ رَبِّى غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ
وَلَمْ يَذْكُرْ ذَنْباً نَفْسِى نَفْسِى اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِى اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَأْتُونِى فَيَقُولُونَ يَامُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللهِ وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَغَفَرَ
اللهُ لَكَ مَاتَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ
فِيهِ فَأَنْطَلِقُ فَآتِى تَحْتَ الْعَرْشِ فَأَقَعُ سَاجِداً لِرَبِّى ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ لِى مِنْ

مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي ثُمَّ يُقَالُ يَامُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ سَلْ تُعْطَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ. فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَقُولُ أُمَّتِي أُمَّتِي يَارَبِّ فَيُقَالُ يَامُحَمَّدُ أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَبْوَابِ » ثم قال « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرَ أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى »

وفى حديث آخر هذا السياق بعينه ، مع ذكر خطايا إبراهيم ، وهو قوله فى الكواكب هذا ربى ، وقوله لآلهتهم بل فعله كبيرهم هذا ، وقوله إنى سقيم

فهذه شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولآحاد أمته من العلماء والصالحين شفاعة أيضا ، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِشَفَاعَةِ رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَكْثَرُ مِنْ رَبِيعَةَ وَمُضَرَ »

وقال صلى الله عليه وسلم [2] « يُقَالُ لِلرَّجُلِ قُمْ يَافُلَانُ فَاشْفَعْ فَيَقُومُ الرَّجُلُ فَيَشْفَعُ لِلْقَبِيلَةِ وَلِأَهْلِ الْبَيْتِ وَلِلرَّجُلِ وَالرَّجُلَيْنِ عَلَى قَدْرِ عَمَلِهِ »

وقال [3] أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ يُشْرِفُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَهْلِ النَّارِ فَيُنَادِيهِ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ النَّارِ وَيَقُولُ

---

(١) حديث يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتى أكثر من ربيعة ومضر : رويناه فى جزء أبى عمرو بن السماك من حديث أبى امامة إلا انه قال مثل أحد الحيين ربيعة ومضر وفيه فكان المشيخة يرون ان ذلك الرجل عثمان بن عفان واسناده حسن وللترمذى وابن ماجه والحاكم من حديث عبد الله ابن أبى الجدعا يدخل الجنة بشفاعة الرجل من أمتى أكثر من بنى تميم قالوا سواك قال سواى قال الترمذى حسن صحيح وقال الحاكم صحيح قيل أراد بالرجل أويسا

(٢) حديث يقال للرجل قم يافلان فاشفع فيقوم يشفع للقبيلة ولأهل البيت وللرجل والرجلين على قدر عمله : الترمذى من حديث أبى سعيد ان من أمتى من يشفع للفئام ومنهم من يشفع للقبيلة الحديث : وقال حسن وللبزار من حديث أنس ان الرجل ليشفع للرجلين والثلاثة

(٣) حديث أنس ان رجلا من أهل الجنة يشرف يوم القيامة على اهل النار فيناديه رجل من أهل النار ويقول يافلان هل تعرفنى فيقول لا والله ماأعرفك من أنت فيقول أنا الذى مررت بى فى الدنيا يوما فاستسقيتنى شربة فسقيتك ـ الحديث : فى شفاعته فيه واخراجه من النار أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس بسند ضعيف

يَافُلاَنُ هَلْ تَعْرِفُنِي ؟ فَيَقُولُ لاَ وَاللهِ مَاأَعْرِفُكَ مَنْ أَنْتَ ؟ فَيَقُولُ أَنَا الَّذِي مَرَرْتَ بِي فِي الدُّنْيَا فَاسْتَسْقَيْتَنِي شَرْبَةَ مَاءٍ فَسَقَيْتُكَ قَالَ قَدْ عَرَفْتُ قَالَ فَاشْفَعْ لِي بِهَا عِنْدَ رَبِّكَ فَيَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى ذِكْرُهُ وَيَقُولُ إِنِّي أَشْرَفْتُ عَلَى أَهْلِ النَّارِ فَنَادَانِي رَجُلٌ مِنْ أَهْلِهَا فَقَالَ هَلْ تَعْرِفُنِي ؟ فَقُلْتُ لاَ مَنْ أَنْتَ ؟ فَقَالَ أَنَا الَّذِي اسْتَسْقَيْتَنِي فِي الدُّنْيَا فَسَقَيْتُكَ فَاشْفَعْ لِي عِنْدَ رَبِّكَ فَشَفِّعْنِي فِيهِ فَيُشَفِّعُهُ اللهُ فِيهِ فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ »

وعن أنس[1] قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ خُرُوجاً إِذَا بُعِثُوا وَأَنَا خَطِيبُهُمْ إِذَا وَفَدُوا وَأَنَا مُبَشِّرُهُمْ إِذَا يَئِسُوا لِوَاءُ الْحَمْدِ يَوْمَئِذٍ بِيَدِي وَأَنَا أَكْرَمُ وَلَدِ آدَمَ عَلَى رَبِّي وَلاَ فَخْرَ »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] « إِنِّي أَقُومُ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فَأُكْسَى حُلَّةً مِنْ حُلَلِ الْجَنَّةِ ثُمَّ أَقُومُ عَنْ يَمِينِ الْعَرْشِ لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْخَلاَئِقِ يَقُومُ ذَلِكَ الْمَقَامَ غَيْرِي »

وقال[3] ابن عباس رضي الله عنهما : جلس ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظرونه ، فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون ، فسمع حديثهم فقال بعضهم : عجبا ! إن الله عز وجل اتخذ من خلقه خليلا ، اتخذ ابراهيم خليلا . وقال آخر : ماذا بأعجب من كلام موسى كلمه تكليما . وقال آخر . فعيسى كلمة الله وروحه . وقال آخر آدم اصطفاه الله . فخرج لهم صلى الله عليه وسلم فسلم وقال « قَدْ سَمِعْتُ كَلاَمَكُمْ وَتَعَجُّبَكُمْ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلُ اللهِ وَهُوَ كَذَلِكَ وَمُوسَى نَجِيُّ اللهِ وَهُوَ كَذَلِكَ وَعِيسَى رُوحُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ وَهُوَ كَذَلِكَ وَآدَمُ اصْطَفَاهُ اللهُ وَهُوَ كَذَلِكَ أَلاَ وَأَنَا حَبِيبُ اللهِ وَلاَ فَخْرَ وَأَنَا حَامِلُ لِوَاءِ الْحَمْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ فَخْرَ

---

(١) حديث أنس أنا أول الناس خروجا اذا بعثوا ـ الحديث : الترمذي وقال حسن غريب

(٢) حديث فأكسى حلة من حلل الجنة ثم أقوم عن يمين العرش ـ الحديث : الترمذي من حديث أبي هريرة وقال حسن غريب صحيح

(٣) حديث ابن عباس جلس ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظرونه فخرج حتى اذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون فسمع حديثهم فقال بعضهم عجبا ان الله اتخذ من خلقه خليلا اتخذ ابراهيم خليلا ـ الحديث : رواه الترمذي وقال غريب

وَأَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ فَخْرَ وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يُحَرِّكُ حَلَقَ الْجَنَّةِ فَيَفْتَحُ اللهُ لِي فَأَدْخُلُهَا وَمَعِي فُقَرَاءُ الْمُؤْمِنِينَ وَلاَ فَخْرَ وَأَنَا أَكْرَمُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ وَلاَ فَخْرَ »

صفة الحوض

اعلم أن الحوض مكرمة عظيمة خص الله بها نبينا صلى الله عليه وسلم ، وقد اشتملت الأخبار على وصفه ، ونحن نرجو أن يرزقنا الله تعالى فى الدنيا علمه ، وفى الآخرة ذوقه ، فإن من صفاته أن من شرب منه لم يظمأ أبدا قال [١] أنس : أغفى رسول الله صلى الله عليه وسلم أغفاءة فرفع رأسه متبسما ، فقال له يارسول الله لم ضحكت ؟ فقال « آيَةٌ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفاً » وقرأ (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ. إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ[١]) حتى ختمها ثم قال « هَلْ تَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ ؟ » قالوا الله ورسوله أعلم ؟ قال « إِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فِي الْجَنَّةِ عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ عَلَيْهِ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ آنِيَتُهُ عَدَدُ نُجُومِ السَّمَاءِ »

وقال [٢] أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بَيْنَمَا أَنَا أَسِيرُ فِي الْجَنَّةِ إِذَا بِنَهْرٍ حَافَتَاهُ قِبَابُ اللُّؤْلُؤِ الْمُجَوَّفِ قُلْتُ مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ ؟ قَالَ هَذَا الْكَوْثَرُ الَّذِي أَعْطَاكَ رَبُّكَ فَضَرَبَ الْمَلَكُ بِيَدِهِ فَإِذَا طِينُهُ مِسْكٌ أَذْفَرُ »

وقال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول [٣] « مَا بَيْنَ لاَبَتَيْ حَوْضِي مِثْلُ مَا بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَصَنْعَاءَ أَوْ مِثْلُ مَا بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَعَمَّانَ »

---

(١) حديث أنس أغفى رسول الله صلى الله عليه وسلم اغفاءة فرفع رأسه متبسما فقالوا له يارسول الله لم ضحكت فقال آية نزلت على آنفا وقرأ بسم الله الرحمن الرحيم إنا أعطيناك الكوثر رواه مسلم

(٢) حديث أنس بينا أنا أسير فى الجنة اذا أنا بنهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف ـ الحديث : الترمذى وقال حسن صحيح ورواة البخارى من قول أنس لما عرج بالنبى صلى الله عليه وسلم الى السماء الحديث : وهو مرفوع وان لم يكن صرح به عن النبى صلى الله عليه وسلم

(٣) حديث أنس مابين لابتى حوضى مثل مابين المدينة وصنعاء أومثل مابين المدينة وعمان : رواه مسلم

---

(١) الكوثر

وروى (٣) ابن عمر إنه لما نزل قوله تعالى (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١)) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هُوَ نَهْرٌ فِي الْجَنَّةِ حافَّتَاهُ مِنْ ذَهَبٍ شَرَابُهُ أَشَدُّ بَيَاضاً مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ وَأَطْيَبُ رِيحاً مِنَ الْمِسْكِ يَجْرِي عَلَى جَنَادِلِ اللُّؤْلُؤِ وَالْمَرْجَانِ »

وقال (٢) ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ حَوْضِي مَا بَيْنَ عدن إِلَى عَمَّانِ الْبَلْقَاء مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضاً مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ وَأَكْوَابُهُ عَدَدُ نُجُومِ السَّمَاءِ مَنْ شَرِبَ مِنْهُ شَرْبَةً لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهَا أبدًا أَوَّلُ النَّاسِ وُرُودًا عَلَيْهِ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ » فقال عمر ابن الخطاب : ومن هم يارسول الله ؟ قال « هُمُ الشُّعْثُ رُؤُوساً الدُّنْسُ ثِيَاباً الَّذِينَ لَا يَنْكِحُونَ الْمُتَنَعِّمَاتِ وَلَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السُّدَدِ » فقال عمر بن عبد العزيز : والله لقد نكحت المتنعمات : فاطمة بنت عبد الملك ، وفتحت لى أبواب السدد إلا أن يرحمني الله لاجرم لأدهن رأسى حتى يشعث : ولا أغسل ثوبى الذى على جسدى حتى يتسخ

(٣) وعن أبى ذر قال : قلت يارسول الله ، ما آنية الحوض ؟ قال « وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَآنِيَتُهُ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ وَكَوَاكِبِهَا فِي اللَّيْلَةِ الْمُظْلِمَةِ الْمُصْحِيَةِ مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ آخِرُ مَا عَلَيْهِ يَشْخُبُ فِيهِ مِيزَابَانِ مِنَ الْجَنَّةِ عَرْضُهُ مِثْلُ طُولِهِ مَا بَيْنَ عَمَّانَ وَايْلَةَ مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضاً مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ »

---

(١) حديث ابن عمر لما نزل قوله تعالى إنا أعطيناك الكوثر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو انهر في الجنة حافاه من ذهب ــ الحديث : الترمذى مع اختلاف لفظ وقال حسن صحيح ورواه الدارمى فى مسنده وهو أقرب إلى لفظ المصنف

(٢) حديث ثوبان ان حوضى مابين عدن الى عمان البلقا ــ الحديث : الترمذى وقال غريب وابن ماجه

(٣) حديث أبى ذر قلت يارسول الله ماآنية الحوض قال والذى نفسى بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء ــ الحديث : رواه مسلم

---

(١) الكوثر

وعن(١) سمرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضاً وَإِنَّهُمْ يَتَبَاهَوْنَ أَيُّهُمْ أَكْثَرُ وَارِدَةً وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ وَارِدَةً »

فهذا رجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فليرج كل عبد أن يكون فى جملة الواردين ، وليحذر أن يكون متمنيا ومغترا وهو يظن أنه راج ، فإن الراجى للحصاد من بث البذر ، ونقى الأرض ، وسقاها الماء ، ثم جلس يرجو فضل الله بالإنبات ودفع الصواعق إلى أوان الحصاد . فأما من ترك الحراثة أو الزراعة ، وتنقية الأرض وسقيها ، وأخذ يرجو من فضل الله أن ينبت له الحب والفاكهة ، فهذا مغتر ومتمن وليس من الراجين فى شيء . وهكذا رجاء أكثر الخلق ، وهو غرور الحمقى ، نعوذ بالله من الغرور والغفلة ، فإن الاغترار بالله أعظم من الاغترار بالدنيا . قال الله تعالى (فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ(١))

القول

فى صفة جهنم وأهوالها وأنكالها

يأيها الغافل عن نفسه ، المغرور بما هو فيه من شواغل هذه الدنيا المشرفة على الانقضاء والزوال ، دع التفكر فيما أنت مرتحل عنه ، واصرف الفكر إلى موردك ، فإنك أخبرت بأن النار مورد للجميع إذ قيل (وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا(٢)) فأنت من الورود على يقين ، ومن النجاة فى شك . فاستشعر فى قلبك هول ذلك المورد ، فعساك تستعد للنجاة منه . وتأمل فى حال الخلائق وقد قاسوا من دواهى القيامة ماقاسوا ، فبينما هم فى كربها وأهوالها وقوفا ينتظرون حقيقة أنبائها ، وتشفيع شفعائها ، إذ أحاطت بالمجرمين ظلمات ذات شعب ، وأظلت

---

(١) حديث سمرة ان لكل نبى حوضا وانهم ليتباهون أيهم أكثر واردة ـ الحديث : الترمذى وقال غريب قال وقد روى الاشعث بن عبد الملك هذا الحديث عن الحسن عن النبى صلى الله عليه وسلم مرسلا ولم يذكر فيه عن سمرة وهو أصح

---

(١) فاطر : ٥ (٢) مريم : ٦٩ ، ٧٠

عليهم نار ذات لهب ، وسمعوا لها زفيرا وجرجرة تفصح عن شدة الغيظ والغضب ، فعند ذلك أيقن المجرمون بالعطب ، وجثت الأمم على الركب ، حتى أشفق البرآء من سوء المنقلب ، وخرج المنادى من الزبانية قائلا : أين فلان بن فلان المسوّف نفسه فى الدنيا بطول الأمل ، المضيع عمره فى سوء العمل ؟ فيبادرونه بمقامع من حديد ، ويستقبلونه بعظائم التهديد ، ويسوقونه إلى العذاب الشديد ، وينكسونه فى قعر الجحيم ، ويقولون له (ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ[1]) فأسكنوا دارا ضيقة الأرجاء ، مظلمة المسالك ، مبهمة المهالك ، يخلد فيها الأسير ويوقد فيها السعير . شرابهم فيها الحميم ، ومستقرهم الجحيم ، الزبانية تقمعهم ، والهاوية تجمعهم . أمانيهم فيها الهلاك ، ومالهم منها فكاك . قد شدت أقدامهم إلى النواصى ، واسودت وجوههم من ظلمة المعاصى . ينادون من أكنافها ، ويصيحون فى نواحيها وأطرافها ، يامالكُ قد حق علينا الوعيد ، يامالك قد أثقلنا الحديد ، يامالك قد نضجت منا الجلود ، يامالك أخرجنا منها فإنا لانعود . فتقول الزبانية هيهات لات حين أمان ، ولاخروج لكم من دار الهوان فاخسئوا فيها ولا تكلمون ، ولو أخرجتم منها لكنتم إلى مانهيتم عنه تعودون . فعند ذلك يقنطون ، وعلى مافرّطوا فى جنب الله يتأسفون . ولاينجيهم الندم ، ولايغنيهم الأسف ، بل يكبون على وجوههم مغلولين ، النار من فوقهم ، والنار من تحتهم ، والنار عن أيمانهم ، والنار عن شمائلهم ، فهم غرقى فى النار ، طعامهم نار ، وشرابهم نار ، ولباسهم نار ، ومهادهم نار . فهم بين مقطعات النيران وسرابيل القطران ، وضرب المقامع ، وثقل السلاسل ، فهم يتجلجلون فى مضايقها ويتحطمون فى دركاتها ، ويضطربون بين غواشيها . تغلى بهم النار كغلى القدور ويهتفون بالويل والعويل ، ومهما دعوا بالثبور صب من فوق رؤسهم الحميم ، يصهر به مافى بطونهم والجلود ، ولهم مقامع من حديد ، تهشم بها جباههم ، فيتفجر الصديد من أفواههم ، وتتقطع من العطش أكبادهم ، وتسيل على الخدود

---

(1) الدخان : ٤٩

أحداقهم ، ويسقط من الوجنات لحومها ، ويتمعط من الأطراف شعورها بل جلودها . وكلما نضجت جلودهم بدلوا جلودا غيرها . قد عريت من اللحم عظامهم فبقيت الأرواح منوطة بالعروق وعلائق العصب ، وهي تنش في لفح تلك النيران وهم مع ذلك يتمنون الموت فلا يموتون

فكيف بك لو نظرت إليهم وقد سودت وجوههم أشد سواد من الحميم ، وأعميت أبصارهم ، وأبكمت ألسنتهم ، وقصمت ظهورهم ، وكسرت عظامهم ، وجدعت آذانهم ، ومزقت جلودهم ، وغلت أيديهم إلى أعناقهم ، وجمع بين نواصيهم وأقدامهم ، وهم يمشون على النار بوجوههم ، ويطئون حسك الحديد بأحداقهم . فلهيب النار سار في بواطن أجزائهم ، وحيات الهاوية وعقاربها متشبثة بظواهر أعضائهم

هذا بعض جملة أحوالهم . وانظر الآن في تفصيل أهوالهم ، وتفكر أيضا في أودية جهنم وشعابها ، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم[1] « إِنَّ فِي جَهَنَّمَ سَبْعِينَ أَلْفَ وَادٍ فِي كُلِّ وَادٍ سَبْعُونَ أَلْفَ شِعْبٍ فِي كُلِّ شِعْبٍ سَبْعُونَ أَلْفَ ثُعْبَانٍ وَسَبْعُونَ أَلْفَ عَقْرَبٍ لَا يَنْتَهِي الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُ حَتَّى يُوَاقِعَ ذَلِكَ كُلَّهُ »

وقال[2] علي كرم الله وجهه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ جُبِّ الْحُزْنِ أَوْ وَادِي الْحُزْنِ » قيل يارسول الله وما وادي أو جب الحزن؟ قال « وَادٍ فِي جَهَنَّمَ تَتَعَوَّذُ مِنْهُ جَهَنَّمُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعِينَ مَرَّةً أَعَدَّهُ اللَّهُ تَعَالَى لِلْقُرَّاءِ الْمُرَائِينَ »

﴿ القول في صفة جهنم ﴾

(١) حديث ان في جهنم سبعين ألف واد في كل وادسبعون ألف شعب في كل شعب سبعون الف ثعبان وسبعون ألف عقرب لاينتهي الكافر والمنافق حتى يواقع ذلك كله : لم أجده هكذا بجملته وسيأتي بعده ماورد في ذكر الحيات والعقارب

(٢) حديث علي تعوذوا بالله من جب الحزن أو وادي الحزن ـ الحديث : رواه ابن عدي بلفظ وادي الحزن وقال باطل وأبو نعيم والأصبهاني بسند ضعيف ورواه الترمذي وقال غريب وابن ماجه من حديث أبي هريرة بلفظ جب الحزن وضعفه ابن عدي وتقدم في ذم الجاه والرياء

فهذه سعة جهنم وانشعاب أوديتها ، وهي بحسب عدد أودية الدنيا وشهواتها .
وعدد أبوابها بعدد الأعضاء السبعة التي بها يعصى العبد بعضها فوق بعض ،
الأعلى جهنم ، ثم سقر ، ثم لظى ، ثم الحطمة ، ثم السعير ، ثم الجحيم ، ثم الهاوية . فانظر
الآن فى عمق الهاوية ، فإنه لاحدّ لعمقها ، كما لاحد لعمق شهوات الدنيا . فكما
لاينتهى أرب من الدنيا إلا إلى أرب أعظم منه ، فلا تنتهى هاوية من جهنم إلا
إلى هاوية أعمق منها . قال [1] أبو هريرة كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم
فسمعنا وجبة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَتَدْرُونَ مَاهَذَا؟ » قلنا : الله
ورسوله أعلم . قال « هَـذَا حَجَرٌ أُرْسِلَ فِي جَهَنَّمَ مُنْذُ سَبْعِينَ عَاماً الآنَ
انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا »

ثم انظر إلى تفاوت الدركات ، فإن الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا .
فكما أن إكباب الناس على الدنيا يتفاوت ، فمن منهمك مستكثر كالغريق فيها
ومن خائض فيها إلى حد محدود ، فكذلك تناولُ النار لهم متفاوتٌ ، فإن الله
لايظلم مثقال ذرة ، فلا تترادف أنواع العذاب على كل من فى النار كيفما كان
بل لكل واحد حدّ معلوم على قدر عصيانه وذنبه . إلا أن أقلهم عذابا لو عرضت
عليه الدنيا بحذافيرها لافتدى بها من شدة ماهو فيه : قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم [2] « إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ النَّارِ عَذَاباً يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَنْتَعِلُ بِنَعْلَيْنِ مِنْ
نَارٍ يَغْلِي دِمَاغُهُ مِنْ حَرَارَةِ نَعْلَيْهِ »

فانظر الآن إلى من خفف عليه واعتبر به من شدّد عليه . ومهما تشككت
فى شدة عذاب النار ، فقرب أصبعك من النار ، وقس ذلك به ثم اعلم أنك أخطأت

---

(١) حديث أبى هريرة كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعنا وجبة ـ الحديث : وفيه هذا حجر أرسل فى جهنم ـ الحديث : رواه مسلم

(٢) حديث ان أدنى أهل النار عذابا يوم القيامة من ينتعل بنعلين من نار ـ الحديث : متفق عليه من حديث النعمان بن بشير

في القياس ، فإن نار الدنيا لاتناسب نار جهنم ، ولكن لما كان أشد عذاب في الدنيا عذاب هذه النار ، عرف عذاب جهنم بها . وهيهات لو وجد أهل الجحيم مثل هذه النار لخاضوها طائعين هربا مما هم فيه ، وعن هذا عبر في الأخبار حيث قيل [١] إن نار الدنيا غسلت بسبعين ماء من مياه الرحمة حتى أطاقها أهل الدنيا . بل صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفة نار جهنم فقال [٢] « أَمَرَ اللهُ تَعَالَى أَنْ يُوقَدَ عَلَى النَّارِ أَلْفَ عَامٍ حَتَّى احْمَرَّتْ ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ عَامٍ حَتَّى ابْيَضَّتْ ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ عَامٍ حَتَّى اسْوَدَّتْ فَهِيَ سَوْدَاءُ مُظْلِمَةٌ »

وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « اشْتَكَتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا فَقَالَتْ يَارَبِّ أَكَلَ بَعْضِي بَعْضاً فَأَذِنَ لَهَا فِي نَفَسَيْنِ نَفَسٍ فِي الشِّتَاءِ وَنَفَسٍ فِي الصَّيْفِ فَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَهُ فِي الصَّيْفِ مِنْ حَرِّهَا وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَهُ فِي الشِّتَاءِ مِنْ زَمْهَرِيرِهَا »

وقال أنس بن مالك : يؤتى بأنعم الناس في الدنيا من الكفار ، فيقال اغمسوه في النار غمسة ، ثم يقال له هل رأيت نعيما قط ؟ فيقول لا . ويؤتى بأشد الناس ضرا في الدنيا ، فيقال اغمسوه في الجنة غمسة . ثم يقال له هل رأيت ضرا قط ؟ فيقول : لا

وقال أبو هريرة لو كان في المسجد مائة ألف أو يزيدون ، ثم تنفس رجل من أهل النار لماتوا

وقد قال بعض العلماء في قوله (تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ [١]) إنها لفحتهم لفحة واحدة ، فما أبقت لحما على عظم إلا ألقته عند أعقابهم

ثم انظر بعد هذا في نتن الصديد الذي يسيل من أبدانهم حتى يغرقون فيه ،

---

(١) حديث ان نار الدنيا غسلت بسبعين ماء من مياه الرحمة حتى أطاقها أهل الدنيا ذكر ابن عبد البر من حديث ابن عباس وهذه النار قدضربت بماء البحر سبع مرات ولولاذلك ماانتفع بهاأحد وللبزار من حديث أنس وهو ضعيف وماوصلت اليكم حتى أحسبه قال نضحت بالماء فتضيء عليكم

(٢) حديث أمر الله أن يوقد على النار ألف عام حتى احمرت ـ الحديث : تقدم

(٣) حديث اشتكت النار الى ربها فقالت يارب أكل بعضي بعضا فاذن لها بنفسين ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة

---

(١) المؤمنون : ١٠٤

وهو الغساق . قال[1] أبو سعيد الخدرى : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَوْ أَنَّ دَلْواً مِنْ غَسَّاقِ جَهَنَّمَ أُلْقِيَ فِي الدُّنْيَا لَأَنْتَنَ أَهْلَ الْأَرْضِ » فهذا شرابهم إذا استغاثوا من العطش فيسقى أحدهم (مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ [1]) (وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً [2])

ثم انظر إلى طعامهم وهو الزقوم ، كما قال الله تعالى (ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ [3]) وقال تعالى (إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّيَاطِينِ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ [4]) وقال تعالى (تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ [5]) وقال تعالى (إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً وَجَحِيماً وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً [6])

وقال[2] ابن عباس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُّومِ قَطَرَتْ فِي بِحَارِ الدُّنْيَا أَفْسَدَتْ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا مَعَايِشَهُمْ فَكَيْفَ مَنْ يَكُونُ طَعَامُهُ ذَلِكَ »

وقال[3] أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ارْغَبُوا فِيمَا رَغَّبَكُمُ اللهُ وَاحْذَرُوا وَخَافُوا مَا خَوَّفَكُمُ اللهُ بِهِ مِنْ عَذَابِهِ وَعِقَابِهِ وَمِنْ جَهَنَّمَ فَإِنَّهُ لَوْ

---

(١) حديث أبي سعيد الخدرى لو أن دلوا من غساق ألقى فى الدنيا لأنتن أهل الأرض : الترمذى وقال انما نعرفه من حديث رشد بن سعد وفيه ضعف

(٢) حديث ابن عباس لو ان قطرة من الزقوم قطرت فى دار الدنيا افسدت على أهل الأرض معاشهم الحديث : الترمذى وقال حسن صحيح وابن ماجه

(٣) حديث انس ارغبوا فيما رغبكم فيه واحذروا وخافوا مما خوفكم به من عذاب الله وعقابه من جهنم الحديث : لم أجد له اسنادا

---

(١) ابرهيم: ١٦ ، ١٧ (٢) الكهف : ٢٩ (٣) الواقعة : ٥١ - ٥٥ (٤) الصافات : ٦٤ - ٦٨ (٥) الغاشية : ٤ ، ٥
(٦) المزمل : ١٢ ، ١٣

كَانَتْ قَطْرَةٌ مِنَ الْجَنَّةِ مَعَكُمْ فِي دُنْيَاكُمُ الَّتِي أَنْتُمْ فِيهَا طَيَّبَتْهَا لَكُمْ وَلَوْ كَانَتْ قَطْرَةٌ مِنَ النَّارِ مَعَكُمْ فِي دُنْيَاكُمُ الَّتِي أَنْتُمْ فِيهَا خَبَّثَتْهَا عَلَيْكُمْ »

وقال [1] أبو الدرداء ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يُلْقَى عَلَى أَهْلِ النَّارِ الْجُوعُ حَتَّى يَعْدِلَ مَاهُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ فَيَسْتَغِيثُونَ بِالطَّعَامِ فَيُغَاثُونَ بِطَعَامٍ مِنْ ضَرِيعٍ لَايُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ وَيَسْتَغِيثُونَ بِالطَّعَامِ فَيُغَاثُونَ بِطَعَامٍ ذِي غُصَّةٍ فَيَذْكُرُونَ أَنَّهُمْ كَمَا كَانُوا يُجِيزُونَ الْغُصَصَ فِي الدُّنْيَا بِشَرَابٍ فَيَسْتَغِيثُونَ بِشَرَابٍ فَيُرْفَعُ إِلَيْهِمُ الْحَمِيمُ بِكَلَالِيبِ الْحَدِيدِ فَإِذَا دَنَتْ مِنْ وُجُوهِهِمْ شَوَتْ وُجُوهَهُمْ فَإِذَا دَخَلَ الشَّرَابُ بُطُونَهُمْ قَطَعَ مَافِي بُطُونِهِمْ فَيَقُولُونَ ادْعُوا خَزَنَةَ جَهَنَّمَ قَالَ فَيَدْعُونَ خَزَنَةَ جَهَنَّمَ أَنِ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ فَيَقُولُونَ أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ قَالَ فَيَقُولُونَ ادْعُوا مَالِكًا فَيَدْعُونَ فَيَقُولُونَ يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ فَيُجِيبُهُمْ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ » قال الأعمش أنبئت أن بين دعائهم وبين إجابة مالك إياهم ألف عام . قال « فَيَقُولُونَ ادْعُوا رَبَّكُمْ فَلَا أَحَدَ خَيْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَيَقُولُونَ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ قَالَ فَيُجِيبُهُمُ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ قال فَعِنْدَ ذَلِكَ يَئِسُوا مِنْ كُلِّ خَيْرٍ وَعِنْدَ ذَلِكَ أَخَذُوا فِي الزَّفِيرِ وَالْحَسْرَةِ وَالْوَيْلِ »

وقال [2] أبو أمامة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى (وَيُسْقَى

---

(١) حديث ابى الدرداء يلقى على اهل النار الجوع حتى يعدل ماهم فيه من العذاب فيستغيثون بالطعام الحديث : الترمذى من رواية سمرة بن عطية عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن ابى الدرداء قال الدارمى والناس لايعرفون هذا الحديث وانما روى عن الأعمش عن سمرة بن عطية عن شهر عن ام الدرداء عن ابى الدرداء قوله

(٢) حديث أبى أمامة فى قوله تعالى ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولايكاد يسيغه قال يقرب اليه ـ الحديث : الترمذى وقال غريب

مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ [1]) قال « يُقَرَّبُ إِلَيْهِ فَيَتَكَرَّهُهُ فَإِذَا أُدْنِيَ مِنْهُ شَوَى وَجْهَهُ فَوَقَعَتْ فَرْوَةُ رَأْسِهِ فَإِذَا شَرِبَهُ قَطَّعَ أَمْعَاءَهُ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ دُبُرِهِ » يقول الله تعالى (وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ [2]) وقال تعالى (وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ [3])

فهذا طعامهم وشرابهم عند جوعهم وعطشهم . فانظر الآن إلى حيات جهنم وعقاربها ، وإلى شدة سمومها ، وعظم أشخاصها ، وفظاظة منظرها ، وقد سلطت على أهلها وأغريت بهم ، فهي لاتفتر عن النهش واللدغ ساعة واحدة . قال[1] أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ آتَاهُ اللهُ مَالاً فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثِّلَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعاً أَقْرَعَ لَهُ زَبِيبَتَانِ يُطَوِّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ يَأْخُذُ بِلَهَازِمِهِ » يعني أشداقه « فَيَقُولُ أَنَا مَالُكَ أَنَا كَنْزُكَ » ثم تلا قوله تعالى (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ [4]) الآية

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم[2] « إِنَّ فِي النَّارِ لَحَيَّاتٍ مِثْلَ أَعْنَاقِ الْبُخْتِ يَلْسَعْنَ اللَّسْعَةَ فَيَجِدُ حُمُوَّتَهَا أَرْبَعِينَ خَرِيفًا وَإِنَّ فِيهَا لَعَقَارِبَ كَالْبِغَالِ الْمُوكَفَةِ يَلْسَعْنَ اللَّسْعَةَ فَيَجِدُ حُمُوَّتَهَا أَرْبَعِينَ خَرِيفاً »

وهذه الحيات والعقرب إنما تسلط على من سلط عليه في الدنيا البخل ، وسوء الخلق ، وإيذاء الناس . ومن وقى ذلك وقى هذه الحيات فلم تمثل له

ثم تفكر بعد هذا كله في تعظيم أجسام أهل النار ، فإن الله تعالى يزيد في أجسامهم طولا وعرضا حتى يتزايد عذابهم بسببه ، فيحسون بلفح النار ، ولدغ العقارب والحيات ، من جميع أجزائها دفعة واحدة على التوالي . قال[3] أبو هريرة

---

(١) حديث أبي هريرة من آتاه مالا فلم يؤد زكاته مثل له ماله يوم القيامة شجاعا أقرع ـ الحديث : البخاري من حديث أبي هريرة ومسلم من حديث جابر نحوه

(٢) حديث ان في النار لحيات مثل أعناق البخت يلسعن اللسعة ـ الحديث : أحمد من رواية ابن لهيعة عن دراج عن عبد الله بن الحارث بن جزء

(٣) حديث أبي هريرة ضرس الكافر في النار مثل أحد ـ الحديث رواه مسلم

---

(١) ابرهيم : ١٦ ، ١٧ (٢) محمد : ١٥ (٣) الكهف : ٢٩ (٤) آل عمران : ١٨٠

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ضِرْسُ الْكَافِرِ فِي النَّارِ مِثْلُ أُحُدٍ وَغِلَظُ جِلْدِهِ مَسِيرَةُ ثَلاَثٍ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « شَفَتُهُ السُّفْلَى سَاقِطَةٌ عَلَى صَدْرِهِ وَالْعُلْيَا قَالِصَةٌ قَدْ غَطَّتْ وَجْهَهُ » وقال عليه السلام [٢] « إِنَّ الْكَافِرَ لَيَجُرُّ لِسَانَهُ فِي سِجِّينٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَتَوَاطَؤُهُ النَّاسُ » ومع عظم الأجسام كذلك تحرقهم النار مرات ، فتجدد جلودهم ولحومهم . قال الحسن فى قوله تعالى (كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا [١]) قال تأكلهم النار كل يوم سبعين ألف مرة ، كلما أكلتهم قيل لهم عودوا فيعودون كما كانوا

ثم تفكر الآن فى بكاء أهل النار وشهيقهم ، ودعائهم بالويل والثبور ، فإن ذلك يسلط عليهم فى أول إلقائهم فى النار . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣] « يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ » وقال [٤] أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يُرْسَلُ عَلَى أَهْلِ النَّارِ الْبُكَاءُ فَيَبْكُونَ حَتَّى تَنْقَطِعَ الدُّمُوعُ ثُمَّ يَبْكُونَ الدَّمَ حَتَّى يُرَى فِي وُجُوهِهِمْ كَهَيْئَةِ الْأُخْدُودِ لَوْ أُرْسِلَتْ فِيهَا السُّفُنُ لَجَرَتْ »

ومادام يؤذن لهم فى البكاء والشهيق ، والزفير ، والدعوة بالويل والثبور ، فلهم فيه مستروح . ولكنهم يمنعون أيضا من ذلك . قال محمد بن كعب : لأهل النار خمس دعوات ، يجيبهم الله عز وجل فى أربعة ، فإذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبدا : يقولون (رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ [٢]) فيقول الله تعالى مجيبا لهم (ذَلِكُمْ

---

(١) حديث شفته السفلى ساقطة على صدره والعليا قالصة قد غطت وجهه : الترمذى من حديث أبى سعيد وقال حسن صحيح غريب

(٢) حديث ان الكافر ليجر لسانه فرسخين يوم القيامة يتواطؤه الناس : الترمذى من رواية أبى المخارق عن ابن عمر وقال غريب وأبو المخارق لايعرف

(٣) حديث يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ـ الحديث : مسلم من حديث عبد الله بن مسعود

(٤) حديث أنس يرسل على اهل النار البكاء فيبكون حتى تنقطع الدموع ـ الحديث : ابن ماجه من رواية يزيد الرقاشى عن أنس والرقاشى ضعيف

---

(١) النساء : ٥٦ (٢) غافر : ١١

بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ [١]) ثم يقولون (رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا [٢]) فيجيبهم الله تعالى (أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ [٣]) فيقولون (رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ [٤]) فيجيبهم الله تعالى (أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ. فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ [٥]) ثم يقولون (رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ [٦]) فيجيبهم الله تعالى (اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ [٧]) فلا يتكلمون بعدها أبدا ، وذلك غاية شدة العذاب

قال مالك بن أنس رضي الله عنه : قال زيد بن أسلم فى قوله تعالى (سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ [٨]) قال صبروا مائة سنة ثم جزعوا مائة سنة ، ثم صبروا مائة سنة ، ثم قالوا سواء علينا أجزعنا أم صبرنا

وقال صلى الله عليه وسلم [١] « يُؤْتَى بِالْمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ كَبْشٌ أَمْلَحُ فَيُذْبَحُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَيُقَالُ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ بِلَا مَوْتٍ وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ بِلَا مَوْتٍ »

وعن الحسن قال يخرج من النار رجل بعد ألف عام ، وليتنى كنت ذلك الرجل

ورؤى الحسن رضي الله عنه جالسا فى زاوية وهو يبكى ، فقيل له لم تبكى ؟ فقال أخشى أن يطرحنى فى النار ولا يبالى

فهذه أصناف عذاب جهنم على الجملة . وتفصيل غمومها ، وأحزانها ، ومحنها وحسراتها ، لانهاية له . فأعظم الأمور عليهم مع مايلاقونه من شدة العذاب حسرة فوت نعيم الجنة ، وفوت لقاء الله تعالى ، وفوت رضاه مع علمهم بأنهم باعوا

---

(١) حديث يؤتى بالموت يوم القيامة كانه كبش أملح فيذبح : البخارى من حديث ابن عمر ومسلم من حديث أبى سعيد وقد تقدم

---

(١) غافر : ١٢ (٢) السجدة : ١٢ (٣) ابرهيم : ٤٤ (٤ ، ٥) فاطر : ٣٧
(٦ ، ٧) المؤمنون : ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ (٨) ابرهيم : ٢١

كل ذلك بثمن بخس دراهم معدودة ، إذ لم يبيعوا ذلك إلا بشهوات حقيرة فى الدنيا أياما قصيرة ، وكانت غير صافية ، بل كانت مكدرة منغصة ، فيقولون فى أنفسهم واحسرتاه ! كيف أهلكنا أنفسنا بعصيان ربنا ، وكيف لم نكلف أنفسنا الصبر أياما قلائل ، ولو صبرنا لكانت قد انقضت عنا أيامه ، وبقينا الآن فى جوار رب العالمين ، متنعمين بالرضا والرضوان ! فيا لحسرة هؤلاء وقد فاتهم مافاتهم ، وبلوا بما بلوا به ، ولم يبق معهم شيء من نعيم الدنيا ولذاتها .

ثم إنهم لو لم يشاهدوا نعيم الجنة لم تعظم حسرتهم ، لكنها تعرض عليهم ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِنَاسٍ مِنَ النَّارِ إِلَى الْجَنَّةِ حَتَّى إِذَا دَنَوْا مِنْهَا وَاسْتَنْشَقُوا رَائِحَتَهَا وَنَظَرُوا إِلَى قُصُورِهَا وَإِلَى مَا أَعَدَّ اللهُ لِأَهْلِهَا فِيهَا نُودُوا أَنِ اصْرِفُوهُمْ عَنْهَا لَا نَصِيبَ لَهُمْ فِيهَا فَيَرْجِعُونَ بِحَسْرَةٍ مَا رَجَعَ الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ بِمِثْلِهَا فَيَقُولُونَ يَا رَبَّنَا لَوْ أَدْخَلْتَنَا النَّارَ قَبْلَ أَنْ تُرِيَنَا مَا أَرَيْتَنَا مِنْ ثَوَابِكَ وَمَا أَعْدَدْتَ فِيهَا لِأَوْلِيَائِكَ كَانَ أَهْوَنَ عَلَيْنَا فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى ذَاكَ أَرَدْتُ بِكُمْ كُنْتُمْ إِذَا خَلَوْتُمْ بَارَزْتُمُونِي بِالْعَظَائِمِ وَإِذَا لَقِيتُمُ النَّاسَ لَقِيتُمُوهُمْ مُخْبِتِينَ تُرَاءُونَ النَّاسَ بِخِلَافِ مَا تُعْطُونِي مِنْ قُلُوبِكُمْ هِبْتُمُ النَّاسَ وَلَمْ تَهَابُونِي وَأَجْلَلْتُمُ النَّاسَ وَلَمْ تُجِلُّونِي وَتَرَكْتُمْ لِلنَّاسِ وَلَمْ تَتْرُكُوا لِي فَالْيَوْمَ أُذِيقُكُمُ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ مَعَ مَا حَرَمْتُكُمْ مِنَ الثَّوَابِ الْمُقِيمِ »

قال أحمد بن حرب : إن أحدنا يؤثر الظل على الشمس ، ثم لا يؤثر الجنة على النار !

وقال عيسى عليه السلام : كم من جسد صحيح ، ووجه صبيح ، ولسان فصيح غداً بين أطباق النار يصيح

وقال داود : إلهى لاصبر لى على حر شمسك ، فكيف صبرى على حر نارك !

---

(١) حديث يؤتى يوم القيامة بناس من النار الى الجنة حتى اذا دنوا منها واستنشقوا روائحها ـ الحديث : رويناه فى الأربعين لأبى هدبة عن أنس وأبو هدبة ابراهيم بن هدبة هالك

ولا صبر لى على صوت رحمتك ، فكيف على صوت عذابك !

فانظر يامسكين فى هذه الأهوال . واعلم أن الله تعالى خلق النار بأهوالها وخلق لها أهلا لايزيدون ولاينقصون ، وأن هذا أمر قد قضي وفرغ منه . قال الله تعالى (وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ [1]) ولعمرى الإشارة به إلى يوم القيامة ؛ بل فى أزل الأزل ، ولكن أظهر يوم القيامة ماسبق به القضاء

فالعجب منك حيث تضحك وتلهو ، وتشتغل بمحقرات الدنيا ، ولست تدرى أن القضاء بماذا سبق فى حقك

فإن قلت : فليت شعرى ماذا موردى ؟ وإلى ماذا مآلى ومرجعى ؟ وما الذى سبق به القضاء فى حقى ؟ فلك علامة تستأنس بها ، وتصدق رجاءك بسببها . وهي أن تنظر إلى أحوالك وأعمالك ، فإن كُلا ميسر لما خلق له . فإن كان قد يسّر لك سبيل الخير فأبشر فإنك مبعد عن النار . وإن كنت لاتقصد خيرا إلا وتحيط بك العوائق فتدفعه ، ولاتقصد شرا إلا ويتيسر لك أسبابه ، فاعلم أنك مقضي عليك ، فإن دلالة هذا على العاقبة كدلالة المطر على النبات ، ودلالة الدخان على النار ، فقد قال الله تعالى (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ [2]) فاعرض نفسك على الآيتين ، وقد عرفت مستقرك من الدارين ، والله أعلم

القول

فى صفة الجنة وأصناف نعيمها

اعلم أن تلك الدار التى عرفت همومها وغمومها ، تقابلها دار أخرى ، فتأمل نعيمها وسرورها ، فإن من بعد من أحدهما استقر لامحالة فى الأخرى . فاستثر الخوف من قلبك بطول الفكر فى أهوال الجحيم ، واستثر الرجاء بطول الفكر

(1) مريم : ٣٩ (2) الانفطار : ١٣ ، ١٤

فى النعيم المقيم الموعود لأهل الجنان ، وسق نفسك بسوط الخوف ، وقُدها بزمام الرجاء إلى الصراط المستقيم ، فبذلك تنال الملك العظيم : وتسلم من العذاب الأليم

فتفكر فى أهل الجنة ، وفى وجوههم نضرة النعيم ، يُسقون من رحيق مختوم ، جالسين على منابر الياقوت الأحمر ، فى خيام من اللؤلؤ الرطب الأبيض فيها بسط من العبقري الأخضر ، متكئين على أرائك ، منصوبة على أطراف أنهار مطردة بالخمر والعسل ، محفوفة بالغلمان والولدان ، مزينة بالحور العين من الخيرات الحسان ، كأنهن الياقوت والمرجان ، لم يطمثهنّ إنس قبلهم ولا جانّ ، يمشين فى درجات الجنان ، إذا اختالت إحداهنّ فى مشيها حمل أعطافها سبعون ألفاً من الولدان ، عليها من طرائف الحرير الأبيض ماتتحير فيه الأبصار ، مكللات بالتيجان المرصّعة باللؤلؤ والمرجان ، شكلات ، غنجات ، عطرات ، آمنات من الهرم والبؤس ، مقصورات فى الخيام ، فى قصور من الياقوت بنيت وسط روضات الجنان ، قاصرات الطرف عين ، ثم يطاف عليهم وعليهن بأكواب وأباريق وكأس من معين ، بيضاء لذة للشاربين . ويطوف عليهم خدام وولدان كأمثال اللؤلؤ المكنون ، جزاء بما كانوا يعملون ، فى مقام أمين ، فى جنات وعيون ، فى جنات ونهر ، فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، ينظرون فيها إلى وجه الملك الكريم ، وقد أشرقت فى وجوههم نضرة النعيم ، لايرهقهم قتر ولا ذلة ، بل عباد مكرمون وبأنواع التحف من ربهم يتعاهدون ، فهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون ، لايخافون فيها ولا يحزنون ، وهم من ريب المنون آمنون ، فهم فيها يتنعمون ، ويأكلون من أطعمتها ، ويشربون من أنهارها لبنا وخمرا وعسلا ، فى أنهار أراضيها من فضة ، وحصباؤها مرجان ، وعلى أرض ترابها مسك أذفر ، ونباتها زعفران ، ويمطرون من سحاب فيها من ماء النسرين ، على كثبان الكافور ، ويؤتون بأكواب وأي أكواب ، بأكواب من فضة مرصعة بالدر والياقوت والمرجان ، كوب فيه من الرحيق المختوم ، ممزوج به السلسبيل العذب ، كوب يشرق نوره من صفاء بجوهره يبدو الشراب من ورائه برقته وحمرته ، لم يصنعه آدمي فيقصر فى تسوية صنعته ،

وتحسين صناعته ، فى كف خادم يحكى ضياء وجهه الشمس فى إشراقها ؛ ولكن من أين للشمس حلاوة مثل حلاوة صورته ، وحسن أصداغه ، وملاحة أحداقه

فيا عجبا لمن يؤمن بدار هـذه صفتها ، ويوقن بأنه لايموت أهلها ، ولا تحل الفجائع بمن نزل بفنائها ، ولا تنظر الأحداث بعين التغيير إلى أهلها ، كيف يأنس بدار قد أذن الله فى خرابها ، ويتهنأ بعيش دونها ! والله لو لم يكن فيها إلا سلامة الأبدان ، مع الأمن من الموت ، والجوع ، والعطش ، وسائر أصناف الحدثان لكان جديرا بأن يهجر الدنيا بسببها ، وأن لايؤثر عليها ماالتصرّم والتنغّص من ضرورته . كيف وأهلها ملوك آمنون ، وفى أنواع السرور ممتّعون ، لهم فيها كل مايشتهون ، وهم فى كل يوم بفناء العرش يحضرون ، وإلى وجه الله الكريم ينظرون ، وينالون بالنظر من الله مالاينظرون معه إلى سائر نعيم الجنان ولا يلتفتون ، وهم على الدوام بين أصناف هذه النعم يترددون؛ وهم من زوالها آمنون!

قال [١] أبو هريرة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يُنَادِى مُنَادٍ يَاأَهْلَ الْجَنَّةِ إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَداً وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبَداً وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَداً وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَداً فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ (وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [١])

ومهما أردت أن تعرف صفة الجنة فاقرأ القرءان ، فليس وراء بيان الله تعالى بيان . واقرأ من قوله تعالى (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ [٢]) إلى آخر سورة الرحمن . واقرأ سورة الواقعة ، وغيرها من السور . وإن أردت أن تعرف تفصيل صفاتها من الأخبار فتأمل الآن تفصيلها ، بعد أن اطلعت على جملتها وتأمل أوّلا :

﴿ القول فى صفة الجنة ﴾

(١) حديث أبي هريرة ينادى منادان لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا ـ الحديث : مسلم من حديث أبي هرير وأبي سعيد

---

(١) الاعراف : ٤٣ (٢) الرحمن : ٤٦

عدد الجنان . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ [1]) قال [1] « جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ »

ثم انظر إلى أبواب الجنة فإنها كثيرة بحسب أصول الطاعات ، كما أن أبواب النار بحسب أصول المعاصي . قال [2] أبوهريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ مِنْ مَالِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ دُعِيَ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ كُلِّهَا وَلِلْجَنَّةِ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابٍ فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصِّيَامِ وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ » فقال أبو بكر رضي الله عنه : والله ما على أحد من ضرورة من أيها دعي فهل يدعى أحد منها كلها ؟ قال « نَعَمْ وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ »

وعن عاصم بن ضمرة ، عن علي كرم الله وجهه ، أنه ذكر النار فعظم أمرها ذكرا لا أحفظه ، ثم قال (وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا [2]) حتى إذا انتهوا إلى باب من أبوابها ، وجدوا عنده شجرة يخرج من تحت ساقها عينان تجريان ، فعمدوا إلى إحداهما كما أمروا به ، فشربوا منها ، فأذهبت ما في بطونهم من أذى أو بأس ثم عمدوا إلى الأخرى ، فتطهروا منها ، فجرت عليهم نضرة النعيم ، فلم تتغير أشعارهم بعدها أبدا ، ولا تشعث رؤسهم ، كأنما دهنوا بالدهان ثم انتهوا إلى الجنة ، فقال لهم خزنتها : سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين . ثم تلقاهم الولدان ، يطيفون بهم كما تطيف ولدان أهل الدنيا بالحبيب يقدم عليهم من غيبة ، يقولون له : أبشر أعد الله لك من الكرامة كذا . قال فينطلق غلام من أولئك الولدان إلى بعض

---

(١) حديث جنتان من فضة آنيتهما ومافيهما وجنتان من ذهب آنيتهما ومافيهما ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبي موسى

(٢) حديث أبي هريرة من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله دعي من أبواب الجنة ـ الحديث : متفق عليه

---

(١) الرحمن : ٤٦ (٢) الزمر : ٧٣

أزواجه من الحور العين ، فيقول قد جاء فلان باسمه الذى كان يدعى به فى الدنيا فتقول أنت رأيته ؟ فيقول أنا رأيته وهو بأثرى . فيستخفها الفرح حتى تقوم إلى أسكفة بابها ، فإذا انتهى إلى منزله نظر إلى أساس بنيانه ، فإذا جندل اللؤلؤ فوقه صرح أحمر ، وأخضر ، وأصفر ، من كل لون . ثم يرفع رأسه فينظر إلى سقفه ، فإذا مثل البرق . ولولا أن الله تعالى قدره لألمّ أن يذهب بصره ، ثم يطأطىء رأسه ، فإذا أزواجه ، وأكواب موضوعة ، ونمارق مصفوفة ، وزرابي مبثوثة . ثم اتكأ فقال : الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، ثم ينادى مناد : تحيون فلا تموتون أبدا ، وتقيمون فلا تظعنون أبدا ، وتصحون فلا تمرضون أبدا .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « آتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَابَ الْجَنَّةِ فَأَسْتَفْتِحُ فَيَقُولُ الْخَازِنُ مَنْ أَنْتَ ؟ فَأَقُولُ مُحَمَّدٌ فَيَقُولُ بِكَ أُمِرْتُ أَنْ لَا أَفْتَحَ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ » . ثم تأمل الآن فى غرف الجنة ، واختلاف درجات العلو فيها ، فإن الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا . وكما أن بين الناس فى الطاعات الظاهرة ، والأخلاق الباطنة المحمودة تفاوتا ظاهرا ، فكذلك فيما يجازون به تفاوت ظاهر . فإن كنت تطلب أعلى الدرجات فاجتهد أن لا يسبقك أحد بطاعة الله تعالى ، فقد أمرك الله بالمسابقة والمنافسة فيها ، فقال تعالى (سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ [١]) وقال تعالى (وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ [٢]) .

والعجب أنه لو تقدم عليك أقرانك أو جيرانك بزيادة درهم ، أو بعلو بناء ، ثقل عليك ذلك ، وضاق به صدرك ، وتنغّص بسبب الحسد عيشك . وأحسن أحوالك أن تستقر فى الجنة ، وأنت لا تسلم فيها من أقوام يسبقونك بلطائف لا توازيها الدنيا بحذافيرها . فقد قال [٢] أبو سعيد الخدرى : قال رسول الله

(١) حديث آتى يوم القيامة باب الجنة فأستفتح فيقول الخازن من أنت فأقول محمد ـ الحديث : مسلم من حديث أنس

(٢) حديث أبى سعيد ان أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف فوقهم كما تراءون الكواكب ـ الحديث :

(١) الحديد : ٢١ (٢) المطففين : ٢٦

صلى الله عليه وسلم « إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ فَوْقَهُمْ كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الْغَائِرَ فِي الْأُفُقِ مِنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ » قالوا يارسول الله تلك منازل الأنبياء لايبلغها غيرهم . قال « بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ رِجَالٌ آمَنُوا بِاللهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ »

وقال أيضا [١] « إِنَّ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى لَيَرَاهُمْ مَنْ تَحْتَهُمْ كَمَا تَرَوْنَ النَّجْمَ الطَّالِعَ فِي أُفُقٍ مِنْ آفَاقِ السَّمَاءِ وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ مِنْهُمْ وَأَنْعِمَا »

وقال [٢] جابر : قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَلاَ أُحَدِّثُكُمْ بِغُرَفِ الْجَنَّةِ » قال قلت بلى يارسول الله صلى الله عليك ، بأبينا أنت وأمنا . قال « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرَفاً مِنْ أَصْنَافِ الْجَوْهَرِ كُلِّهِ يُرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا وَفِيهَا مِنَ النَّعِيمِ وَاللَّذَّاتِ وَالسُّرُورِ مَالاَعَيْنٌ رَأَتْ وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ » قال قلت يارسول الله ، ولمن هذه الغرف ؟ قال « لِمَنْ أَفْشَى السَّلاَمَ وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ وَأَدَامَ الصِّيَامَ وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ » قال قلنا يارسول الله ومن يطيق ذلك ؟ قال « أُمَّتِي تُطِيقُ ذَلِكَ وَسَأُخْبِرُكُمْ عَنْ ذَلِكَ مَنْ لَقِيَ أَخَاهُ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ أَوْ رَدَّ عَلَيْهِ فَقَدْ أَفْشَى السَّلاَمَ وَمَنْ أَطْعَمَ أَهْلَهُ وَعِيَالَهُ مِنَ الطَّعَامِ حَتَّى يُشْبِعَهُمْ فَقَدْ أَطْعَمَ الطَّعَامَ وَمَنْ صَامَ شَهْرَ رَمَضَانَ وَمِنْ كُلِّ شَهْرٍ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ فَقَدْ أَدَامَ الصِّيَامَ وَمَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ الْآخِرَةَ وَصَلَّى الْغَدَاةَ فِي جَمَاعَةٍ فَقَدْ صَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ » يعنى اليهود والنصارى والمجوس

[٣] وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله (وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ

متفق عليه وقد تقدم

(١) حديث ان أهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما يراه النجم الطالع رواه الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث أبى سعيد

(٢) حديث جابر ألا أحدثكم بغرف الجنة قلت يارسول الله بأبينا أنت وأمنا ان فى الجنة غرفا من أصناف الجوهر ـ الحديث : أبو نعيم من رواية الحسن عن جابر

(٣) حديث سئل عن قوله تعالى ومساكن طيبة فى جنات عدن قال قصور من لؤلؤ ـ الحديث : أبو الشيخ ابن حيان فى كتاب العظمة والآجرى فى كتاب النصيحة من رواية الحسن

عَدْنٍ [١] » قال « قُصُورٌ مِنْ لُؤْلُؤٍ فِى كُلِّ قَصْرٍ سَبْعُونَ دَارًا مِنْ يَاقُوتٍ أَحْمَرَ فِي كُلِّ دَارٍ سَبْعُونَ بَيْتًا مِنْ زُمُرُّدٍ أَخْضَرَ فِي كُلِّ بَيْتٍ سَرِيرٌ عَلَى كُلِّ سَرِيرٍ سَبْعُونَ فِرَاشًا مِنْ كُلِّ لَوْنٍ عَلَى كُلِّ فِرَاشٍ زَوْجَةٌ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ فِي كُلِّ بَيْتٍ سَبْعُونَ مَائِدَةً عَلَى كُلِّ مَائِدَةٍ سَبْعُونَ لَوْنًا مِنَ الطَّعَامِ فِي كُلِّ بَيْتٍ سَبْعُونَ وَصِيفَةً وَيُعْطَى الْمُؤْمِنُ فِي كُلِّ غَدَاةٍ » يعنى من القوة « مَا يَأْتِي عَلَى ذَلِكَ أَجْمَعَ »

صفة

حائط الجنة وأراضيها وأشجارها وأنهارها

تأمل فى صورة الجنة ، وتفكر فى غبطة سكانها ، وفى حسرة من حرمها لقناعته بالدنيا عوضا عنها . فقد قال [١] أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ حَائِطَ الْجَنَّةِ لَبِنَةٌ مِنْ فِضَّةٍ وَلَبِنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ تُرَابُهَا زَعْفَرَانٌ وَطِينُهَا مِسْكٌ »

[٢] وسئل صلى الله عليه وسلم عن تربة الجنة فقال « دَرْمَكَةٌ بَيْضَاءُ مِسْكٌ خَالِصٌ »

وقال [٣] أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْقِيَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الْخَمْرَ فِي الْآخِرَةِ فَلْيَتْرُكْهَا فِي الدُّنْيَا وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكْسُوَهُ

ابن خليفة عن الحسن قال سألت أبا هريرة وعمران بن حصين فى هذه الآية ولايصح والحسن بن خليفة لم يعرفه ابن ابى حاتم والحسن البصرى لم يسمع من أبى هريرة على قول الجمهور

(١) حديث أبى هريرة ان حائط الجنة لبنة من فضة ولبنة من ذهب ترابها زعفران وطينها مسك الترمذى بلفظ وبلاطها المسك وقال ليس اسناده بذلك القوى وليس عندى بمتصل ورواه البزار من حديث أبى سعيد باسناد فيه مقال ورواه موقوفا عليه باسناد صحيح

(٢) حديث سئل عن تربة الجنة فقال درمكة بيضاء مسك خالص: مسلم من حديث أبى سعيد أن ابن صياد سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك فذكره

(٣) حديث أبى هريرة من سره أن يسقيه الله الخمر فى الآخرة فليتركها فى الدنيا ومن سره أن يكسوه الله الحرير فليتركه فى الدنيا : الطبرانى فى الأوسط باسناد حسن وللنسائى باسناد صحيح من لبس الحرير فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة ومن شرب الخمر فى الدنيا لم يشربها فى الآخرة

---

(١) الصف : ١٢

اللهُ الحَرِيرَ فِي الآخِرَةِ فَلْيَتْرُكْهُ فِي الدُّنْيَا»[1] أنهارُ الجنةِ تتفجرُ من تحتِ تِلالِ أَوْ تحتِ جِبَالِ المِسْكِ»[2] وَلَوْ كَانَ أَدْنَى أَهْلِ الجَنَّةِ حِلْيَةً عَدَلَتْ بِحِلْيَةِ أَهْلِ الدُّنْيَا جَمِيعِهَا لَكَانَ مَا يُحَلِّيهِ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ فِي الآخِرَةِ أَفْضَلَ مِنْ حِلْيَةِ الدُّنْيَا جَمِيعِهَا

وقال[3] أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ فِي الجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لاَ يَقْطَعُهَا اقْرَؤُا إِنْ شِئْتُمْ (وَظِلٍّ مَمْدُودٍ[1])

وقال[4] أبو أمامة . كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : إن الله عز وجل ينفعنا بالأعراب ومسائلهم . أقبل أعرابي فقال . يارسول الله قد ذكر الله في القرءان شجرة مؤذية ، وما كنت أدرى أن في الجنة شجرة تؤذي صاحبها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما هِيَ ؟» قال السدر ، فإن لها شوكا . فقال «قَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى (فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ[2]) يَخْضُدُ اللهُ شَوْكَهُ فَيَجْعَلُ مَكَانَ كُلِّ شَوْكَةٍ ثَمَرَةً ثُمَّ تَنْفَتِقُ الثَّمَرَةُ مِنْهَا عَنِ اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ لَوْنًا مِنَ الطَّعَامِ مَا مِنْهَا لَوْنٌ يُشْبِهُ الآخَرَ »

وقال جرير بن عبد الله . نزلنا الصفاح ، فإذا رجل نائم تحت شجرة قد كادت الشمس أن تبلغه ، فقلت للغلام انطلق بهذا النطع فأظله . فانطلق فأظله فلما استيقظ فإذا هو سلمان ، فأتيته أسلم عليه . فقال . ياجرير ، تواضع لله ، فإن

---

(١) حديث أنهار الجنة تتفجر من تحت تلال أو تحت جبال المسك: العقيلي في الضعفاء من حديث أبي هريرة

(٢) حديث لوكان أدنى أهل الجنة حلية عدلت بحلية أهل الدنيا جميعها لكان مايحليه الله به في الآخرة أفضل من حلية أهل الدنيا جميعها :الطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة باسناد حسن

(٣) حديث ان في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لايقطعها ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة

(٤) حديث أبي أمامة أقبل أعرابي فقال يارسول الله قد ذكر الله في القرءان شجرة مؤذية قال ماهي قال السدر ـ الحديث : ابن المبارك في الزهد عن صفوان بن عمرو عن سليم بن عامر مرسلا من غير ذكر لأبي امامة

---

(١) الواقعة : ٣٠ (٢) الواقعة : ٢٨

من تواضع لله فى الدنيا رفعه الله يوم القيامة . هل تدرى ما الظلمات يوم القيامة ؟ قلت لا أدرى . قال ظلم الناس بعضهم بعضا . ثم أخذ عويدا لا أكاد أراه من صغره فقال . ياجرير ، لو طلبت مثل هذا فى الجنة لم تجده . قلت ياأبا عبد الله ، فأين النخل والشجر ؟ قال أصولها اللؤلؤ والذهب ، وأعلاها الثمر

صفة

لباس أهل الجنة وفرشهم وسررهم وأرائكهم وخيامهم

قال الله تعالى (يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ [1]) والآيات فى ذلك كثيرة . وإنما تفصيله فى الأخبار ، فقد روى [1] أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « مَنْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ يَنْعَمْ لاَ يَبْأَسُ لاَ تَبْلَى ثِيَابُهُ وَلاَ يَفْنَى شَبَابُهُ فِي الْجَنَّةِ مَالاَ عَيْنٌ رَأَتْ وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ »

[2] وقال رجل . يارسول الله ، أخبرنا عن ثياب أهل الجنة ، أتخلق تخلق ؟ أم نسج تنسج ؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وضحك بعض القوم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مِمَّ تَضْحَكُونَ مِنْ جَاهِلٍ سَأَلَ عَالِماً ! » ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بَلْ يَنْشَقُّ عَنْهَا ثَمَرُ الْجَنَّةِ مَرَّتَيْنِ »

وقال [3] أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ تَلِجُ الْجَنَّةَ صُورَتُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لاَيَبْصُقُونَ فِيهَا

---

(١) حديث أبى هريرة من يدخل الجنة ينعم ولايبأس لاتبلى ثيابه ـ الحديث : رواه مسلم دون قوله فى الجنة مالاعين رأت الخ فاتفق عليه الشيخان من حديث آخر لأبى هريرة قال الله تعالى أعددت لعبادى الصالحين مالاعين رأت ـ الحديث :

(٢) حديث قال رجل يارسول الله أخبرنا عن ثياب أهل الجنة أتخلق خلقا أم تنسج نسجا ـ الحديث : النسائى من حديث عبد الله بن عمرو

(٣) حديث أبى هريرة أول زمرة تدخل الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر ـ الحديث متفق عليه

---

(١) الحج : ٢٣

وَلَا يَتَمَخَّطُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ آنِيَتُهُمْ وَأَمْشَاطُهُمْ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ يُرَى مُخُّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ مِنَ الْحُسْنِ لَااخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغُضَ قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبٍ وَاحِدٍ يُسَبِّحُونَ اللهَ بُكْرَةً وَعَشِيَّةً » وفى رواية ، « عَلَى كُلِّ زَوْجَةٍ سَبْعُونَ حُلَّةً »

وقال صلى الله عليه وسلم [١] فى قوله تعالى (يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ [١]) قال « إِنَّ عَلَيْهِمُ التِّيجَانَ إِنَّ أَدْنَى لُؤْلُؤَةٍ فِيهَا تُضِيءُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ »

وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « الْخَيْمَةُ دُرَّةٌ مُجَوَّفَةٌ طُولُهَا فِي السَّمَاءِ سِتُّونَ مِيلاً فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْهَا لِلْمُؤْمِنِ أَهْلٌ لَا يَرَاهُمُ الْآخَرُونَ » رواه البخارى فى الصحيح . قال ابن عباس . الخيمة درة مجوفة ، فرسخ فى فرسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب

وقال [٣] أبو سعيد الخدرى : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى (وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ [٢]) قال « مَا بَيْنَ الْفِرَاشَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ »

صفة

طعام أهل الجنة

بيان طعام أهل الجنة مذكور فى القرءان ، من الفواكه ، والطيور السمان ، والمنّ ، والسلوى ، والعسل ، واللبن ، وأصناف كثيرة لاتحصى . قال الله تعالى

---

(١) حديث فى قوله تعالى يحلون فيها من أساور من ذهب قال ان عليهم التيجان أدنى لؤلؤة فيها تضىء مابين المشرق والمغرب : الترمذى من حديث أبى سعيد دون ذكر الآية وقال لانعرفه الا من حديث رشد بن سعد

(٢) حديث الخيمة درة مجوفة طولها فى السماء ستون ميلا ـ الحديث : عزاه المصنف للبخارى وهو متفق عليه من حديث أبى موسى الاشعرى

(٣) حديث أبى سعيد فى قوله تعالى وفرش مرفوعة قال مابين الفراشين كمابين السماء والارض: الترمذى بلفظ ارتفاعها لكمابين السماء والارض خمسمائة سنة وقال غريب لانعرفه الا من حديث رشد بن سعد

---

(١) الحج : ٢٣ (٢) الواقعة : ٣٤

(كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا [١])

وذكر الله تعالى شراب أهل الجنة في مواضع كثيرة. وقد قال [١] ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم: كنت قائماً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاءه حبر من أحبار اليهود، فذكر أسئلة إلى أن قال. فمن أول إجازة؟ يعني على الصراط. فقال « فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ » قال اليهودي. فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ قال « زِيَادَةُ كَبِدِ الْحُوتِ » قال فما غداؤهم على أثرها؟ قال « يُنْحَرُ لَهُمْ ثَوْرُ الْجَنَّةِ الَّذِي كَانَ يَأْكُلُ فِي أَطْرَافِهَا » قال فما شرابهم عليه؟ قال « مِنْ عَيْنٍ فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً » فقال صدقت

وقال [٢] زيدبن أرقم: جاء رجل من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال ياأبا القاسم، ألست تزعم أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون؟ وقال لأصحابه. إن أقر لي بها خصمته. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ أَحَدَهُمْ لَيُعْطَى قُوَّةَ مِائَةِ رَجُلٍ فِي الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ وَالْجِمَاعِ » فقال اليهودي: فإن الذي يأكل ويشرب يكون له الحاجة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حَاجَتُهُمْ عَرَقٌ يَفِيضُ مِنْ جُلُودِهِمْ مِثْلُ الْمِسْكِ فَإِذَا الْبَطْنُ قَدْ ضَمَرَ »

وقال [٣] ابن مسعود. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّكَ لَتَنْظُرُ إِلَى الطَّيْرِ فِي الْجَنَّةِ فَتَشْتَهِيهِ فَيَخِرُّ بَيْنَ يَدَيْكَ مَشْوِيًّا »

---

(١) حديث ثوبان جاء حبر من أحبار اليهود فذكر سؤاله إلى أن قال فمن أول الناس إجازة يعني على الصراط فقال فقراء المهاجرين قال اليهودي فما تحفتهم حين يدخلون الجنة فقال زيادة كبد النون الحديث: رواه مسلم بزيادة في أوله وآخره.

(٢) حديث زيدبن أرقم جاء رجل من اليهود فقال ياأبا القاسم ألست تزعم أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ـ الحديث: وفيه حاجتهم عرق يفيض من جلودهم مثل المسك النسائي في الكبرى باسناد صحيح

(٣) حديث ابن مسعود انك لتنظر الى الطير في الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشويا: البزار باسناد فيه ضعيف

---

(١) البقرة: ٢٥

وقال [١] حذيفة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ طَيْرًا أَمْثَالَ الْبَخَاتِيِّ » قال أبو بكر رضي الله عنه : إنها لناعمة يارسول الله . قال « أَنْعَمُ مِنْهَا مَنْ يَأْكُلُهَا وَأَنْتَ مِمَّنْ يَأْكُلُهَا يَاأَبَا بَكْرٍ »

وقال عبد الله بن عمرو في قوله تعالى (يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ [١]) قال : يطاف عليهم بسبعين صحفة من ذهب ، كل صحفة فيها لون ليس في الأخرى مثله

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه (وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ [٢]) قال : يمزج لأصحاب اليمين ، ويشربه المقربون صرفا

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه ، في قوله تعالى (خِتَامُهُ مِسْكٌ [٣]) قال : هو شراب أبيض مثل الفضة ، يختمون به آخر شرابهم ، لو أن رجلا من أهل الدنيا أدخل يده فيه ثم أخرجها لم يبق ذو روح إلا وجد ريح طيبها

صفة

الحور العين والولدان

قد تكرر في القرآن وصفهم ، ووردت الأخبار بزيادة شرح فيه . روى أنس رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال [٢] « غَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا وَلَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ أَوْ مَوْضِعُ قَدَمِهِ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى الْأَرْضِ لَأَضَاءَتْ وَلَمَلَأَتْ مَا بَيْنَهُمَا رَائِحَةً وَلَنَصِيفُهَا عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا بِمَا فِيهَا » يعني الخمار

---

(١) حديث حذيفة ان في الجنة طيرا أمثال البخاتي ــ الحديث : غريب من حديث حذيفة ولأحمد من حديث أنس باسناد صحيح ان طير الجنة كامثال البخت ترعى في شجر الجنة قال أبو بكر يارسول الله ان هذه الطير ناعمة قال أكلتها أنعم منها قالها ثلاثا وانى أرجو أن تكون ممن يأكل منها وهو عند الترمذي من وجه آخر ذكر فيه نهر الكوثر وقال فيه طير أعناقها كأعناق الجزر قال عمر ان هذه لناعمة ــ الحديث وليس فيه ذكر لأبي بكر وقال حسن

(٢) حديث غدوة في سبيل أو روحة خير من الدنيا ومافيها ــ الحديث : البخاري من حديث أنس

---

(١) الزخرف : ٧١ (٢) المطففين : ٢٧ (٣) المطففين : ٢٦

وقال [١] أبو سعيد الخدري : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى (كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ [١]) قال « يَنْظُرُ إِلَى وَجْهِهَا فِي خِدْرِهَا أَصْفَى مِنَ الْمِرْآةِ وَإِنَّ أَدْنَى لُؤْلُؤَةٍ عَلَيْهَا لَتُضِيءُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَإِنَّهُ يَكُونُ عَلَيْهَا سَبْعُونَ ثَوْبًا يَنْفُذُهَا بَصَرُهُ حَتَّى يَرَى مُخَّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ »

وقال [٢] أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَمَّا أُسْرِيَ بِي دَخَلْتُ الْجَنَّةَ مَوْضِعًا يُسَمَّى الْبَيْدَخَ عَلَيْهِ خِيَامُ اللُّؤْلُؤِ وَالزَّبَرْجَدِ الْأَخْضَرِ وَالْيَاقُوتِ الْأَحْمَرِ فَقُلْنَ السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ فَقُلْتُ يَا جِبْرِيلُ مَا هَذَا النِّدَاءُ ؟ قَالَ هَؤُلَاءِ الْمَقْصُورَاتُ فِي الْخِيَامِ اسْتَأْذَنَّ رَبَّهُنَّ فِي السَّلَامِ عَلَيْكَ فَأَذِنَ لَهُنَّ فَطَفِقْنَ يَقُلْنَ نَحْنُ الرَّاضِيَاتُ فَلَا نَسْخَطُ أَبَدًا وَنَحْنُ الْخَالِدَاتُ فَلَا نَظْعَنُ أَبَدًا » وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى (حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ [٢])

وقال مجاهد في قوله تعالى (وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ [٣]) قال : من الحيض ، والغائط ، والبول ، والبصاق ، والنخامة ، والمنى ، والولد

---

(١) حديث أبي سعيد الخدري في قوله تعالى كأنهن الياقوت والمرجان قال تنظر إلى وجهها في خدرها أصفى من المرآة ـ الحديث : أبو يعلى من رواية أبي الهيثم عن أبي سعيد باسناد حسن ورواه أحمد وفيه ابن لهيعة ورواه ابن المبارك في الزهد والرقائق من رواية أبي الهيثم عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلا دون ذكر أبي سعيد وللترمذي من حديث ابن مسعود ان المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض مخ ساقها من وراء سبعين حلة ـ الحديث : ورواه عنه موقوفا قال وهذا أصح وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة لكل امرئ منهم زوجتان اثنتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم

(٢) حديث أنس لما أسرى بي دخلت في الجنة موضعا يسمى البيدخ عليه خيام اللؤلؤ والزبرجد الأخضر والياقوت الأحمر ـ الحديث : وفيه ان جبريل قال هؤلاء المقصورات في الخيام وفيه فطفقن يقلن نحن الراضيات فلا نسخط : لم أجده هكذا بتمامه وللترمذي من حديث على ان في الجنة لمجتمعا للحور العين يرفعن أصواتا لم تسمع الخلائق مثلها يقلن نحن الخالدات فلا نبيد ونحن الناعمات فلا نبأس ونحن الراضيات فلا نسخط طوبى لمن كان لنا وكنا له وقال غريب ولأبي الشيخ في كتاب العظمة من حديث ابن أبي أوفى بسند ضعيف يجتمعن في كل سبعة أيام فيقلن باصوات ـ الحديث :

---

(١) الرحمن : ٥٨ (٢) الرحمن : ٧٢ (٣) آل عمران : ١٥

وقال الأوزاعي (فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ [١]) قال : شغلهم افتضاض الأبكار

[١] وقال رجل : يارسول الله ، أيباضع أهل الجنة ؟ قال « يُعْطَى الرَّجُلُ مِنْهُمْ مِنَ الْقُوَّةِ فِي الْيَوْمِ الْوَاحِدِ أَفْضَلَ مِنْ سَبْعِينَ مِنْكُمْ »

وقال عبد الله بن عمر : إن أدنى أهل الجنة منزلة من يسعى معه ألف خادم كل خادم على عمل ليس عليه صاحبه

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] « إِنَّ الرَّجُلَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ لَيَتَزَوَّجُ خَمْسَمِائَةِ حَوْرَاءَ وَأَرْبَعَةَ آلَافِ بِكْرٍ وَثَمَانِيَةَ آلَافِ ثَيِّبٍ يُعَانِقُ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ مِقْدَارَ عُمُرِهِ فِي الدُّنْيَا »

وقال النبي صلى الله عليه وسلم [٣] « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ سُوقًا مَا فِيهَا بَيْعٌ وَلَا شِرَاءٌ إِلَّا الصُّوَرُ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ فَإِذَا اشْتَهَى الرَّجُلُ صُورَةً دَخَلَ فِيهَا وَإِنَّ فِيهَا لَمُجْتَمَعَ الْحُورِ الْعِينِ يَرْفَعْنَ بِأَصْوَاتٍ لَمْ تَسْمَعِ الْخَلَائِقُ مِثْلَهَا يَقُلْنَ نَحْنُ الْخَالِدَاتُ فَلَا نَبِيدُ وَنَحْنُ النَّاعِمَاتُ فَلَا نَبْأَسُ وَنَحْنُ الرَّاضِيَاتُ فَلَا نَسْخَطُ فَطُوبَى لِمَنْ كَانَ لَنَا وَكُنَّا لَهُ »

وقال [٤] أنس رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ الْحُورَ فِي الْجَنَّةِ يَتَغَنَّيْنَ نَحْنُ الْحُورُ الْحِسَانُ خُبِّئْنَا لِأَزْوَاجٍ كِرَامٍ »

---

(١) حديث قال رجل يارسول الله أيباضع أهل الجنة قال يعطى الرجل منهم من القوة فى اليوم الواحد أفضل من سبعين منكم : الترمذى وصححه وابن حبان من حديث أنس يعطى المؤمن فى الجنة قوة كذا وكذا من الجماع فقيل أويطيق ذلك قال يعطى قوة مائة

(٢) حديث ان الرجل من أهل الجنة ليتزوج خمسمائة حوراء وأربعة آلاف بكر وثمانية آلاف ثيب يعانق كل واحدة منهن مقدار عمره فى الدنيا : أبو الشيخ فى طبقات المحدثين وفى كتاب العظمة من حديث ابن أبى أوفى الا أنه قال مائة حوراء ولم يذكر فيه عناقه لهن واسناده ضعيف وتقدم قبله بحديث

(٣) حديث ان فى الجنة سوقا مافيها بيع ولاشراء الا الصور من الرجال والنساء ـ الحديث : الترمذى فرقه فى موضعين من حديث على وقد تقدم بعضه قبل هذا بحديثين

(٤) حديث أنس ان الحور فى الجنة يتغنين فيقلن نحن الحور الحسان خبئنا لأزواج كرام : الطبرانى فى الأوسط وفيه الحسن بن داود المنكدرى قال البخارى يتكلمون فيه وقال ابن عدي أرجو أنه لا بأس به

---

(١) يس : ٥٥

وقال يحي بن كثير في قوله تعالى (فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ [١]) قال السماع في الجنة

وقال [١] أبو أمامة الباهلي : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَامِنْ عَبْدٍ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا وَيَجْلِسُ عِنْدَ رَأْسِهِ وَعِنْدَ رِجْلَيْهِ ثِنْتَانِ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ يُغَنِّيَانِهِ بِأَحْسَنِ صَوْتٍ سَمِعَهُ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ وَلَيْسَ بِمِزْمَارِ الشَّيْطَانِ وَلَكِنْ بِتَحْمِيدِ اللهِ وَتَقْدِيسِهِ »

بيان

جمل مفرقة من أوصاف أهل الجنة وردت بها الأخبار

روى [٢] أسامة بن زيد ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه « أَلاَ هَلْ مُشَمِّرٌ لِلْجَنَّةِ إِنَّ الْجَنَّةَ لاَخَطَرَ لَهَا هِيَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ نُورٌ يَتَلأْلأُ وَرَيْحَانَةٌ تَهْتَزُّ وَقَصْرٌ مَشِيدٌ وَنَهْرٌ مُطَّرِدٌ وَفَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ نَضِيجَةٌ وَزَوْجَةٌ حَسْنَاءُ جَمِيلَةٌ فِي حَبْرَةٍ وَنِعْمَةٍ فِي مُقَامٍ أَبَداً وَنَضْرَةٍ فِي دَارٍ عَالِيَةٍ بَهِيَّةٍ سَلِيمَةٍ » قالوا : نحن المشمرون لها يارسول الله . قال « قُولُوا إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى » ثم ذكر الجهاد وحض عليه

[٣] وجاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : هل في الجنة خيل فإنها تعجبني ؟ قال « إِنْ أَحْبَبْتَ ذَلِكَ أُتِيتَ بِفَرَسٍ مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ

---

(١) حديث أبي أمامة مامن عبد يدخل الجنة الاويجلس عد رأسه وعند رجليه ثنتان من الحور العين يغنيانه بأحسن صوت سمعه الانس والجن وليس بمزمار الشيطان ولكن بتحميدالله وتقديسه الطبراني باسناد حسن

(٢) حديث أسامة بن زيد ألاهل من مشمر للجنة ان الجنة لاخطر لها ـ الحديث : ابن‌ماجه وابن‌حبان

(٣) حديث جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له هل في الجنة خيل فانها تعجبني ـ الحديث : الترمذي من حديث بريدة مع اختلاف لفظ وفيه المسعودي مختلف فيه ورواه ابن المبارك في الزهد بلفظ المصنف من رواية عبد الرحمن بن سابط مرسلا قال الترمذي وهذا أصح وقد ذكر أبوموسى المديني عبدالرحمن بن سابط في ذيله على بن منده في الصحابة ولا يصح له صحبة

---

(١) الروم : ١٥

فَتطِيرُ بِكَ فِي الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْتَ »

وقال له رجل إن الإبل تعجبني ، فهل في الجنة من إبل ؟ فقال « يَاعَبْدَ اللهِ إِنْ أُدْخِلْتَ الْجَنَّةَ فَلَكَ فِيهَا مَااشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَلَذَّتْ عَيْنَاكَ »

وعن [1] أبي سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ الرَّجُلَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ لَيُولَدُ لَهُ الوَلَدُ كَمَا يَشْتَهِي يَكُونُ حَمْلُهُ وَفِصَالُهُ وَشَبَابُهُ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] « إِذَا اسْتَقَرَّ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ اشْتَاقَ الإِخْوَانُ إِلَى الإِخْوَانِ فَيَسِيرُ سَرِيرُ هَذَا إِلَى سَرِيرِ هَذَا فَيَلْتَقِيَانِ وَيَتَحَدَّثَانِ مَا كَانَ بَيْنَهُمَا فِي دَارِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ يَاأَخِي تَذْكُرُ يَوْمَ كَذَا فِي مَجْلِسِ كَذَا فَدَعَوْنَا اللهَ عَزَّ وَجَلَّ فَغَفَرَ لَنَا »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [3] « إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ جُرْدٌ مُرْدٌ بِيضٌ جِعَادٌ مُكَحَّلُونَ أَبْنَاءُ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ عَلَى خَلْقِ آدَمَ طُولُهُمْ سِتُّونَ ذِرَاعاً فِي عَرْضِ سَبْعَةِ أَذْرُعٍ »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [4] « أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ الَّذِي لَهُ ثَمَانُونَ أَلْفَ خَادِمٍ

---

(١) حديث أبي سعيد ان الرجل من أهل الجنة ليولد له الولد كما يشتهى ويكون حمله وفصاله ونشأته في ساعة واحدة : ابن ماجه والترمذى وقال حسن غريب قال وقد اختلف أهل العلم فى هذا فقال بعضهم فى الجنة جماع ولايكون ولدانتهى ولاحمد من حديث لأبي رزين يلذويلم مثل لذاتكم فى الدنيا ويلتذذن بكم غير أنلاتوالد

(٢) حديث إذا استقر أهل الجنة فى الجنة اشتاق الاخوان الى الاخوان فيسير سرير هذا الى سرير هذا البزار من رواية الربيع بن صبيح عن الحسن عن أنس وقال لانعلمه يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم الابهذا الاسناد تفرد به أنس انتهى والربيع بن صبيح ضعيف جدا ورواه الأصفهانى فى الترغيب والترهيب مرسلا دون ذكر أنس

(٣) حديث أهل الجنة جردمرد بيض جعاد مكحلون أبناء ثلاث وثلاثين ـ الحديث : الترمذى من حديث معاذ وحسنه دون قوله بيض جعادودون قوله على خلق آدم الى آخره ورواه أيضا من حديث أبي هريرة مختصرا أهل الجنة جرد مرد كحل وقال غريب وفى الصحيحين من حديث أبي هريرة على صورة أبيهم آدم ستون ذراعا

(٤) حديث أدنى أهل الجنة منزلة الذى له ثمانون ألف خادم ـ الحديث : الترمذى من حديث أبي سعيد منقطعا من أوله الى قوله وأن عليهم التيجان ومن هنا باسناده أيضا وقال لانعرفه الامن حديث رشد بن سعد

وَثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ زَوْجَةً وَيُنْصَبُ لَهُ قُبَّةٌ مِنْ لُؤْلُؤٍ وَزَبَرْجَدٍ وَيَاقُوتٍ كَمَا بَيْنَ الْجَابِيَةِ إِلَى صَنْعَاءَ وَإِنَّ عَلَيْهِمُ التِّيجَانَ وَإِنَّ أَدْنَى لُؤْلُؤَةٍ مِنْهَا لَتُضِيءُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ »

وقال صلى الله عليه وسلم[1] « نَظَرْتُ إِلَى الْجَنَّةِ فَإِذَا الرُّمَّانَةُ مِنْ رُمَّانِهَا كَخَلْفِ الْبَعِيرِ الْمُقَتَّبِ وَإِذَا طَيْرُهَا كَالْبُخْتِ وَإِذَا فِيهَا جَارِيَةٌ فَقُلْتُ يَاجَارِيَةُ لِمَنْ أَنْتِ فَقَالَتْ لِزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ وَإِذَا فِي الْجَنَّةِ مَالَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ »

وقال كعب : خلق الله تعالى آدم عليه السلام بيده ، وكتب التوراة بيده ، وغرس الجنة بيده ، ثم قال لها تكلمى فقالت (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ[1])

فهذه صفات الجنة ذكرناها جملة ثم نقلناها تفصيلا . وقد ذكر الحسن البصري رحمه الله جملتها فقال : إن رمانها مثل الدلاء ، وإن أنهارها لمن ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من عسل مصفى لم يصفه الرجال ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، لاتسفه الأحلام ، ولا تصدع منها الرءوس ، وإن فيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . ملوك ناعمون ، أبناء ثلاث وثلاثين ، في سن واحد ، طولهم ستون ذراعا في السماء ، كحل ، جرد ، مرد ، قد أمنوا العذاب ، واطمأنت بهم الدار . وإن أنهارها لتجرى على رضراض من ياقوت وزبرجد ، وأن عروقها ، ونخلها ، وكرمها اللؤلؤ ، وثمارها لايعلم علمها إلا الله تعالى ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة سنة ، وإن لهم فيها خيلا وإبلا هفافة ، رحالها وأزمتها وسروجها من ياقوت ، يتزاورون فيها ، وأزواجهم الحور العين كأنهن بيض مكنون ، وإن المرأة لتأخذ بين أصبعيها

---

(١) حديث نظرت الى الجنة فاذا الرمانه من رمانها كجلد البعير المقتب وإذا طيرها كالبخت ـ الحديث : رواه الثعلبى فى تفسيره من رواية أبى هرون العبدى عن أبى سعيد وأبو هرون اسمه عمارة ابن جوين ضعيف جدا وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة يقول الله اعددت لعبادى الصالحين مالاعين رأت ولاأذن سمعت ولاخطر على قلب بشر

---

(١) المؤمنون : ١

سبعين حلة ، فتلبسها ، فيرى مخ ساقها من وراء تلك السبعين حلة ، قد طهر الله الأخلاق من السوء ، والأجساد من الموت ، لايمتخطون فيها ، ولايبولون ، ولايتغوطون وإنما هو جشاء ورشح مسك . لهم رزقهم فيها بكرة وعشيا : أما أنه ليس ليل بكر ، الغدو على الرواح ، والرواح على الغدو . وإن آخر من يدخل الجنة وأدناهم منزلة ليمد له في بصره وملكه مسيرة مائة عام ، فى قصور من الذهب والفضة ، وخيام اللؤلؤ ، ويفسح له فى بصره حتي ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أدناه ، يغدى عليهم بسبعين ألف صحفة من ذهب ، ويراح عليهم بمثلها فى كل صحفة لون ليس فى الأخرى مثله ، ويجد طعم آخره ، كما يجد طعم أوله وإن فى الجنة لياقوتة فيها سبعون ألف دار ، فى كل دار سبعون ألف بيت ، ليس فيها صدع ولا ثقب

وقال مجاهد : إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن يسير فى ملكه ألف سنة ، يرى أقصاه كما يرى أدناه ، وأرفعهم الذى ينظر إلى ربه بالغداة والعشي

وقال سعيد بن المسيب : ليس أحد من أهل الجنة إلا وفى يده ثلاثة إسورة سوار من ذهب ، وسوار من لؤلؤ ، وسوار من فضة

وقال أبوهريرة رضي الله عنه . إن فى الجنة حوراء يقال لها العيناء ، إذا مشت مشى عن يمينها ويسارها سبعون ألف وصيفة ، وهي تقول : أين الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ؟

وقال يحي بن معاذ : ترك الدنيا شديد ، وفوت الجنة أشد . وترك الدنيا مهر الآخرة

وقال أيضا : فى طلب الدنيا ذل النفوس ، وفى طلب الآخرة عز النفوس . فيا عجبا لمن يختار المذلة فى طلب مايفنى ، ويترك العز فى طلب مايبقى

صفة

الرؤية والنظر إلى وجه الله تبارك وتعالى

قال الله تعالى (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ [1]) وهذه الزيادة هي النظر

---

[1] يونس : ٢٦

إلى وجه الله تعالى . وهي اللذة الكبرى التي ينسى فيها نعيم أهل الجنة ، وقد ذكرنا حقيقتها في كتاب المحبة . وقد شهد لها الكتاب والسنة على خلاف ما يعتقده أهل البدعة . قال [١] جرير بن عبد الله البجلي : كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرأى القمر ليلة البدر ، فقال « إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا » ثم قرأ (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا [١]) وهو مخرج في الصحيحين

وروى مسلم في الصحيح ، عن [٢] صهيب قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ [٢]) قال « إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ نَادَى مُنَادٍ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ قَالُوا مَا هَذَا الْمَوْعِدُ أَلَمْ يُثَقِّلْ مَوَازِينَنَا وَيُبَيِّضْ وُجُوهَنَا وَيُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَيُجِرْنَا مِنَ النَّارِ قَالَ فَيُرْفَعُ الْحِجَابُ وَيَنْظُرُونَ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ »

وقد روى حديث الرؤيا جماعة من الصحابة . وهذه هي غاية الحسنى ونهاية النعمى . وكل ما فصلناه من التنعم عند هذه النعمة ينسى . وليس السرور أهل الجنة عند سعادة اللقاء منتهى ، بل لا نسبة لشيء من لذات الجنة إلى لذة اللقاء . وقد أوجزنا في الكلام هنا لما فصلناه في كتاب المحبة والشوق والرضا ، فلا ينبغي أن تكون همة العبد من الجنة بشيء سوى لقاء المولى . وأما سائر نعيم الجنة فإنه يشارك فيه البهيمة المسرحة في المرعى

---

(١) حديث جرير كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى القمر ليلة البدر فقال انكم ترون ربكم ـ الحديث : هو في الصحيحين كما ذكر المصنف .

(٢) حديث صهيب في قوله تعالى للذين أحسنوا الحسنى وزيادة : رواه مسلم كما ذكر المصنف

---

(١) طه : ١٣٠ (٢) يونس : ٢٦

نختم الكتاب بباب فى

سعة

رحمة الله تعالى على سبيل التفاؤل بذلك

فقد [١] كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الفأل . وليس لنا من الأعمال ما نرجو به المغفرة ؛ فنقتدى برسول الله صلى الله عليه وسلم فى التفاؤل . ونرجو أن يختم عاقبتنا بالخير فى الدنيا والآخرة ، كما ختمنا الكتاب بذكر رحمة الله تعالى . فقد قال الله تعالى (إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَادُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ [١]) وقال تعالى (قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَاتَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ [٢]) وقال تعالى (وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَحِيمًا [٣])

ونحن نستغفر الله تعالى من كل مازلت به القدم ، أوطغى به القلم فى كتابنا هذا وفى سائر كتبنا ، ونستغفره من أقوالنا التى لاتوافقها أعمالنا ، ونستغفره مما ادعيناه وأظهرناه من العلم والبصيرة بدين الله تعالى مع التقصير فيه ، ونستغفره من كل علم وعمل قصدنا به وجهه الكريم ثم خالطه غيره ، ونستغفره من كل وعد وعدناه به من أنفسنا ثم قصرنا فى الوفاء به ؛ ونستغفره من كل نعمة أنعم بها علينا فاستعملناها فى معصيته ، ونستغفره من كل تصريح وتعريض بنقصان ناقص وتقصير مقصر كنا متصفين به ، ونستغفره من كل خطرة دعتنا إلى تصنع وتكلف تزينا للناس فى كتاب سطرناه ، أوكلام نظمناه ، أو علم أفدناه

﴿ باب فى سعة الرحمة ﴾

(١) حديث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب التفاؤل : متفق عليه من حديث أنس فى اثناء حديث ويعجبنى الفأل الصالح الكلمة الحسنة ولهما من حديث أبى هريرة وخيرها الفأل قالوا وما الفأل قال الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم

(١) النساء : ٤٨ (٢) الزمر : ٥٣ (٣) النساء : ١١٠

أو استفدناه . ونرجو بعد الاستغفار من جميع ذلك كله لنا ولمن طالع كتابنا هذا أو كتبه ، أو سمعه ، أن نكرم بالمغفرة ، والرحمة ، والتجاوز عن جميع السيئات ظاهرا وباطنا ، فإن الكرم عميم ، والرحمة واسعة ، والجود على أصناف الخلائق فائض ، ونحن خلق من خلق الله عز وجل لاوسيلة لنا إليه إلا فضله وكرمه ؛ فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] « إِنَّ لِلّٰهِ تَعَالَى مِائَةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ وَأَخَّرَ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »

ويروى أنه[2] إذا كان يوم القيامة ، أخرج الله تعالى كتابا من تحت العرش فيه : إن رحمتي سبقت غضبي ، وأنا أرحم الراحمين . فيخرج من النار مثلا أهل الجنة

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم[3] « يَتَجَلَّى اللّٰهُ عَزَّ وَجَلَّ لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ضَاحِكاً فَيَقُولُ أَبْشِرُوا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا وَقَدْ جَعَلْتُ مَكَانَهُ فِي النَّارِ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا »

وقال النبي صلى الله عليه وسلم[4] « يُشَفِّعُ اللّٰهُ تَعَالَى آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ جَمِيعِ ذُرِّيَّتِهِ فِي مِائَةِ أَلْفِ أَلْفٍ وَعَشَرَةِ آلَافِ أَلْفٍ »

---

(١) حديث ان لله تعالى مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والانس ـ الحديث : مسلم من حديث أبي هريرة وسلمان

(٢) حديث اذا كان يوم القيامه أخرج الله كتابا من تحت العرش فيه ان رحمتي سبقت غضبي ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة لما قضى الله الخلق كتب عنده فوق العرش ان رحمتي سبقت غضبي لفظ البخاري وقال مسلم كتب في كتابه على نفسه ان رحمتي تغلب غضبي

(٣) حديث يتجلى الله لنا يوم القيامة ضاحكا فيقول ابشروا معشر المسلمين فانه ليس منكم أحد الا وقد جعلت مكانه في النار يهوديا أو نصرانيا : مسلم من حديث أبي موسى اذا كان يوم القيامة دفع الله الى كل مسلم يهوديا أو نصرانيا فيقول هذا فداؤك من النار ولأبي داود أمتي أمة مرحومة لاعذاب عليها في الآخرة ـ الحديث : وأما أول الحديث فرواه الطبراني من حديث أبي موسى أيضا يتجلى الله ربنا لنا ضاحكا يوم القيامة حتى ينظروا الى وجهه فيخرون له سجدا فيقول ارفعوا رؤسكم فليس هذا يوم عبادة وفيه علي بن زيد بن جدعان

(٤) حديث يشفع الله آدم يوم القيامة من ذريته في مائة ألف ألف وعشرة آلاف ألف : الطبراني من حديث أنس باسناد ضعيف

وقال صلى الله عليه وسلم [١] « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ هَلْ أَحْبَبْتُمْ لِقَائِي فَيَقُولُونَ نَعَمْ يَارَبَّنَا فَيَقُولُ لِمَ فَيَقُولُونَ رَجَوْنَا عَفْوَكَ وَمَغْفِرَتَكَ فَيَقُولُ قَدْ أَوْجَبْتُ لَكُمْ مَغْفِرَتِي »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] « يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ ذَكَرَنِي يَوْمًا أَوْ خَافَنِي فِي مَقَامٍ »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣] « إِذَا اجْتَمَعَ أَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ وَمَنْ شَاءَ اللَّهُ مَعَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ قَالَ الْكُفَّارُ لِلْمُسْلِمِينَ أَلَمْ تَكُونُوا مُسْلِمِينَ قَالُوا بَلَى فَيَقُولُونَ مَاأَغْنَى عَنْكُمْ إِسْلَامُكُمْ إِذْ أَنْتُمْ مَعَنَا فِي النَّارِ فَيَقُولُونَ كَانَتْ لَنَا ذُنُوبٌ فَأُخِذْنَا بِهَا فَيَسْمَعُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَاقَالُوا فَيَأْمُرُ بِإِخْرَاجِ مَنْ كَانَ فِي النَّارِ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ فَيَخْرُجُونَ فَإِذَا رَأَى ذَلِكَ الْكُفَّارُ قَالُوا يَالَيْتَنَا كُنَّا مُسْلِمِينَ فَنَخْرُجَ كَمَا أُخْرِجُوا » ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ [١])

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٤] « لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ مِنَ الْوَالِدَةِ الشَّفِيقَةِ بِوَلَدِهَا »

وقال جابر بن عبد الله : من زادت حسناته على سيئاته يوم القيامة فذلك الذى يدخل

---

(١) حديث ان الله تعالى يقول يوم القيامة للمؤمنين هل أحببتم لقائى فيقولون نعم ـ الحديث : أحمد والطبرانى من حديث معاذ بسند ضعيف

(٢) حديث يقول الله عزوجل يوم القيامة أخرجوا من النار من ذكرنى يوما أوخافنى فى مقام: الترمذى من حديث أنس وقال حسن غريب

(٣) حديث اذا اجتمع أهل النار فى النار ومن شاء الله معهم من أهل القبلة قال الكفار للسلمين ألم تكونوا مسلمين قالوا بلى فيقولون ماأغنى عنكم اسلامكم اذأنتم معنا فى النار ـ الحديث : فى اخراج أهل القبلة من النار ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ربما يود الذين كفروا لوكانوا مسلمين النسائى فى الكبرى من حديث جابر نحوه باسناد صحيح

(٤) حديث لله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها : متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب وفى أوله قصة المرأة من السبى اذ وجدت صبيا فى السبى فأخذته فالصقته ببطنها فارضعته

---

(١) الحجر : ٢

الجنة بغير حساب . ومن استوت حسناته وسيئاته فذلك الذى يحاسب حسابا يسيرا ثم يدخل الجنة . وإنما شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن أوبق نفسه وأثقل ظهره

ويروى أن الله عزوجل قال لموسى عليه السلام : ياموسى ، استغاث بك قارون فلم تغثه . وعزتى وجلالى لو استغاث بى لأغثته وعفوت عنه

وقال سعد بن بلال : يؤمر يوم القيامة بإخراج رجلين من النار ، فيقول الله تبارك وتعالى . ذلك بما قدمت أيديكما وما أنا بظلام للعبيد ، ويأمر بردهما إلى النار ، فيعدو أحدهما فى سلاسله حتى يقتحمها ، ويتلكأ الآخر ، فيؤمر بردهما ، ويسألهما عن فعلهما . فيقول الذى عدا إلى النار : قد حذرت من وبال المعصية ، فلم أكن لأتعرض لسخطك ثانية . ويقول الذى تلكأ : حسنُ ظنى بك كان يشعرنى أن لا تردنى إليها بعد ماأخرجتنى منها . فيأمر بهما إلى الجنة

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « يُنَادِي مُنَادٍ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَاأُمَّةَ مُحَمَّدٍ أَمَّا مَا كَانَ لِي قِبَلَكُمْ فَقَدْ وَهَبْتُهُ لَكُمْ وَبَقِيَتِ التَّبِعَاتُ فَتَوَاهَبُوهَا وَادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي »

ويروى أن أعرابيا سمع ابن عباس يقرأ (وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا [١]) فقال الأعرابي والله ماأنقذكم منها وهو يريد أن يوقعكم فيها : فقال ابن عباس : خذوها من غير فقيه

وقال [٢] الصنابحى : دخلت على عبادة بن الصامت وهو فى مرض الموت ، فبكيت ، فقال مهلا لم تبكى ؟ فوالله مامن حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث ينادى مناد من تحت العرش يوم القيامة ياأمة محمد أما ما كان لى قبلكم فقد غفرته لكم وبقيت التبعات فتواهبوها بينكم وادخلوا الجنة برحمتى : رويناه فى سباعيات أبى الاسعد القشيرى من حديث أنس وفيه الحسين بن داود البلخى قال الخطيب ليس بثقة

(٢) حديث الصنابحى عن عبادة بن الصامت من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله حرمه الله على النار : مسلم من هذا الوجه واتفقا عليه من غير رواية الصنابحى بلفظ آخر

---

(١) آل عمران : ١٠٣

لكم فيه خير إلا حدثتكموه ، إلا حديثا واحد ، وسوف أحدثكموه اليوم وقد أحيط بنفسي . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « مَنْ شَهِدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ النَّارَ »

وقال[1] عبد الله بن عمرو بن العاص : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ اللهَ يَسْتَخْلِصُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلاَئِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلاًّ كُلُّ سِجِلٍّ مِنْهَا مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ ثُمَّ يَقُولُ أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئاً ؟ أَظَلَمَتْكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ ؟ فَيَقُولُ لاَ يَارَبِّ فَيَقُولُ أَفَلَكَ عُذْرٌ ؟ فَيَقُولُ لاَ يَارَبِّ فَيَقُولُ بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ لاَ ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ فَيُخْرِجُ بِطَاقَةً فِيهَا أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ فَيَقُولُ يَارَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلاَّتِ فَيَقُولُ إِنَّكَ لاَ تُظْلَمُ قَالَ فَتُوضَعُ السِّجِلاَّتُ فِي كِفَّةٍ وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ قَالَ فَطَاشَتِ السِّجِلاَّتُ وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ فَلاَ يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في آخر حديث طويل يصف فيه القيامة والصراط[2] « إِنَّ اللهَ يَقُولُ لِلْمَلاَئِكَةِ مَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ مِنَ النَّارِ فَيُخْرِجُونَ خَلْقاً كَثِيراً ثُمَّ يَقُولُونَ يَارَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا أَحَدًا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا بِهِ ثُمَّ يَقُولُ ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ فَيُخْرِجُونَ خَلْقاً كَثِيراً ثُمَّ يَقُولُونَ يَارَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا أَحَدًا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا بِهِ ثُمَّ يَقُولُ ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ثُمَّ يَقُولُونَ يَارَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا أَحَدًا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا بِهِ » فكان أبو سعيد يقول :

---

(١) حديث عبد الله بن عمرو ان الله يستخلص رجلا من أمتي على رءوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعون سجلا فذكر حديث البطاقة : ابن ماجه والترمذي وقال حسن غريب

(٢) حديث ان الله يقول للملائكة من وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فاخرجوه من النار فيخرجون خلقا كثيرا ـ الحديث : في اخراج الموحدين وقوله تعالى لاهل الجنة فلا أسخط عليكم بعده أبدا أخرجاه في الصحيحين كما ذكر المصنف من حديث أبي سعيد

إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقرؤا إن شئتم (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا [١]) قال « فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَيَقْبِضُ قَبْضَةً فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ قَدْ عَادُوا حُمَمًا فَيُلْقِيهِمْ فِي نَهْرٍ فِي أَفْوَاهِ الْجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ نَهْرُ الْحَيَاةِ فَيَخْرُجُونَ مِنْهَا كَمَا تَخْرُجُ الْحَبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ أَلَا تَرَوْنَهَا تَكُونُ مِمَّا يَلِي الْحَجَرَ وَالشَّجَرَ مَا يَكُونُ إِلَى الشَّمْسِ أُصَيْفِرُ وَأُخَيْضِرُ وَمَا يَكُونُ مِنْهَا إِلَى الظِّلِّ أَبْيَضُ » قالوا يارسول الله، كأنك كنت ترعى بالبادية. قال « فَيَخْرُجُونَ كَاللُّؤْلُؤِ فِي رِقَابِهِمُ الْخَوَاتِيمُ يَعْرِفُهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ يَقُولُونَ هَؤُلَاءِ عُتَقَاءُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ أَدْخَلَهُمُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ وَلَا خَيْرٍ قَدَّمُوهُ ثُمَّ يَقُولُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ فَمَا رَأَيْتُمْ فَهُوَ لَكُمْ فَيَقُولُونَ : رَبَّنَا أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى إِنَّ لَكُمْ عِنْدِي مَا هُوَ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا فَيَقُولُونَ يَارَبَّنَا أَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا ؟ فَيَقُولُ رِضَائِي عَنْكُمْ فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ أَبَدًا » رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما

وروى البخاري أيضا عن [١] ابن عباس رضي الله عنهما قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال « عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ يَمُرُّ النَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلَانِ وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّهْطُ فَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا فَرَجَوْتُ أَنْ تَكُونَ أُمَّتِي فَقِيلَ لِي هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ ثُمَّ قِيلَ لِي انْظُرْ فَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا قَدْ سَدَّ الْأُفُقَ فَقِيلَ لِي انْظُرْ هَكَذَا وَهَكَذَا فَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا فَقِيلَ لِي هَؤُلَاءِ أُمَّتُكَ وَمَعَ هَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ » فتفرق الناس ولم يبين لهم رسول الله

---

(١) حديث ابن عباس عرضت على الامم يمر النبي معه الرجل والنبي معه الرجلان والنبي ليس معه أحد الحديث : الى قوله سبقك بها عكاشة رواه البخاري

---

(١) النساء : ٤٠

صلى الله عليه وسلم . فتذاكر ذلك الصحابة فقالوا : أما نحن فولدنا في الشرك ، ولكن قد آمنا بالله ورسوله ، هؤلاء هم أبناؤنا فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « هُمُ الَّذِينَ لاَ يَكْتَوُونَ وَلاَ يَسْتَرْقُونَ وَلاَ يَتَطَيَّرُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » فقام عكاشة فقال : ادع الله أن يجعلني منهم يارسول الله . فقال « أَنْتَ مِنْهُمْ » ثم قام آخر فقال مثل قول عكاشة . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « سَبَقَكَ بِهَا عُكَاشَةُ »

وعن [1] عمرو بن حزم الأنصاري قال : تغيب عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا لايخرج إلا لصلاة مكتوبة ثم يرجع . فلما كان اليوم الرابع خرج إلينا فقلنا يارسول الله احتبست عنا حتى ظننا أنه قد حدث حدثٌ . قال « لَمْ يَحْدُثْ إِلاَّ خَيْرٌ، إِنَّ رَبِّى عَزَّ وَجَلَّ وَعَدَنِى أَنْ يُدْخِلَ مِنْ أُمَّتِى الْجَنَّةَ سَبْعِينَ أَلْفًا لاَحِسَابَ عَلَيْهِمْ وَإِنِّى سَأَلْتُ رَبِّى فِى هَذِهِ الثَّلاَثَةِ أَيَّامِ الْمَزِيدَ فَوَجَدْتُ رَبِّى مَاجِدًا وَاجِدًا كَرِيمًا فَأَعْطَانِى مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ السَّبْعِينَ أَلْفًا سَبْعِينَ أَلْفًا قَالَ قُلْتُ يَارَبِّ وَتَبْلُغُ أُمَّتِى هَذَا قَالَ أُكَمِّلُ لَكَ الْعَدَدَ مِنَ الْأَعْرَابِ »

وقال [2] أبو ذر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « عَرَضَ لِى جِبْرِيلُ فِى جَانِبِ الْحَرَّةِ فَقَالَ بَشِّرْ أُمَّتَكَ أَنَّهُ مَنْ مَاتَ لاَيُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ فَقُلْتُ يَاجِبْرِيلُ وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى قَالَ نَعَمْ وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى

---

(١) حديث عمرو بن حزم الانصاري تغيب عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا لايخرج الا لصلاة مكتوبة ثم يرجع وفيه ان ربي وعدني أن يدخل من أمتي الجنة سبعين ألفا لاحساب عليهم وفيه أعطاني مع كل واحد من السبعين ألفا سبعين ألفا البيهقي في البعث والنشور ولاحمد وأبي يعلى من حديث أبي بكر فزادني مع كل واحد سبعين ألفا وفيه رجل لم يسم ولأحمد والطبراني في الأوسط من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر فقال عمر فهلا استزدته فقال قد استزدته فأعطاني مع كل رجل سبعين ألفا قال عمر فهلا استزدته قال قد استزدته فأعطاني هكذا وفرج عبد الله ابن أبي بكر بين يديه قال عبد الله وبسط باعيه وحثى عليه وفيه موسى بن عبيدة الربذى ضعيف

(٢) حديث أبي ذر عرض لي جبريل في جانب الحرة فقال بشر أمتك بانه من مات لايشرك بالله شيئا دخل الجنة ـ الحديث : متفق عليه بلفظ أتاني جبريل فبشرني وفي رواية لهما أتاني آت من ربي

قُلْتُ وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى قَالَ وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى قُلْتُ وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى قَالَ وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى وَإِنْ شَرِبَ الْخَمْرَ »

وقال [1] أبو الدرداء : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ [1]) فقلت وإن سرق وإن زنى يارسول الله ؟ فقال (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ [2]) فقلت وإن سرق وإن زنى ؟ فقال (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ [3]) فقلت وإن سرق وإن زنى يارسول الله ؟ قال « وَإِنْ رَغِمَ أَنْفُ أَبِي الدَّرْدَاءِ »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] « إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ دُفِعَ إِلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْمِلَلِ فَقِيلَ لَهُ هَذَا فِدَاؤُكَ مِنَ النَّارِ »

وروى مسلم فى الصحيح عن [3] أبى بردة ، أنه حدث عمر بن عبد العزيز ؛ عن أبيه أبى موسى ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لَا يَمُوتُ رَجُلٌ مُسْلِمٌ إِلَّا أَدْخَلَ اللهُ تَعَالَى مَكَانَهُ النَّارَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا » فاستحلفه عمر بن عبد العزيز بالله الذى لا إله إلا هو ثلاث مرات ، أن أباه حدثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحلف له.

وروى أنه [4] وقف صبى فى بعض المغازى ينادى عليه فيمن يزيد فى يوم صائف شديد الحر ، فبصرت به امرأة فى خباء القوم ، فأقبلت تشتد ، وأقبل

---

(١) حديث أبى الدرداء قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن خاف مقام ربه جنتان فقلت وان زنى وان سرق ـ الحديث : رواه أحمد باسناد صحيح

(٢) حديث اذا كان يوم القيامة دفع الى كل مؤمن رجل من أهل الملل فقيل له هذا فداؤك من النار. رواه مسلم من حديث أبى موسى نحوه وقد تقدم

(٣) حديث أبى بردة أنه حدث عمر بن عبد العزيز عن ابيه أبىموسى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال لايموت رجل مسلم الاأدخل الله مكانه النار يهوديا أو نصرانيا : عزاه المصنف لرواية مسلم وهو كذلك

(٤) حديث وقف صبى فى بعض المغازى ينادى عليه فيمن يزيد فى يوم صائف شديد الحر فبصرت بهامرأة الحديث : وفيه الله أرحم بكم جميعا من هذه بابنها متفق عليه مختصرا مع اختلاف من حديث عمر بن الخطاب قال قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبي فاذا امرأة من السبي تسعى

(١ ، ٢ ، ٣) الرحمن

أصحابها خلفها ، حتى أخذت الصبي وألصقته إلى صدرها ، ثم ألقت ظهرها على البطحاء وجعلته على بطنها تقيه الحر ، وقالت ابني ابني . فبكى الناس وتركوا ماهم فيه . فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وقف عليهم ، فأخبروه الخبر فسر برحمتهم ثم بشرهم فقال « أَعَجِبْتُمْ مِنْ رَحْمَةِ هَذِهِ لِابْنِهَا » قالوا نعم . قال صلى الله عليه وسلم « فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَرْحَمُ بِكُمْ جَمِيعاً مِنْ هَذِهِ بِابْنِهَا » فتفرق المسلمون على أفضل السرور وأعظم البشارة

فهذه الأحاديث وما أوردناه فى كتاب الرجاء يبشرنا بسعة رحمة الله تعالى ، فنرجو من الله تعالى أن لايعاملنا بما نستحقه ، ويتفضل علينا بما هو أهله ، بمنه وسعة جوده ورحمته

اذ وجدت صبيا فى السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أترون هذه المرأة طارحة ولدها فى النار قلنا لاوالله وهى تقدر على أن لاتطرحه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لله أرحم بعباده من هذه بولدها لفظ مسلم وقال البخارى فاذا امرأة من السبى قدتحلب ثديها تسعى اذوجدت صبيا ـ الحديث ـ *

والحمد لله تعالى عودا على بدء، والصلاة والتسليم على سيدنا محمد فى كل حركة وهدء ـ ويقول مؤلفه عبد الرحيم بن الحسين العراقى انى أكملت مسودة هذا التأليف فى سنة ٧٥١ وأكملت تبييض هذا المختصر منها فى يوم الاثنين ١٢ من شهر ربيع الاول سنة ٧٦٠ انتهى

- * -

كتاب الإملاء

كتاب الإملاء

فى إشكالات الإحياء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على ماخصص وعمم ، وصلى الله على سيد جميع الأنبياء المبعوث إلى العرب والعجم ، وعلى آله وعترته وسلم كثيرا وكرم ، سألتَ يسّرك الله لمراتب العلم تصعد مراقيها ، وقرّب لك مقامات الولاية تحل معاليها عن بعض ماوقع فى الإملاء الملقب بالإحياء مما أشكل على من حجب فهمه وقصر علمه ، ولم يفز بشيء من الحظوظ الملكية قدحه وسهمه ، وأظهرت التحزن لما شاش به شركاء الطعام ، وأمثال الأنعام ، وإجماع العوام ، وسفهاء الأحلام ، وذعار أهل الإسلام ، حتى طعنوا عليه ، ونهوا عن قراءته ، ومطالعته ، وأفتوا بمجرد الهوى على غير بصيرة بإطراحه ومنابذته ، ونسبوا مُمليه إلى ضلال وإضلال ونبذوا قرّاءه ومنتحليه بزيغ فى الشريعة ، واختلال ، فإلى الله إنصرافهم ومآبهم ، وعليه فى العرض الأكبر إيقافهم وحسابهم ، (سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١)) (وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (٢)) (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ (٣)) (وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ (٤)) ولكن الظالمون فى شقاق بعيد ، ولا عجب فقد توى أدلاء الطريق ، وذهب أرباب التحقيق ، ولم يبق فى الغالب إلا أهل الزور والفسوق متشبثين بدعاوى كاذبة ، متصفين بحكايات موضوعة ، متزينين بصفات منمقة متظاهرين بظواهر من العلم فاسدة ، متعاطين لحجج غير صادقة ؛ كل ذلك لطلب الدنيا أو محبة ثناء ، أو مغالبة نظراء ، قد ذهبت المواصلة بينهم بالبر ،

---

(١) الزخرف ١٩ (٢) الشعراء : ٢٢٧ (٣) يونس : ٣٩ (٤) النساء : ٨٣

وتألفوا جميعا على المنكر ، وعدمت النصائح بينهم فى الأمر ، وتصافوا بأسرهم على الخديعة ، والمكر ، إن نصحتهم العلماء أغروا بهم ، وإن صمت عنهم العقلاء أزروا عليهم ، أولئك الجهال فى عامهم الفقراء فى طولهم ، البخلاء عن الله عز وجل بأنفسهم لايفلحون ، ولا ينجح تابعهم ، ولذلك لاتظهر عليهم مواريث الصدق ، ولا تسطع حولهم أنوار الولاية ، ولا تحقق لديهم أعلام المعرفة ، ولا يستر عوراتهم لباس الخشية لأنهم لم ينالوا أحوال النقباء ومراتب النجباء ، وخصوصية البدلاء ، وكرامة الأوتاد ، وفوائد الأقطاب ، وفى هذه أسباب السعادة وتتمة الطهارة ، لو عرفوا أنفسهم لظهر لهم الحق ، وعلموا علة أهل الباطل وداء أهل الضعف ودواء أهل القوّة ، ولكن ليس هذا من بضائعهم ، حجبوا عن الحقيقة بأربع ، بالجهل والإصرار ، ومحبة الدنيا وإظهار الدعوى : فالجهل أورثهم السخف ، والإصرار أورثهم التهاون ، ومحبة الدنيا أورثتهم طول الغفلة ، وإظهار الدعوى أورثهم الكبر والإعجاب والرياء (وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ[1]) (وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ[2]) فلا يغرنك أعاذنا الله وإياك من أحوالهم شأنهم ، ولا يذهلنك عن الاشتغال بصلاح نفسك تمردهم وطغيانهم ، ولا يغوينك بما زين لهم من سوء أعمالهم شيطانهم فكأن قد جمع الخلائق فى صعيد (وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ[3]) وتلى (لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ[4]) فياله من موقف قد أذهل ذوى العقول عن القال والقيل ، ومتابعة الأباطيل ، (فَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ[5]) ولا تطع كل أفاك أثيم (وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ[6]) (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً[7]) (وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ[8]) (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ[9]) ولقد جئناك بحول الله وقوّته ، وبعد استخارته عما سألت عنه وخاصة مازعمت فيه من

---

(١) البروج : ٢٠ (٢) سبأ : ٤٧ (٣ ، ٤) ق : ٢١ ، ٢٢ (٥) الأعراف : ١٩٩ (٦) الأنعام : ٣٥
(٧) هود : ١١٨ (٨) يونس : ١٠٩ (٩) القصص : ٨٨

تخصيص الكلام بالمثل الذى ذكر فيه الأقلام إذ قد اتفق أن يكون أشهر مافى الكتاب وأكثر تصرفا على ألسنة الصدور والأصحاب ، حتى لقد صار المثل المذكور فى المجالس تحية الداخل وحديث الجالس ، فساعدتنا أمنيتك ولولا العجلة والاشتغال لأضفنا إلى إملائنا هذا بيانا غيره مما عدّوه مشكلا ، وصار لعقولهم الضعيفة مخبلا ومضللا ، ونحن نستعيذ بالله من الشيطان ، ونستعصم به من جراءة فقهاء الزمان ونتضرع إليه فى المزيد من الإحسان ، إنه الجواد المنان

ذكر ها إسم

الأسئلة فى المثل

ذكرت رزقك الله ذِكرَه وجعلك تعقل نهيه وأمره ، كيف جاز انقسام التوحيد على أربعة مراتب ، ولفظة التوحيد تنافى التقسيم فى المشهود كماينافى التكرير التعديد ، وإن صح انقسامه على وجه لايندفع ، فهل تصح تلك القسمة فيما يوجد ، أوفيما يقدر ورغبت مزيد البيان فى تحقيق كل مرتبة ، وانقسام طبقات أهلها فيها ، إن كان يقع بينهم التفاوت ، وماوجه تمثيلها بالجوز فى القشور واللبوب ، ولم كان الأول لاينفع ، والآخر الذى هو الرابع لايحل إفشاؤه ؟ ومامعنى قول أهل هذا الشان : إفشاء سر الربوبية كفر أين أصل ماقالوه فى الشرع ؟ إذ الإيمان والكفر ، والهداية والضلال ، والتقريب والتبعيد ، والصديقية وسائر مقامات الولاية ، ودركات المخالفة إنما هي مآخذ شرعية ، وأحكام نبوية ، وكيف يتصور مخاطبة العقلاء الجمادات ، ومخاطبة الجمادات للعقلاء ، وبماذا تسمع تلك المخاطبة أبحاسة الآذان ، أم بسمع القلب ؟ ومالفرق بين القلم المحسوس والقلم الالهـي ؟ ، وماحد عالم الملك وعالم الجبروت ، وحد عالم الملكوت ؟ ، ومامعنى أن الله تعالى خلق آدم على صورته ؟ ، وما الفرق بين الصورة الظاهرة التى يكون معتقدها منزها مجللا ؟ ، ومامعنى الطريق فى ، فإنك بالوادى المقدس طوى ، ولعله ببغداد أوأصفهان أونيسابور أوطبرستان فى غير الوادى الذى سمع فيه موسى عليه السلام كلام الله تعالى ؟ ، ومامعنى

فلستمع بسرّ قليل لما يوحى ؟ وهل يكون سماع القلب بغير سره ، وكيف يسمع لما يوحى من ليس بنبي ، أذلك على طريق التعميم أم على سبيل التخصيص ؛ ومن له بالتسلق إلى مثل ذلك المقام حتى يسمع أسرار الإله ، وإن كان على سبيل التخصيص والنبوة ليست محجورة على أحد إلا على من قصر عن سلوك تلك الطريق ، وما يسمع فى النداء إذا سمع . أهَلْ أسمع موسى أو أسمع نفسه ؟ وما معنى الأمر للسالك بالرجوع من عالم القدرة ونهيه عن أن يتخطى رقاب الصديقين ، وما الذى أوصله إلى مقامهم وهو فى المرتبة الثالثة وهي توحيد المقربين ، وما معنى انصراف السالك بعد وصوله إلى ذلك الرفيق ، وإلى أين وجهته فى الانصراف وكيف صفة انصرافه ، وما الذى يمنعه من البقاء فى الموضع الذى وصل إليه وهو أرفع من الذى خلفه ، وأين هذا من قول أبى سليمان الدارانى المذكور فى غير الإحياء ، لو وصلوا مارجعوا ماوصل من رجع ، ومامعنى بأن ليس فى الإمكان أبدع من صورة هذا العالم ، ولاأحسن ترتيبا ، ولاأكمل صنعا ، ولوكان وادخره مع القدرة عليه كان ذلك بخلا يناقض الجود ، وعجزا يناقض القدرة الإلهية ، وماحكم هذه العلوم المكنونة ، هل طلبها فرض ومندوب إليه ، أوغير ذلك ، ولم كسبت المشكل من الألفاظ ، واللغز من العبارات ، وإن جاز ذلك للشارع فيما له أن يختبربه ويمتحن فمابال من ليس شارعا ، انتهى جملة مراسم الأسئلة فى المثل فأسأل الله تعالى أن يلى علينا ماهو الحق عنده فى ذلك ، وأن يجرى على السنتنا مايستضاء به فى ظلمات المسالك ، وأن يعم بنفعه أهل المبادى والمدارك ، ثم لابد أن أمهد مقدمة وأؤكد قاعدة ، وأؤكد وصية

أما المقدمة : فالغرض بها تبيين عبارات انفرد بها أرباب الطريق تغمض معانيها على أهل القصور ، فنذكر مايغمض منها ، ونذكر المقصد بها عندهم ، فرب واقف على مايكون من كلامنا مختصا بهذا الفن فى هذا ، وغيره ، فيتوقف عليه فهم معناه من جهة اللفظ ،

وأما القاعدة : فنذكر فيها الاسم الذى يكون سلوكنا فى هذه العلوم عليه ، والسمت الذى ننوي بمقصدنا إليه ، ليكون ذلك أقرب على المتأمل وأسهل على الناظر المتفهم

وأما الوصية : فنقصد فيها تعريف ماعلى من نظر فى كلام الناس وآخذ نفسه بالإطلاع على أغراضهم فيما ألفوه ، من تصانيفهم وكيف يكون نظره فيها واطلاعه عليها واقتباسه منها ، فذلك أؤكد عليه أن يتماسه من ظهورها ، فشردوا عنها ، وغلقت فى وجوههم الأبواب ، وأسدل دونهم الحجاب ، ولو أتوها من أبوابها بالترحيب ، وولجوا على الرضا بالحبيب ، لكشف لهم كثير من حجب الغيوب ، (وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [1])

المقدمة

اعلم أن الألفاظ المستعملة ،منها مايستعمله الجماهير والعموم،ومنها مايستعمله أرباب الصنائع، والصنائع على ضربين ، علمية وعملية ، فالعملية كالمهن والحرف ، ولأهل كل صناعة منهم ألفاظ يتفاهمون بها آلاتهم ، ويتعاطون أصول صناعتهم ، والعلمية هي العلوم المحفوظة بالقوانين المعدلة ، بما تحرر من الموازين ، ولأهل كل علم أيضا ألفاظ اختصوا بها لا يشاركهم فيها غيرهم ، إلا أن يكون ذلك بالاتفاق من غير قصد ، وتكون المشاركة إذا اتفقت إما فى صورة اللفظ دون المعنى أو فى المعنى وصورة اللفظ جميعا ، وهذا يعرفه من بحث عن مجارى الألفاظ عند الجمهور ، وأرباب الصنائع ، وإنما سمينا من العلوم صنائع ماقصد فيها التصنع بالترتيب فى التقسيم ، واختيار لفظ دون غيره ، وحد بطرفين ، مبدأ وغاية ، ومالم يكن كذلك فلا نسميه صناعة ، كعلوم الأنبياء صلوات الله عليهم والصحابة رضي الله عنهم ، فإنهم لم يكونوا فيما عندهم من العلم على طرق من بعدهم ولا كانت العلوم عندهم بالرسم الذى هو عند من خلفهم ، ومثل ذلك علوم العرب ولسانها ، لانسميها عندهم صناعة ونسميها بذلك عند ضبطها ، بما اشتهر من القوانين وتقرر من الحصر والترتيب ، ولأرباب العلوم الروحانية وأهل الإشارات إلى الحقائق والمسلمين بالسادة ، والملقبين بالصوفية ، والمتشبهين بالفقراء ، والمعروفين

(1) النور : ٤٦

بالرقة ، والمعزي إليهم ، والعلم والعمل ألفاظ جرى رسمهم بالتخاطب بها ، فيما يتذاكرون أو يذكرونه ، ونحن إن شاء الله نذكر مايغمض منها ، إذ قد يقع منا عند مانذكر شيئا من علومهم ، ونشير إلى غرض من أغراضهم ، فلم نر أن يكون ذلك بغير ماعرف من ألفاظهم وعباراتهم ، ولاحرج فى ذلك عقلا وشرعا ونحن بحكم مصرف التقدير وهو على كل شيء قدير

فمن ذلك السفر ، والسالك ، والمسافر ، والحال ، والمقام ، والمكان ، والشطح والطوالع ، والذهاب ، والنفس ، والسر والوصل والفصل ، والأدب ، والرياضة ، والتحلى والتخلى ، والتجلى ، والعلة والانزعاج ، والمشاهدة ، والمكاشفة ، واللوائح ، والتلوين ، والغيرة والحرية واللطيفة ، والفتوح ، والوسم ، والرسم ، والبسط ، والقبض ، والفناء ، والبقاء ، والجمع ، والتفرقة ، وعين التحلم ، والزوائد والإرادة ، والمريد ، والمراد ، والهمة والغربة ، والمكر ، والاصطلام ، والرغبه والرهبة ، والوجد ، والوجود ، والتواجد فنذكر شرح هذه على أوجز مايمكن ، بمشيئة الله تعالى ، وإن كانت ألفاظهم المصرفة بينهم فى علومهم أكثر مما ذكرنا ، فإنما قصدنا أن نريك منها أنموذجا ودستورا ، تتعلم به إذا طرأ عليك مالم نذكره لك ههنا ، إذلها مبحث وإليها سبيل فتطلبه بعد ذلك على وجهه

فأما السفر والطريق : فالمراد بهما سفر القلب بآلة الفكر فى طريق المعقولات وعلى ذلك ابتنى لفظ السالك والمسافر فى لغتهم ، ولم يرد بذلك سلوك الأقدام التى بها يقطع مسافات الأجسام ، فإن ذلك مماشاركه فيه البهائم والأنعام ، وأول مسالك السفر إلى الله تعالى عزوجل معرفة قواعد الشرع ، وخرق حجب الأمر والنهي ، وتعلق الغرض فيها ، والمراد بها ، ومنها فإذا خلفوا نواحيها ، وقطعوا معاطنها ، أشرفوا على مفاوز أوسع ، وبرزت لهم مهامه ، أعرض وأطول من ذلك معرفة أركان المعارف النبوية ، النفس والعدو والدنيا ، فإذا تخلصوا من أوعارها أشرفوا على غيرها أعظم منها فى الانتساب ، وأعرض بغير حساب ، من ذلك سر القدر ، وكيف خفي بحكم فى الخلائق ، وقادهم بلطف فى عنف ، وشدة فى لين ، وبقوة فى ضعف ،

وباختيار فى جبر ، إلى ماهو فى مجاريه لايخرج المخلفون عنه طرفة عين ، ولا يتقدمون ولا يتأخرون عنه ، والإشراف على الملكوت الأعظم ، ورؤية عجائب ومشاهدة غرائب ، مثل العلم الآلهي واللوح المحفوظ ، واليمين الكاتبة ، وملائكة الله يطوفون حول العرش ، بالبيت المعمور وهم يسبحونه ، ويقدسونه وفهم كلام المخلوقات من الحيوانات والجمادات ، ثم التخطى منها إلى معرفة الخالق للكل ، والمالك للجميع ، والقادر على كل شىء ، فتمشام الأنوار المحرقة ، ويتجلى لمرآة قلوبهم الحقائق المحتجبة ، فيعلمون الصفات ويشاهدون الموصوف ، ويحضرون حيث غاب أهل الدعوى ، ويبصرون ما عمى عنه أولو الأبصار الضعيفة بحجب الهوى

والحال : منزلة العبد فى الحين فيصفوله فى الوقت حاله ووقته وقيل هو مايتحول فيه العبد ، ويتغير مما يرد على قلبه ، فإذا صفا تارة وتغير أخرى قيل له حال ، وقال بعضهم ، الحال لايزول فإذا زال لم يكن حالا

والمقام : هو الذى يقوم به العبد فى الأوقات من أنواع المعاملات وصنوف المجاهدات ، فتى أقيم العبد بشيء منها على التمام والكمال فهو مقامه ، حتى ينقل منه إلى غيره

والمكان : هو لأهل الكمال والتمكين والنهاية ، فإذا كمل العبد فى معانيه فقد تمكن من المكان وغير المقامات والأحوال ، فيكون صاحب مكان كما قال بعضهم

مكانك من قلبى هو القلب كله فليس لشيء فيه غيرك موضع

والشطح : كلام يترجم به اللسان عن وجد يفيض عن معدنه ، مقرون بالدعوى إلا أن يكون صاحبه محفوظا

والطوالع : أنوار التوحيد يطلع على قلوب أهل المعرفة شعاعها ، فيطمس سلطان نورها الألوان ، كما أن نور الشمس يمحو أنوار الكواكب

والذهاب : هو أن يغيب القلب عن حس كل محسوس بمشاهدة محبوبها

والنفس : روح سلطه الله على نار القلب ليطفىء شرها

والسر : ماخفي عن الخلق فلا يعلم به إلا الحق ، وسر السر مالا يحس به السر

والسر: ثلاثة سر العلم، وسر الحال، وسر الحقيقة، فسر العلم حقيقة العالمين بالله عز وجل، وسر الحال معرفة مراد الله فى الحال من الله؛ وسر الحقيقة ماوقعت به الإشارة

والوصل: إدراك الفائت

والفصل: فوت ماترجوه من محبوبك

والأدب: ثلاثة. أدب الشريعة وهو التعلق بأحكام العلم بصحة عزم الخدمة: والثانى: أدب الخدمة وهو التشمر عن الملامات والتجرد عن الملاحظات

والثالث: أدب الحق وهو موافقة الحق بالمعرفة

والرياضة: اثنان. رياضة الأدب وهو الخروج عن طبع النفس، ورياضة الطلب وهو صحة المراد

والتحلى: التشبه بأحوال الصادقين بالأحوال وإظهار الأعمال

والتخلي: اختيار الخلوة والإعراض عن كل مايشغل عن الحق

والتجلى: هو ماينكشف للقلوب من أنوار الغيوب

والعلة: تنبه عن الحق

والانزعاج: انتباه القلب من سنة الغفلة والتحرك للأنس والوحدة

والمشاهدة: ثلاثة. مشاهدة بالحق وهى رؤية الأشياء بدلائل التوحيد، ومشاهدة للحق وهي رؤية الحق فى الأشياء، ومشاهدة الحق وهي حقيقة اليقين بلا ارتياب

والمكاشفة: أتم من المشاهدة وهى ثلاثة، مكاشفة بالعلم: وهى تحقيق الإصابة بالفهم ومكاشفة بالحال: وهي تحقيق رؤية زيادة الحال، ومكاشفة بالتوحيد: وهى تحقيق صحة الإشارة

واللوائح: مايلوح من الأسرار الظاهرة الصافية من السمو من حالة إلى حالة أتم منها، والارتقاء من درجة إلى ماهو أعلى منها.

والتلوين: تلوين العبد فى أحواله، وقالت طائفة: علامة الحقيقة. رفع التلوين بظهور الاستقامة، وقال آخرون: علامة الحقيقة. التلوين لأنه يظهر فيه قدرة

القادر ، فيكسب منه العبد الغيرة .

والغيرة : غيرة فى الحق ، وغيرة على الحق ، وغيرة من الحق ، فالغيرة فى الحق برؤية الفواحش والمناهى ، والغيرة على الحق هي كتمان السرائر ، والغيرة من الحق ضنّه على أوليائه

والحرية : إقامة حقوق العبودية فتكون لله عبدا وعند غيره حرا

واللطيفة : إشارة دقيقة المعنى تلوح فى الفهم ولا يسعها العبارة

والفتوح : ثلاثة . فتوح العبادة فى الظاهر : وذلك سبب إخلاص القصد ، وفتوح الحلاوة فى الباطن : وهو سبب جذب الحق بإعطافه ، وفتوح المكاشفة وهو سبب المعرفة بالحق .

والوسم والرسم : معنيان يجريان فى الأبد بما جريا فى الأزل

والبسط : عبارة عن حال الرجاء

والقبض : عبارة عن حال الخوف

والفناء : فناء المعاصى ، ويكون فناء رؤية العبد لفعله بقيام الله تعالى على ذلك

والبقاء : بقاء الطاعات ، ويكون بقاء رؤية العبد قيام الله سبحانه على كل شيء

والجمع : التسوية فى أصل الخلق ، وعن آخرين معناه إشارة من أشار إلى الحق بلاخلق

والتفرقة : إشارة إلى اللون والخلق ، فمن أشار إلى تفرقة بلا جمع فقد جحد البارى سبحانه ، ومن أشار إلى جمع بلا تفرقة فقد أنكر قدرة القادر ، وإذا جمع بينهما فقد وجد

عين التحلم : إظهار غاية الخصوصيه بلسان الانبساط فى الدعاء

والزوائد : زيادات الإيمان بالغيب واليقين

والإرادات : ثلاثة : إرادة الطالب من الله سبحانه وتعالى : وذلك موضع التمنى ، وإرادة الحظ منه : وذلك موضع الطمع ، وإرادة الله سبحانه : وذلك موضع الإخلاص

والمريد : هو الذى صح له الابتلاء ودخل فى جملة المنقطعين إلى الله عز وجل بالاسم

والمراد : هو العارف الذى لم يبق له إرادة وقد وصل إلى النهاية وغيّر الأحوال والمقامات .

والهمة : ثلاثة . همة مُنية : وهي تحرك القلب للمنى ، وهمة إرادة : وهي أول صدق المريد ، وهمة حقيقة القصور عن ملاحظة ذروة هذا الأمر والجهل . فإن الأمر إدّ والخطب جد ، والآخرة مقبلة ، والدنيا مدبرة ، والأجل قريب ، والسفر بعيد والزاد طفيف ، والخطر عظيم ، والطريق سد ، وما سوى الخالص لوجه الله من العلم والعمل عند الناقد البصير رَد ، وسلوك طريق الآخرة مع كثرة الغوائل من غير دليل ولا رفيق متعب ومكدّ ، فأدلةُ الطريق هم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء وقد شغر منهم الزمان ولم يبق إلا المترسمون ، وقد استحوذ على أكثرهم الشيطان واستغواهم الطغيان وأصبح كل واحد بعاجل حظه مشغوفا ، فصار يرى المعروف منكرا ، والمنكر معروفا ، حتى ظل علم الدين مندرسا ، ومنار الهدى فى أقطار الأرض منطمسا ، ولقد خيلوا إلى الخلق أن لاعلم إلا فتوى حكومة تستعين به القضاة على فصل الخصام ، عند تهاوش الطغام أو جدل يتدرع به طالب المباهاة إلى الغلبة والإفحام ، أو سجع مزخرف يتوسل به الواعظ إلى استدراج العوام ، إذ لم يروا ماسوى هذه الثلاثة مصيدة للحرام ، وشبكة للحطام ، فأما علم طريق الآخرة وما درج عليه السلف الصالح ، وهي جمع الهمم بصفاء الإلهام

والغربة : ثلاثة . غربة عن الأوطان من أجل حقيقة القصد ، وغربة عن الأحوال من حقيقة التفرد بالأحوال ، وغربة عن الحق من حقيقة الدهش عن المعرفة

والاصطلام : نعت ، وله برد على القلوب بقوة سلطان فيستكنها

والمكر : ثلاثة . مكر عموم : وهو الظاهر فى بعض الأحوال ، ومكر خصوص وهو فى سائر الأحوال ، ومكر خفي فى إظهار الآيات والكرامات

والرغبة : ثلاثة . رغبة النفس فى الثواب ، ورغبة القلب فى الحقيقة ، ورغبة السر فى الحق

والرهبة : رهبة الغيب لتحقيق أمر السبق

والوجد : مصادفة القلب بصفاء ذكر كان قد فقده

والوجود : تمام وجد الواجدين وهو أتم الوجد عندهم ، وسئل بعضهم عن

الوجد والوجود فقال ، الوجد ماتطلبه فتجده بكسبك واجتهادك ، والوجود ماتجده من الله الكريم ، والوجد عن غير تمكين والوجود مع التمكين

والتواجد : استدعاء الوجد . والتشبه فى تكلفه بالصادقين من أهل الوجد

القاعدة . وأما القاعدة التى ينبنى عليها هذا الفن بأسره ، فذلك اجتذاب أرواح المعانى والإشارة إلى البعد فى القرب ، قصد الاستدلال بالأقوال والأعمال والأحوال على الله تعالى ، قصدا ذاتيا لا على ماسلكه أرباب علوم الظاهر ، ثم التصديق بالقوة والنظر إلى الملكوت من كوة ، ومعرفة العلوم فى الانصراف ومصاحبة القدر بالمساعدة ، وبالمعروف ومعاطاة الوجودات الخمس ، الذاتى ، والحسى ، والخيالى ، والعقلى ، والشبهى حسبما فهم من الشرع ، وثبت معناه فى المحفوظ من الوحي ، وقلما أدرك شيء من العجز ، والعلم لا ينال براحة الجسم (وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ [١]) (وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا [٢])

والوصية

أيها الطالب للعلوم ، والناظر فى التصانيف ، والمستشرف على كلام الناس ، وكتب الحكمة ، ليكن نظرك فيما تنظر فيه بالله ، ولله ، وفى الله ، لأنه إن لم يكن نظرك به ، وكلك إلى نفسك ، أو إلى من جعلت نظرك به أيا كان غيره ، من فهم ، أو علم ، أو حفظ أو إمام متبع ، أو صحة ميز ، أو ما شاكل ذلك ، وكذلك إن لم يكن نظرك له فقد صار علمك لغيره ، ونكصت على عقبيك ، وخسرت فى الدارين صفقتك ، وعاد كل هول عليك (فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا [٣]) وكذلك إن لم يكن نظرك فيه فقد أثبت معه غيره ، ولاحظت بالحقيقة سواه ، ورؤية غيره دونه تعمى القلب ، وتهتك الستر ، وتحجب اللب وإذا نظرت فى كلام أحد من الناس ، ممن قد شهر بعلم فلا تنظره بازدراء كمن

---

(١) الطلاق : ٤ ، ٥ (٢) الطلاق : ٣ (٣) الكهف : ١١٠

يستغنى عنه فى الظاهر ، وله إليه كثير حاجة فى الباطن ، ولا تقف به حيث وقف به كلامه ، فالمعانى أوسع من العبارات ، والصدور أفسح من الكتب المؤلفات ، وكثير علم مما لم يعبر عنه ، واطمح بنظر قلبك فى كلامه إلى غاية مايحتمل ، فذلك يعرفك قدره ويفتح باب قصده ، ولا تقطع له بصحة ، ولا تحكم عليه بفساد ، وليكن تحسين النظر أغلب عليك فيه ، حتى يزول الإشكال عنك ، بما تتيقن من معانيه ، وإذا رأيت له حسنة وسيئة فانشر الحسنة ، واطلب المعاذير للسيئة ، ولا تكن كالذبابة تنزل على أقذر ماتجده ، ولا تعجل على أحد بالتخطئة ، ولا تبادر بالتجهيل فربما عاد عليك ذلك وأنت لا تشعر ، فلكل عالم عورة ، وله فى بعض مايأتى به احتجاج ، وناهيك ماجرى بين ولىّ الله تعالى الخضر وكليمه موسى ، على نبينا وعليهما السلام ، وإذا عرض لك من كلام عالم إشكال يؤذن فى الظاهر بمحال ، أو اختلال ، فخذ ماظهر لك علمه ، ودع مااعتاص عليك فهمه ، وكل العلم فيه إلى الله عز وجل ، فهذه وصيتى لك ، فاحفظها ، وتذكيرى إياك فلا تذهل عنه

اسمع وصيتى إن تحفظ حظيت بها وإن تخالف فقد يردى بك الخلف

وأزيدك زيادة تقتضى التعريف بأصناف العلماء ، لكي يُعرف أهل الحقيقة من غيرهم ، فلك فى ذلك أكبر منفعة ، ولى فى وصفهم أبلغ غرض ، قال علماؤنا : العلماء ثلاثة . حجة ، وحجاج ، ومحجوج ، فالحجة : عالم بالله وبأمره وبآياته ، مهتما بالخشية لله سبحانه ، والورع فى الدين ، والزهد فى الدنيا ، والإيثار لله عز وجل ، والحجاج : مدفوع إلى إقامة الحجة ، وإطفاء نار البدعة ، قد أخرس المتكلمين ، وأفحم المتخرصين ، برهانه ساطع ، وبيانه قاطع ، وحفظه ماينازع ، شواهده بينة ، ونجومه نيرة ، قد حمى صراط الله المستقيم ، والمحجوج : عالم بالله ، وبأمره ، وبآياته ولكنه فقد الخشية لله برؤيته لنفسه ، وحجبه عن الورع والزهد فى الدنيا ، والرغبة والحرص ، وبعّده من بركات علمه محبةُ العلوّ والشرف ، وخوف السقوط والفقر ، فهو عبد لعبيد الدنيا ، خادم لخدمها ، مفتون بعد علمه ، مغتر بعد معرفته ، مخذول بعد نصرته ، شأنه الاحتقار لنعم الله ، والازدراء لأوليائه ، والاستخلاف

بالجهال من عباده ، وغرُّه بلقاء أميره ، وصلة سلطانه وطاعة القاضي والوزير والحاجب له ، قد أهلك نفسه حين لم ينتفع بعلمه ، والاتباع له ، ومن يكون بعده قدوة به ، ومراده من الدنيا مثله في مثل هذا ضرب الله المثل حين قال (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ [1]) فويل لمن صحب مثل هذا في دنياه ، وويل لمن تبعه في دينه ، وهذا هو الذي أكل بدينه ، غير منصف لله سبحانه في نفسه ، ولا ناصح له في عباده ، تراه إن أعطي من الدنيا رضي بالمدحة لمن أعطاه ، وإن مُنع رش بالدم لمن منعه ، وقد نسي من قسّم الأرزاق ، وقدّر الأقدار ، وأجرى الأسباب ، وفرغ من الخلق كلهم ، فنعوذ بالله من الحور بعد الكور ، ومن الضلالة بعد الهدى ، وإنما زدتك هذه الزيادة وإن ظهر لكثير أنها ليست من الغرض الذي نحن فيه ، فقصدي أن يعلم من ذهب من الناس ، ومن بقي ، ومن أبصر الحقائق ، ومن عمي ، ومن اهتدى على الصراط المستقيم ، ومن غوى ، فليعلم أن الصنفين الأولين من العلماء قد ذهبوا ، وإن كان بقي منهم أحد فهو غير محسوس للناس ولا مدرك بالملاحظة

غاب الذين إذا ماحدّثوا صدقوا وظنهم كيقين إن هم حدسوا

وذلك لما سبق في القضاء من ظهور الفساد ، وعدم أهل الصلاح والرشاد ، نعم . وعدم الصنف الثالث على غربته ، وأعز شيء على وجه الأرض وفي الغالب مايقع عليه في الحقيقة اسم علم عند شخص مشهور به ، وإنما الموجود اليوم أهل سخافة ودعوى ، وحماقة ، واجتراء ، وعجب بغير فضيلة ، ورياء ، يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، وهم أكثر من عمّر الأرض وصيّروا أنفسهم أوتاد البلاد ، وأرسان العوام ، وهم خلفاء إبليس وأعداء الحقائق ، وأخدان لعوائد السوء ، وعنهم يرد عتب الحكم الشائعة وانتقاض أهل الإرادة والدين

---

(1) الأعراف : ١٧٥ ، ١٧٦

مثل البهائم جهـــال بخالقهم لهم تصاوير لم يعرف لهن حجا
كلّ يروم على مقدار حيلتـه زوائر الأسد والنباحة القشا

(فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (١))(اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢))أولئك كالأنعام بل هم أضـل أولئك هم الغافلون

أولوا النفاق فإن قلت اصدقوا كذبوا من السفاه وإن قلت اكذبوا صدقوا

ولنأخذ فى جواب ماسألت عنه ، على نحو مارغبت فيه ، وأستوهب الله نفوذ البصيرة ، وحسن السريرة ، وغفران الجريرة ، وهو ربى ورب كل شيء وإليه المصير.

ابتداء الأجوبة

عن مراسم الأسئلة

جرى الرسم فى الإحياء بتقسيم التوحيد على أربع مراتب تشبيها لموافقة الغرض فى التمثيل به ، وذكرت أن المعترض وسوس ، أو بالخواطر هجس ، بأن لفظ التوحيـد ينافى التقسيم ، إذ لايخلو بأن يتعلق بوصف الواحد الذى ليس بزائد عليـه ، فذلك لاينقسم لابالجنس ولا بالفصل ولا بغـير ذلك ، وإما أن يتعلق بوصف المكلفين الذين توجب لهم حكمه إذا وجد فيهم ، فذلك أيضا لاينقسم من حيث انتسابهم إليه بالعقل : وذلك لضيق المجال فيه ، ولهذا لايتصور فيه مذاهب ، وإنما التوحيد مسلك حق بين مسلكين باطلين ، أحدهما : الشرك ، والثانى : الإلباس ، وكلا الطرفين كفر والوسط إيمان محض وهو أحدّ من السيف ، وأضيق من خط الظل ، ولهذا قال أكثر المتكلمين : بتماثل إيمان جميع المؤمنين والملائكة والنبيين والمرسلين وسائر عموم المرسلين ، وإنما تختلف طرق إيمانهم التى هي علومهم ، ومذهبهم فى ذلك معروف ، ونحن لانلم فى هذه الإجابة كلها بشيء من أنحاء الجدال ، ومقابلة الأقوال بالأقوال ، بل بقصد إزالة غبر الإشكال ، وردّ ماطعن به أهل الضلال والإضلال

واعلم أن التقسيم على الإطلاق يستعمل على أنحاء يتوجه هٰهنا بشيء قدح به

(١) المنافقون : ٤ (٢) المنافقون : ٢

المترض ، أو هجس به الخاطر ، وإنما المستعمل هٰهنا من أنحائه ماتتميز به بعض الأشخاص ، بما اختصت به من الأحوال ، وكل حالة منها تسمى توحيدا ، على جهة تنفرد بها ، لايشاركها فيها غيرها ، فمن وجد التوحيد بلسانه يسمى لأجله موحدا مادام يظن أن قلبه موافق للسانه ، وإن علم منه خلاف ذلك سلب عنه الاسم وأقيم عليه ماشرع فى الحكم ، ومن وجد بقلبه على طريق الركون إليه ، والميل إلى اعتقاده والسكون نحوه بلا علم يصحبه فيه ، ولا برهان يربط به سمي أيضا موحدا ، على معنى أنه يعتقد التوحيد ، كما يسمى من يعتقد مذهب الشافعي شافعيا ، والحنبلي حنبليا ، ومن رزق علم التوحيد وما يتحقق به عنده ، وسعى من أجله بشكوكه العارضة له ، فيسمى موحدا ، لأنه عارف به ، يقال جدلي ونحوي وفقيه ، ومعناه يعرف الجدل والفقه والنحو .

وأما من استغرق علم التوحيد قلبه ، واستولى على جملته حتى لايجد فيه فضلا لغيره ، إلا على طريق التبعية له ، ويكون شهود التوحيد لكل ماعداه ، سابقا له مع الذكر والفكر مصاحبا من غير أن يعتريه ذهول ولا نسيان له ، لأجل اشتغاله بغيره كالعادة فى سائر العلوم ، فهذا يسمى موحدا ، ويكون القصد بالمسمى من ذلك المبالغة فيه

فأما الصنف الأول : وهم أرباب النطق المفرد ، فلايضربون فى التوحيد بسهم ، ولا يفوزون منه بنصيب ، ولا يكون لهم شيء من أحكام أهله فى الحياة إلا مادام الظن بهم ، ان قلب أحدهم موافق للسانه ، كما يفرد القول عليه بعد هذا إن شاء الله عزوجل

وأما الصنف الثانى : وهم أرباب الاعتقاد الذين سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم أو الوارث أو المبلغ ؛ يخبر عن توحيد الله عز وجل ، أو يأمر به ، ويلزم البشر قول لاإله إلا الله المنبيء عنه ، فقبلوا ذلك ، واعتقدوه على الجملة ، من غير تفصيل ولا دليل ، فنسبوا إلى التوحيد ، وكانوا من أهله بمنزلة مولى القوم الذى هو منهم ، وبمنزلة من كثر سوادقوم فهو منهم

وأما الصنف الثالث والرابع : فهم أرباب البصائر السليمة ، الذين نظروا بها إلى أنفسهم[1] ، ثم إلى سائر أنواع المخلوقات فتأملوها ، فرأوا ، على كل منها خطا منطبعا

فيها ، ليس بعربي ، ولا سرياني ، ولا عبراني ، ولا غير ذلك من أجناس الخطوط ، فبادر إلى قراءته من لم يستعجم عليه ، وتعلمه منهم من استعجم عليه ، فإذا هو الخط الإلهى المكتوب على صفحة كل مخلوق، المنطبع فيه من مركب ومفرد ، وصفة وموصوف، وحي ، وجماد ، وناطق وصامت ، ومتحرك وساكن ، ومظلم ونيّر ، وهو الذى يسمى تارة بعلامة ، وتارة بسمة ، وتارة بأثر القدرة ، وتارة بآية ، كما قال الشاعر : ولا أدرى عن سماع أو رؤية قلب

وفى كل شىء له آية تدل على أنه واحد

فلو قرؤا ذلك الخط وجدوا تفسير ذلك المكتوب عليه ، وشرحه أبدية مالكه والتصريف له بالقدرة على حكم الإرادة بما سبق فى ثابت العلم من غير مزيد ولا تقصير ، فتركوا الكتابة والمكتوب ، وترقوا الى معرفة الكاتب ، الذى أحدث الأشياء وكونها ، ولا يخرج عن ملكه شيء منها ، ولا استغنت بأنفسها عن حوله وقوته ، ولا انتقلت إلى الحرية عن رق استعباده ، فوجدوه كما وصف نفسه (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ[1]) فخلصت لهم التفرقة والجمع ، وعقلت نفس كل واحد منهم توحيد خالقها بإذنه وإيجاده عن غيره ، وعقلت أنها عقلت توحيده ، فسبحان من يسّرها لذلك ، وفتح عليها بما ليس فى وسعها أن تدركه إلا به وهو اللطيف الخبير، لكن الصنف الثالث : لم يقصر كل منهم أن يعرف نفسه موجدا لديه فيما لا يزال ، وهم المقربون، والصنف الرابع : لم يقصر كل واحد منهم أن عرف ربه موجدا لنفسه فيما لم يزل ، وهم الصديقون ، وبينهما تفاوت كثير

وأما طريق معرفة صحة هذا التقسيم : فلأن العقلاء بأسرهم لا يخلو كل واحد منهم أن يوجد أثر التوحيد بأحد الأنحاء المذكورة عنده ، فأما من عدمت عنده فهو كافر إن كان فى زمن الدعوة ، أو على قرب يمكن وصول علمها إليه ، أو فى فترة يتوجه عليه فيها التكليف وهذا صنف مبعد عن مقام هذا الكلام ، وأما من يوجد عنده فلا يخلو أن يكون مقلدا فى عقده ، أو عالما به ، والمقلدون هم العوام ، وهم أهل المرتبة الثانية فى الكتاب ،

---

(1) الشورى : ١١

فأما العلماء بحقيقة عقدهم فلا يخلو كل واحد أن يكون بلغ الغاية التي أعدت لصنفه دون النبوّة أو لم يبلغ ولكنه قريب من البلوغ . فالذى لم يبلغ وكان على قرب هم المقربون، وهم أهل المرتبة الثالثة،والذين بلغوا الغاية التي أعدت لهم ، وهم الصديقون ، و هم أهل المرتبة الرابعة وهذا التقسيم ظاهر الصحة إذ هو دائر بين النفي والإثبات ، ومحصور بين المبادى والغايات ، ولم يدخل أهل المرتبة الأولى في شيء من تصحيح هذا التقسيم إذ ليس هم من أهله إلا بانتساب كاذب ، ودعوى غير صافية ، ثم لابد من الوفاء بما وعدناك به من إبداء بحث ، ومزيد شرح ، وبسط بيان ، تعرف منه باذن الله حقيقة كل مرتبة ومقام وانقسام أهله فيه بحسب الطاقة والامكان ، بما يجريه الواحد الحق على القلب واللسان

بيان

مقام أهل النطق المجرد وتمييز فرقهم

فأقول : أرباب النطق المجرد أربعة أصناف ، أحدهم : نطقوا بكلمة التوحيد مع شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم لم يعتقدوا معنى مانطقوا به ، لما لم يعلموه لايتصوّرن صحته ولا فساده ولا صدقه ولا كذبه ولا خطأه ولا صوابه ، إذ لم يبحثوا عليه ولا أرادوا فهمه . إما لبعد همتهم وقلة اكترائهم ، وإما لنفورهم من التعب وخوفهم أن يكلفوا البحث عما نطقوا به ، أو يبدوا لهم مايلزمهم من الاعتقاد والعمل ، وما بعد ذلك فإن التزموها فاتوا راحات أبدانهم العاجلة ، وفراغ أنفسهم ، وإن لم يلتزموا شيئا من ذلك ، وقد حصل لهم العلم فتكون عيشتهم منغصة وملاذهم مكدرة ، من خوف عقاب ترك ماعلموا لزومه ، ومثل هؤلاء مثل من يريد قراءة الطب ، أو يعرض عليه ولكنه يمنعه عنه مخافة أن يتطلع منه ، على مايغير عنه بعض ملاذه من الأطعمة ، والأشربة والأنكحة ، أو كثير منها فيحتاج إلى أن يتركها ، أو يرتكبها على رقبه ، وخوف أن يصيبه صورة مايعلم ضرورة منها ، فيدع قراءة الطب رأسا ، سئل هذا الصنف عن معنى مانطقوا به ، وهل اعتقدوه ؟ فيقولون لانعلم فيه مايعتقد ، وما دعانا النطق إلا مساعدة الجماهير ، وانخراطا بإظهار القول في الجم الغفير ، ولا نعرف

هل ماقلناه بالحقيقة من قبل العرف والنكير ، ولا شك أن هذا الصنف الذى أخبر صلى الله عليه وسلم عن حاله بمسألة الملكين ، أحدهم فى القبر إذ يقولان من ربك ؟ ومن نبيك ؟ وما دينك ؟ فيقول لا أدرى سمعت الناس يقولون قولا فقلته فيقولان له لادريت ولا تليت ، وسماه النبي صلى الله عليه وسلم الشاك والمرتاب

والصنف الثانى : نطق كما نطق الذين من قبلهم ، ولكنهم أضافوا إلى قولهم مالا يحصل معه الإيمان ولا ينتظم به معنى التوحيد ، وذلك مثل ماقالت السبابية طائفة من الشيعة القدماء إن عليا هو الإله ، وبلغ أمرهم عليا رضي الله عنه ، وكانوا فى زمنه فحرق منهم جماعة ، وأمثال من نطق بالشهادتين كثير ، ثم أصحاب نطقه مثل هذا النكير ويسمون الزنادقة ، وقد رأينا حديثا عنه صلى الله عليه وسلم فى ذلك « سَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلاَثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي الْجَنَّةِ إِلَّا الزَّنَادِقَةَ »

والصنف الثالث : نطقوا كما نطق الصنفان المذكوران قبلهم ، ولكنهم آثروا التكذيب ، واعتقدوا الرد ، واستنبطوا خلاف ماظهر منهم ، من الإقرار وإذا رجعوا إلى أهل الإلحاد أعلنوا عندهم بكلمة الكفر ، فهؤلاء المنافقون الذين ذكرهم الله فى كتابه بقوله (وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ [1])

والصنف الرابع : قوم لم يعرفوا التوحيد ، وما نشؤا عليه ، ولا عرفوا أهله ، ولا سكنوا بين أظهرهم ، ولكنهم حين وصلوا إلينا أو وصل إليهم أحد منا خوطبوا بالأمر المقتضى للنطق بالشهادتين ، والإقرار بهما ، فقالوا لانعلم مقتضى هذا اللفظ ، ولانعقل معنى المأمور به من النطق ، فأمروا أن يظهروا الرضا ويفهموا بلامهلة فسكنوا إلى ما قيل لهم ، ونطقوا بالشهادتين ظاهرا ، وهم على الجهل بما يعتدون فيها ، فاخترم أحدهم من حينه ، من قبل أن يأتي منه استفهام أوتصور يمكن أن يكون له معه معتقد ، فيرجى أن لا تضيق عنه سعة رحمة الله عز وجل ، والحكم

---

[1] البقرة : ١٤ ، ١٥

عليه بالنار والخلود فيها مع الكفار . تحكم على غيب الله سبحانه ، وربما كان من هذا الصنف فى الحكم عند الله عز وجل ، قوم رزقوا بعد الفهم وغيب الذهن وفرط البلادة أن يدعوا الى النطق ، فيجيبوا مساعدة ومحاذاة ، ثم يدعوا إلى تفهم المعنى بكل وجه ، فلايتأتى منهم قبول لما يعرض عليهم تفهمه ، كأنما تخاطب بهيمة ، ومثل هذا أيضا فى الوجود كثير ، ولاأحكم على أحد مثله بخلود فى النار ، ولابعد أن هذا الصنف بأسره ، أعنى المخترم قبل تحصيله العقد مع هذا البليد البعيد بعض ماذكره النبي صلى الله عليه وسلم فى حديث الشفاعة : الذين أخرجهم الله عز وجل من النار بشفاعته ، حين يقول تعالى : فرغت شفاعة الملائكة والنبيين ، وبقيت شفاعتى وهو أرحم الراحمين ، فيخرج من النار أقواما لم يعملوا حسنة قط ، ويدخلون الجنة ، ويكون فى أعناقهم سمات ويسمون عتقاء الله عز وجل ، والحديث يطول وهو صحيح ، وإنما اختصرت منه قدر الحاجة على المعنى

وحكم الصنف الأول ، والثانى ، والثالث ، أجمعين أن لايجب لهم حرمة ، ولايكون لهم عصمة ، ولاينسبون إلى إيمان ولاإسلام ، بل هم أجمعون من زمرة الكافرين وجملة الهالكين ، فإن عثر عليهم فى الدنيا قتلوا فيها بسيوف الموحدين ، وإن لم يعثر عليهم فهم صائرون إلى جهنم خالدون : (تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ [1])

فصل

ولما كان اللفظ المنبىء عن التوحيد إذا انفرد عن العقد ، وتجرد عنه ، لم يقع به فى حكم الشرع منفعة ، ولالصاحبه بسببه نجاة ، إلامدة حياته عن السيف أن يراق دمه ، واليدان تسلط على ماله إذا لم يعلم خفي حاله ، حسن فيه أن يشبه بقشر الجوز الأعلى ، فهو لايحتمل ولايرفع فى البيوت ، ولايحضر فى المجالس ، أي مجالس الطعام ، ولا تشتهيه النفوس ، إلامادام منطويا على مطعمه ، صونا على لبّه ، فإذا أزيل عنه

(1) المؤمنون : ١٠٤

بكسر أوعلم منه أنه منطو على فراغ ، أوسوس ، أوطمه فاسد ، لم يصلح لشيء ، ولم يبق فيه غرض لأحد ، وهذا لاخفاء فى صحته ، والغرض بالتمثيل تقريب ماغمض إلى نفس الطالب ، وتسهيل مااعتاص على المتعلم والسامع فهمه ، وليس من شرط المثال أن يطابق الممثل به من كل وجه ، فكان يكون هو ، ولكن من شرطه أن يكون مطابقا للواحد المراد منه

فصل

فإن قلت . فما الذى صدّ هؤلاء الأصناف الثلاثة من أهل النطق عن النظر ، والبحث ، حتى تعلموا ، أو عن الاعتقاد حتى تخلصوا ، من عذاب الله ، وهم فى الظاهر قادرون على ذلك ، وما المانع الخفي الذى منعهم وأبعدهم عنه ، وهم يعلمون أن ماعليهم كبير مؤنة ، ولا عظيم نفقة ؟

فاعلم أن هذا السؤال يفتح بابًا عظيما ، ويهز قاعدة كبيرة ، يخاف من التوغل فيها أن يخرج من المقصد ، ولكن لابد إذا وقع فى الأسماع ، ووعته قلوب الطالبين ، واشتاقت إلى سماع الجواب عنه ، أن نورد فى ذلك قدر مايقع به الكفاية ، وتقنع به النفوس بحول الله وقوته ، نعم ماسبق فى العلم القديم لاتجرى بخلافه المقادير ، فهم من ذلك بإرادة الله عز وجل ، جاء اختصاص قلوبهم بالأخلاق الكلابية ، والشيم الذئابية ، والطباع السبعية ، وغلبتها عليهم والملائكة لاتدخل بيتا فيه كلب ، كذلك قال عليه السلام ، والقلوب بيوت تولى الله بناءها بيده ، وأعدها لأن تكون خزائن علمه ، ومشارق مكنوناته ، ومهبط ملائكته ، ومناشى أنوازه ، ومهابّ نفحاته ، ومجال مكاشفاته ، ومجارى رحمته ، وهيأها لتحصيل المعرفة به ، فتى كان فيها شيء من تلك الأخلاق المذمومة لم يدخلها الملائكة ، ولم ينزل عليها شيء من الخير من قبله ، إذ هى الوسائط بين الله تعالى وبين خلقه ، وهم الوفود منه بالخيرات والموصلون إليه وعنه ، بالباقيات الصالحات ، ولولا تلك الأخلاق المذمومة ، التى حلت فيهم وهي التي ذم الكلب لأجلها لما احترمت الملائكة بإذن الله عن حلولها فيها

وهي لاتخلو من خير تنزل به ، ويكون معها ، فحيثما حلت حل الخير في ذلك القلب بحلولها ، وإنما هي لها حيثما وجدت قلبا خاليا ، ولو حينا من الدهر وزمنا نزلت عليه ، ودخلته ، وثبتت ماعندها من الخير عنده ، فإن لم يظهر على الملائكة مازجها عنه من تلك الأخلاق المذمومة ، بواسطة الشياطين الذين هم فى مقابلة الملائكة ، ثبتت عنده ، وسكنت فيه ، ولم تبرح عنه ، وعمرته بقدر سعة البيت وانشراحه من الخير ، فإن كان البيت كثير الاتساع أكثرت فيه من متاعها ، واستعانت بغيرها ، حتى يمتلىء البيت من متاعها وجهازها ، وهو الإيمان بالله والصلاح ، وضروب المعارف النافعة عند الله عز وجل ، فإذا طرق ذلك البيت طارق شيطان ، ليسرق من ذلك الخير الذى هو متاع الملك ، ويثبت فيه خلقا مذموما لايوجد إلا فى الكلب ، وهو متاع الشيطان ، قاتله الله وطرده عن ذلك المحل ، فإن جاء للشيطان مدد من الهوى ، من قبل النفس ولم يجد الملك نصره ، وهو عزم اليقين من قبل الروح ، انهزم الملك وأخلى البيت ، ونهب المتاع ، وخرب البيت بعد عمارته ، وأظلم نوره ، وضاق بعد انشراحه ، وهكذا حال من آمن وكفر وأطاع وعصى ، وضل واهتدى

فإن قلت : فبين لى أصناف هذه الأخلاق المذمومة ، التى صدت هؤلاء الأصناف المذكورين عن اعتقاد الإيمان ، ونفرت الملائكة عن النزول إلى قلوبهم ، بكشف معانى التوحيد ، ومنعهم من الحلول فيها ، حتى لم ينالوا شيئا من الخيرات الكائن معها

فاعلم أن الأخلاق التى لايجتمع معها الملائكة فى قلب واحد كثيرة ، والتى فى قلوب هؤلاء منها معظمها ، وهي الطمع فى غير خطير ، والحرص على فانٍ حقير

أما الصنف الأول : فإنهم رجعوا وخافوا أن تبدو لهم صحة مايشغلهم عن لذاتهم وينغص عليهم مارغبوا فيه من راحاتهم ، وتكدر لديهم منال شهواتهم ، فأبقوا أمرهم على ماهم عليه

وأما الصنف الثانى والثالث : فصدهم أيضا خوف وجزع ، وحرص على ماألفوه من تبجيل أحدهم أن يزول ، ومؤانسة أشياعهم أن تتغير وتذهب ،

ومواساة إيلافهم أن تنقطع ، واستثقالا لما يشاهدونه من أهل الإيمان أن يلتزموه وفرارا من شرائطه ، وما يصحبه من الأعمال ، والوظائف ، إذ يعتلوه ، والكلب ماذم لصورته ، وإنما ذم بهذه الأخلاق التي هي الطمع في الخسائس ، والجزع من الصبر على مابعده من الفضائل ، حتى احترمت الملائكة أن تدخل بيتا فيه كلب

فإن قلت : فكيف آمن من كفر ، وأطاع من عصى ، واهتدى من ضل ، إذا كانت الشياطين لاتفارق قلب الكافر والعاصي والضال ، بما تثبتون من الأخلاق المذمومة التي هي كلاب نابحة ، وذئاب عادية ، وسباع ضارية ، وأصناف الخير إنما ترد من الله عز وجل بواسطة الملائكة ، وهي لاتدخل موضعا يحل فيه شيء مما ذكرنا ، وإذا لم تدخل لم يصل إلى الخير الذي يكون معها ولم تصل إليه فعلى هذا يجب أن يبقى كل كافر على حاله ، ومن لم يخلق مؤمنا معصوما فلا سبيل له إلى الإيمان على هـــذا المفهوم .

فاعلم أن هذا يستدعي أصنافا من علم القلوب ،ولا سبيل إلى ذلك في مثل هذا المقام المعلوم ، والقول والمعنى في جواب ماسألت عنه ، أن للشيطان غفلات وللأخلاق المذمومة عدمات ، كما أن الملائكة لها عن القلوب غيبات ، ولتواتر الخير عليها فترات ، فإذا وجد الملك كما أعلمتك قلبا خاليا ، ولوزمنا مّا فرّ ودخل فيه ، وأراه ماعنده من الخير ، فإن صادف منه قبولا ، ولما عرض عليه من الخير تشوقا ونزوعا ، أورد عليه مايملأ ويستغرق لبّه ، وإن صادف منه صحوا ، وسمع منه بجنود الشياطين استغاثة وبالأخلاق الكلابية استعانة ،رحل عنه وتركه ، ولهذا قيل ما خلا لب عن لمة ملك أو نزغة شيطان

فإن قلت : فأي بيت فهم عن النبي صلى الله عليه وسلم في الخطاب ، وأي كلب أذهل بيت القلب ، كلب الخلق أو بيت اللبن ، وكلب الحيوان

فاعلم أن الحديث خارج على سبب . ومعناه وجملته أن المقصود بالأخبار هو بيت اللبن ، وكلب الحيوان معلوم ، ولا يبتك في ذلك ، ولكن يستقرأ منه ماقلناه ويستنبط من مفهومه مانبهناك عليه ، ويتخطى منه إلى ماأشرنا لك نحوه ، ولا نكر في ذلك ، إذا دل عليه العلم ، وجملة الاستنباط ، ولم تمجه القلوب المستضاءة

ولم تصادم به شيئا من أركان الشريعة ، فلا تكن جاحدا ، ولا تجزع من تشنيع جاهل ، ولا من نفور مقلد ، فكثيرا ماورد شرع مقرون بسبب فرأى أهل الاعتبار وجه تعديه عن سببه إلى مافي معناه ، ومشابه له من الجهة التي تصلح أن يعديها إليه ، ولولا ذلك لما قال النبي صلى الله عليه وسلم « رُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ وَحَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ »

سؤال

فإن قلت : فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « لَا تَدْخُلِ الْمَلَائِكَةُ بَيْتاً فِيهِ صُورَةٌ » وعلم السبب الذي جاء هذا الحديث عليه وفيه ، فهل يعدى عن سببه ويترقى منه إلى مثل ماترقى من الحديث الآخر ، فهذا كما قيل : الحديث شجون ، وأتبعنا هذا الباب مايقرب منه ويبعد علينا التخلص عنه ، نعم . يترقى منه إلى قريب من ذلك وشبهه ، ويكون هذا الحديث منبها عليه ، وهو أن الصورة المنحوتة قد اتخذت آلهة ، وعبدت من دون الله عز وجل . وقد نبه الله عز وجل قلوب المؤمنين على عيب فعل من رضي بذلك ، ونقص إدراك من دان به حين قال مخبرا عن ابراهيم عليه السلام حيث قال (أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ [1]) فكان امتناع الملائكة من دخول بيت فيه صورة لأجل أن فيه ماعبد من دون الله سبحانه أو ماحكي به ماهو على مثاله ، ويترقى من ذلك المعنى إلى أن القلب الذي هو بيت بناه الله ليكون مهبطا للملائكة ، ومحلا للذكر ، ومعرفة عبادته وحده دون غيره ، فإذا حل فيه معبود غير الله سبحانه وهو الهوى لم تقربه الملائكة أيضا

فإن قيل : فظاهر الحديث يقتضى منافرة الملائكة لكل صورة عموما ، وما ذكرته تعليلا ينبغي أن لا يقتضى إلا منافرة ماعبد ، أو مانحت على مثاله

---

(١) الصافات : ٩٥ ، ٩٦ .

قلنا : تشابهت الصور المنحوتة كلها في المعنى الذى قصد بها التصوير لأجله ، وهو مضارعة ذى الأرواح ، ومانحت للعبادة إنما تصد به تشبيه ذى روح ، فلما كان هذا المعنى الجامع لها وجب تحريم كل صورة منافرة للملائكة

فإن قيل : فما وجه الترخيص فيما رقم فى ثوب ،فذلك لأنها ليست مقصودة فى نفسها وإنما المقصود الثوب الذى رقت فيه

فإن قيل . فما بال الثياب رخص فى محا كاتها بالتصوير ، وذات أنواط فى العرب مشهورة معلومة

فاعلم أن ذات أنواط إنما كانت شجرة فى أيام العرب الجاهلية تعلق عليها يوما فى السنة فاخر ثيابها ، وحلي نسائها ، لأجل اجتماعها عندها وراحتها فى ذلك اليوم ، ولم يكونوا يقصدونها بالعبادة لما كانت بغير صفة التماثيل المنحوتة والأصنام ، ولو كان ذلك ماسأل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم ذات أنواط ، حتي أنكر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك عليهم ، ولو عبدت فقد عبد كثير من خلق الله تعالى ، كالملائكة والشمس والقمر وبعض النجوم والمسيح عليه السلام وعليّ رضي الله عنه ؛ ولم يعبدوا مانحت على شكل النبات ، فلم تعبد من هذه إلا ذات روح ، فما أبعد عن دركها من حرمه الله تعالى إياها ، فله الحمد وهو أهله .

بيان

أصناف أهل الاعتقاد المجرد

وأما أهل الاعتقاد المجرد عن تحصينه بالعلم ، وتوثيقه بالأدلة ، وشدّه بالبراهين فقد انقسموا فى الوجود إلى ثلاثة أصناف

أحدهم : صنف اعتقدوا مضمون ماأقروا به ، وحشوا به قلوبهم من غير تردد ولا تكذيب ، أسروه فى أنفسهم ولكنهم غير عارفين بالاستدلال على مااعتقدوا ، وذلك لفرط بعدهم وغلظ طبائعهم ، واعتياص طرق ذلك عليهم ، ويقع عليهم اسم الموحدين

وتحققنا وجود أمثالهم كثيرا على عهد سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، والسلف الصالحين رضي الله عنهم ، ثم لم يبلغنا أنه اعترض أحد إسلامهم ، ولا أوجب عليهم الخروج منه ، والمعروف عنه ، ولا كلفوا مع قصور فهمهم وبعدهم عن فهم ذلك بعلم الدلالة ، وقراءة البراهين وترتيب الحجاج ، بل تركوا على ماهم عليه ، وهؤلاء عندى معذورون يبعدهم ، ومقبولون بما توافوا عليه من إقرارهم وعقدهم ، والله سبحانه قد عذرهم مع غيرهم بقوله سبحانه (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا [1]) ولا يخرجون عن مقتضى هذه الآيات بحال ، وسنبدي لك طريقا من الاعتبار تعرف به صحة إسلامهم ، وسلامة توحيدهم ، إن شاء الله عز وجل

والصنف الثانى : اعتقدوا الحق مع ما ظهر منهم من النطق ، واعتقدت مع ذلك أنواعا من المخاييل ، قام فى مخيلتها أنها أدلة ، وطآتها براهين وليست كذلك ، وقد وقع فى هذا كثير ممن يشار إليه ، فضلا عمن دونهم ، فإن وقع إلى هذا الصنف من يزعزع عليهم تلك المخاييل بالقدح ، ويبطلها عليهم بالمعارضة أو الاعتراض لم يلتفتوا إليه ، ولا أصغوا لما يأتى به ، ويترفعوا إلى أن يحاوبوه لما يحملهم عليه من سوء الفهم ، أو رداءة الاعتقاد ، وعندهم أن جميع تلك المخاييل فى باب الاستدلال أرسخ من شوامخ الجبال ، فمنهم من يعتقد دليله مذهب شيخه الرفيع القدر ، المطلع على العلوم ، ومنهم من يكون دليله خبرا له ، ومنهم من يكون دليله بعض محتملات آية أوحديث صحيح، ولعمري أنهم ينبغى إذا صادفوا السنة باعتقادهم ، ولم يقعوا فى شيء من الضلال ، أن يتركوا على ماهم عليه ، ولا يحركوا بأمر آخر ، بل يصدقوا بذلك ويسلم لهم ، لئلا يكون إذا تتبع الحال معهم ربما لقنوا شبهة ، أو ترسخ فى نفوسهم بدعة يعسر انحلالها ، أو يقعوا فى تكفير مسلم وتضليله ، بل هناك أسباب كثيرة

واعلم أن اعتقاد الخلائق وعلمها من أغذية النفوس ، فمن رغب فى أكلتها لم يقنع بدونها ، وإذا حصل له ذلك قوي به ، ومن قنع بأيسرها ولم تطمح همته إلى ماهو أعلى من ذلك ضعف ، ولكنه يعيش عيش الطفيف ، وإنما يهلك من لا بلغة له ولا يجدها ، أو يجدها ولكنها تكون مشابهة ممن جاء بعضرة بدعة ، وسموم

(١) البقرة : ٢٨٦

كفر ، فلا تذهل عما يشار لك إليه وإنما المرغوب تنبيهك والله المستعان ، وقلما يين الصنف الثانى والأول من التفاوت من حيث إن أولئك مقلدون فيما يعتقدونه دليلا ، غير أنهم أوثق رباطا من الأولين ، لأن أولئك إن وقع إليهم من شككهم ربما شكوا ، وانحل رباط عقدهم ، وهؤلاء فى الأغلب لاسبيل إلى انحلال عقودهم ، إذ لايرون أنفسهم أنهم مقلدون ، وإنما يظنون أنهم مستدلون عارفون ، فلهذا كانوا أحسن حالا

والصنف الثالث . أقروا واعتقدوا كما فعل الذين من قبلهم ، وندموا النظر أيضا ، ولكنهم لعدم سلوكهم سبيله مع القدرة عليه ، ومعهم من الذكاء والفطنة والتيقظ ، مالو نظروا لعلموا ، ولو استدلوا لتحققوا ، ولو طلبوا لأدركوا سبيل المعارف ووصلوا ، ولكنهم آثروا الراحة ، ومالوا إلى الدعة ، واستبعدوا طريق العلم ، واستثقلوا الأعمال الموصلة إليه وقنعوا بالقعود فى حضيض الجهل ، فهؤلاء فيهم أشكال عند كثير من الناس فى البديهة ، ويتردد حالهم فى النظر ، وهل يسمون عصاة أوغير ذلك ، يحتاج إلى تمهيد آخر ليس هذا مقامه ، والالتفات إلى هذا الصنف أوجب خلاف المتكلمين فى العوام على الإطلاق ، من غير تفريق بين بليد ومتيقظ وفطن ، فنهم من لم ير أنهم مؤمنون ، ولكن لم يحفظ عنهم أنهم أطلقوا اسم الكفر عليهم

ولعلك تقول : إن مذهبهم المشهور ، أن المحل لايخلو عن الصفات إلا إلى ضدها ، فمن لم يحكم له بالإيمان ، حكم عليه بالكفر ، كما أن من لم يحكم له بالحركة ، حكم عليه بالسكون ؛ وكذلك الحياة والموت والعلم والجهل وسائر ماله من الصفات ،

قلنا : فلئن صح ذلك فى الصفات التى هى أعراض ، فقد لايصح فى الأوصاف التى هي أحكام الإيمان ، والكفر والهداية والضلال والبدعة والسنة ربما كانت ليست من قبيل الأعراض ، وإنما ذكرت لك هذا فى معرض الشك ، فى شعوب مانورد على ذلك ، ومنهم من أوجب لهم الإيمان ، ولكن أوجب لهم المعرفة وقدرها لهم ، وعجزهم عن العبادة ، ووجوب العبادة فى الشرع جار على هذا النحو ، وهؤلاء لم يخالفوا المذكورين قبلهم ، لأن أولئك سلبوا الإيمان عمن لم يصدر اعتقاده

عن دليل ، وهؤلاء أوجبوا الإيمان لمن أضافوا إليه المعرفة المشروطة فى صحة الإيمان وإنما فروا عن الشناعة الظاهرة ، فشذوا عن الجمهور بهذا الاحتمال ، وزادوا على أنفسهم أنهم ألمّوا بقول من جعل المعارف كلها ضرورية ، ولم يشعروا بذلك حين قالوا إنما عجزت العامة عن سرد الدليل ، وتعظم العبارة عنه ، وأنه لاتجب عليهم لأنهم إذا نبهوا وعرض عليهم ماقرب من الألفاظ ، واعتادوا من المخاطبات دلائل الحدوث ، ووجوه الافتقار إلى المحدث بعد ، لاعتقدوا وعددوا من هذه المعارف كثيرا ، ووجدوا أنفسهم عارفين بذلك

واعلم أن من يقول إن المعارف كلها ضرورية ، هكذا يقول : إنما افتقر الناس إلى النسبية ، ولم يتمرنوا على العبارة على مواضع العلوم ، وإلا فهم إذا نبهوا عليها وتلطف بهم فى تفهيمها بالزوال إلى ماألفوه من العبارات ، وجدوا أنفسهم غير منكرة لما نبهوا عليه ، وسارعوا إلى الفيئة ، ومثال هذا كمن نسي شيئا كان معه أو إنسانا نصحه أو رآه فنسيه . وغفل عنه لأجل غيبته ثم رآه بعد ذلك فذكر ، فإنه يقال بدا لأنه كان عارفا بما غاب عنه ، لكنه ناس له أو غافل عنه ، ولولا عرفانه به ماوجد عدم الإنكار وسرعة الألفة عنه . وطائفة من المتكلمين أيضا أوجب لهم الإيمان مع عدم المعرفة المشروطة عند أولئك ، وأي الآراء أحق بالحق وأولى بالصواب ، ليس من غرضنا فى هذا الموضع ، وإنما غرضنا تبعيد ماأشاعه فى الإحياء أهل الغلول والإغلال ، فلا يفتح مثل هذا الباب وقد أبدينا من وجه ذلك فى مراقى الزلف ، مايغنى فيها بإذن الله عز وجل



فى بيان أصناف أهل الاعتقاد

تفصيل آخر من جهة أخرى ، هو من تتمة ماجرى ، فلتعلم أن مامنهم صنف إلا وله على التقريب ثلاثة أحوال ، لايستبد أحدهم من أحدها بحكم الاعتقاد الضرورى ،

فاصق الحالات لهم أن يعتقد أحدهم جميع أركان الإيمان على ما يكمل عليه في الغالب ، لكنه على طريق التفاوت كما سبق

الحالة الثانية : أن لايعتقدوا إلا بعض الأركان مما فيه خلاف ، إذا تقر ولم تنصف إليه فى اعتقاده سواء هل يكون مؤمنا أو مسلما أن يعتقد وجود الواحد فقط ، أو يعتقد أنه موجود حي لاغير ، وأمثال هذه التقديرات، ويخلو عن اعتقاد باقى الصفات ، خلوا كاملا لا يخطر بباله ، ولا يعتقد فيها حقا ولا باطلا ولا صوابا ولا خطأ ، ولكن التقدير الذى يعتقده من الأركان الثلاثة موافق للحق غير منسوب لغيره

الحالة الثالثة : أن يعتقد الوجود كما قلنا ، والوحدانية والحياة ، ويكون فيما يعتقد فى باقى الصفات ، على مالا يوافق الحق ما هو عليه مماهو بدعة وضلالة وليس بكفر صريح ، فالذى يدل عليه العلم ، ويستنبط من ظواهر الشرع ، أن أرباب الحالة الأولى والله أعلم على سبيل نجاة ، ومسلك خلاص ، ووصف إيمان ، أو إسلام ، وسواء فى ذلك الصنف الأول والثانى من أهل الاعتقاد ، ويبقى الصنف الثالث على محتملات النظر كما نبهناك عليه

وأما أهل الحالة الثانية : وهي الاقتصار على الوجود المفرد ، أو الوجود ووصف آخر معه ، مع الخلو عن اعتقاد سائر الصفات التى للكمال والجلال وأركانهما ، فالمتقدمون من السلف لم تشتهر عنهم فى صورة المسألة مايخرج صاحب هذا العقد عن حكم الإيمان والإسلام ، والمتأخرون مختلفون ، فكثير خاف أن يخرج من اعتقد وجود الله عز وجل ، وأظهر الإقرار بنبيه صلى الله عليه وسلم من الإسلام ولايبعد أن يكون كثير ممن أسلم من الأجلاف والرعيان ، وضعفاء النساء والأتباع على هذا بلا مزيد عليه ، لوسئلوا واستكشفوا عن الله عز وجل ، هل له إرادة أو بقاء أوكلام أو ما شاكل ذلك ، وهل له صفات معنوية ليست هي هو ، ولاهي غيره ، ربما وجدوا يجهلون هذا ولا يعقلون وجه مايخاطبون به ، وكيف يخرج من اعتقد وجود الله ووحدانيته مع الإقرار بالنبوة ، من حكم الإسلام والنبي صلى الله عليه وسلم

قد رفع القتال والقتل ، وأوجب حكم الإيمان أو الإسلام ، لمن قال «لا إله إلا الله واعتقد عليها ، وهذه الكلمات لا تقتضى أكثر من اعتقاد الوجود مع الوحدة فى الظاهر ، وعلى البديهة من غير نظر ، ثم سمعنا عمن قالها فى صدر الإسلام أنه لم يعلم بعدها إلا فرائض الوضوء والصلاة وهيآت الأعمال البدنية ، والكف عن أذى المسلم ، ولم يبلغنا أنهم درسوا علم الصفات وأحوالها ، ولا هل الله تعالى عالم بعلم ، أو عالم بنفسه ، وهو باق ببقاء ، أو باق بنفسه ، وأشباه هذه المعارف ، ولا يدفع ظهور هذا إلا معاند ، أو جاهل سيرة السلف وما جرى بينهم ، ويدل على قوة هذا الجانب فى الشرع ، أن من استكشف منه على هذه الحالة وتحققت منه ، وأبى أن يذعن لتعلم مازاد على ماعنده ، لم يفت أحد بقتله ولا استرقاقه ، والحكم عليه بالخلود فى النار عسر جدا ، أو خطر عظيم ، مع ثبوت الشرع بأن من قال لا إله إلا الله ، دخل الجنة ، ولعلك تقول : قد قال فى مواطن أخرى إلا بحقها ، ثم تقول اعتقاد باقى الصفات التى بها يكون اعتقاد جلال الله جل وعز وكماله من حقها ، نعم هي من حقها عند من بلغه أمرها ، وسمع بها أن يعتقدها ، وأما من خلا من اعتقادها ولم يقو له أن يلقاها ولم يسمع بها ففيه مرمى هذا النظر ، وعليه يقع مثل هذا الاحتفاظ ، وفى مثله يخاف أن يطلق عليه اسم الكفر ، هذا وأنت تسمع عن الله عز وجل يقول فى الآخرة أخرجوا من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان ، وذكر من المثقال إلى الذرة والخردلة من الإيمان ، إلى أن أخرج منها من لم يعمل حسنة قط ، فما يدريك أن يكونوا هؤلاء وأمثالهم المرادين ، لأن التقدير وقع فى الإيمان لا فى الأعمال

فإن قلت : فإن من الناس وأئمة العلماء من لم يوجب الإيمان لمن اعتقد جميع الأركان إذا لم يصحبها معرفة ، ولم يقصدها دليل ، فكيف بمن فاته اعتقاد بعضها أو كلها

قلنا : قد أريناك وجه الاعتراض على هذا المذهب ، ونبهناك على بعد أهله عن وجه الحق فيه ، وأنهم أرباب تعسف ، ولو استقصى مع كثير منهم القول فى ذلك ، لبدا له أنه تسبب إلى مايظهر له من تصوره عن معرفة ، شرطها فى إيمان غيره ، ولآثر من حسه الركون إلى مارأيناه أولى من رأيه وأحق بالصواب ، ولعدل عن مذهبه ثم بعد ذلك تراهم

حين أخبروا عن سلب الإيمان عنهم، لم يبقوا اسم الكفر عليهم ، ثم يعرضوا على الاستتابة إن كانت من مذهبه ، ثم يحكم فيه بالقتل والاسترقاق، فإذا تأملت هذا لم يخف عليك عيب ماقالوه ، ونقص ماقالوا إليه ، فلنرجع إلى مانحن بسبيله ونستعين بالله عز وجل

أما أرباب الحالة الثالثة : وهي اعتقاد البدعة فى الصفات أو بعضها ، فإن حكمنا بصحة إيمان أهل الحالة المذكورة قبل هذا ، وإسلامهم ، حققنا أمر هؤلاء فيما اعتقدوه إذ لم يقعوا فيه بوجه قصد يقطعهم عن إيصال العذر ، لأن هؤلاء قد حصل لهم فى العقد ماهو شرط الخلاص والنجاة من الهلاك الدائم ، وأصيبوا فيما وراء ذلك ، فإن أمكن ردهم فى الدنيا ، وزجرهم عنه ، إن أظهروا المنع عن الإقلاع ، والرجوع بالعقوبة المؤلمة ، دون قتل كان ذلك ، وإن فاتوا بالموت لم نقصرهم فى اعتقادنا عن أرباب الحالة الثانية المذكورة قبلهم ، والله أعلم بالناجى والهالك من خلقه ، والمطيع والعاصى من عباده هكذا ينبغى أن يكون مذهب من نظر فى خلق الله تعالى بعين الرأفة والرحمة ، ولم يدخل بين الله عز وجل وبين عباده ، فيما غاب عنه علمه وعدم فيه سبيل اليقين ، وفهم معنى قوله عز وجل (وَلاَ تَقْفُ مَالَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً [1]) .

فإن قلت : وأين أنت من تكفير كثير من الناس لجميع أهل البدع عامة وخاصة ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم فى القدرية « إِنَّهُمْ مَجُوسُ هَذِهِ الْأُمَّةِ » وقوله صلى الله عليه وسلم « سَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي إِلَى ثَلاَثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً » وقال عن قوم يخرجون على حين فرقة من الناس « يَقُولُونَ بِقَوْلِ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ أَوْ مِنْ قَوْلِ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ » والأحاديث الواردة فيمن اعتقد شيئا من الأهواء والبدع كثيرة غير هذه ، مما توجب فى الظاهر تكفيرهم بالإطلاق

فاعلم أنه وإن كان كفرهم كثير من العلماء ، فقد أبقى عليهم دينهم ، وتردد فيهم كثير أو أكثر منهم ، وكل فريق منهم فى مقابلة من خالفه ، فليقع التحاكم عند العالم الأكبر

---

(١) الاسراء : ٣٦

المؤيد بالعصمة سيد البشر إمام المتقين صلى الله عليه وسلم . فهو عليه الصلاة والسلام حين قال مجوس هذه الأمة أضافهم إلى الأمة ، وما حكم بأن لم يقل مجوس على الإطلاق ، وحين أخبر عن الفرق أنهم فى النار ، ثما أخبر أنهم خالدون فيها ، وحين قال يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ؛ فقد قال متصلا بهذا القول ، وتتمارى فى الفرق ، وما موضع هذا التمارى من المثل الذى ضربه فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمالى أراك تلاحظ جهة وتترك أخرى ،وتذكر شيئاوتذهل عن غيره ،عليك بالعدل تكن من أهله ،واستعمل التفطن تشاهد العجائب المعجبة ، وتفهم قول الله (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً [1])

فصل

ولما كان الاعتقاد المجرد عن العلم بصحته ضعيفا ، وتمرده عن المعرفة قريبا ممن رآه ألقى عليه شبه القشر الثانى من الجوز ، لأن ذلك القشر يؤكل مع ماهو عليه صونا ، وإذا انفرد أمكن أن يكون طعاما للمحتاج وبلاغا للجائع ، وبالجملة فهو لمن لاشيء معه خير من فقده ، وكذلك اعتقاد التوحيد ، وإن كان مجردا عن سبيل المعرفة وغير منوط بشيء من الأدلة ضعيفا فهو فى الدنيا والآخرة ،وعند لقاء الله عز وجل خير من التعطيل والكفر ومتى ركب أحد هذا فقد وقع فى أعظم الحرج والمنكر

بيان

أرباب المرتبة الثالثة وهو توحيد المقربين

والكلام فى هذا النوع من التوحيد له ثلاثة حدود

أحدها : أن يتكلم فى الأسباب التى توصل إليه ، والمسالك التى يعبر عليها نحوه ، والأحوال التى يتخذها بحصوله كما قدره العز بن العليمى ، واختار ذلك ورضاه وسماه الصراط المستقيم .

---

(1) البقرة : ١٤٣

والحد الثانى : أن يكون الكلام فى عين ذلك التوحيد ونفسه وحقيقته ، وكيف يتصور للسالك إليه والطالب له قبل وصوله إليه ، وانكشافه له بالمشاهدة

والحد الثالث فى ثمرات ذلك التوحيد وما يلقى أهله به ، ويطلعون عليه بسببه ، ويكرمون به من أجله ، ويتحققون من فوائد المزيد من جهته

أما الحد الأول : فالكلام عليه، والبيان له ، والكشف لدقائقه ، وتذلله للصغير والكبير مأمور به ، مشدد فى أمره ، متوعد بالنار على كتمه ، فيه بعث الأنبياء ، ومن أجله أرسل الرسل ، وببيانه للناس كافة نزلت من عند الله عز وجل على أمناء وحيه الصحف والكتب وليقع التفقه فى القلوب بتحقيقه وتصديقه ، أيدت الرسل بالمعجزات ، والأولياء والأنبياء بالكرامات ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وعليه أخذ الله الميثاق على الذين أوتوا الكتاب ليبيننه للناس ولا يكتمونه ، وفيه أنزل الله (يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَاأُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ [1]) وإياه عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله « مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ » وجميع ذلك محصور فى اثنتين العلم بالعبرة ، والعمل بالسنة ؛ وهما مبنيان على آيتين الحرص الشديد ، والنية الخالصة ، والسر فى تحصيلهما اثنان ، نظافة الباطن ، وسلامة الجوارح ، ويسمى جميع ذلك بعلم المعاملة

وأما الحد الثانى : فالكلام فيه أكثر مايكون على طريقة ضرب الأمثال ، تشبيها بالرمز تارة ، وبالتصريح أخرى ، ولكن على الجملة بما يناسب علوم الظواهر ، ولكن يشرف بذلك اللبيب الحاذق على بعض المراد ويفهم منه كثيرا من المقصود ، وينكشف له جل مايشار إليه إذا كان سالما من شرك التعصب ، بعيدا من هوة الهوى ، نظيفا من دنس التقليد

وأما الحد الثالث : فلا سبيل إلى ذكر شيء منه ، إلا مع أهله بعد علمهم به على سبيل التذكار ، لا على التعليم إنما كانت أحكام هذه الحدود الثلاثة على ماوصفناه ،

---

(١) المائدة : ٦٧

لأن الحد الأوّل فيه محض النصح للخلق ، واستنقاذهم من غمرة الجهل ، والتنكيب بهم من مهاوى العطب ، وقودهم إلى معرفة هذا المقام ، وما وراءه مما هو أعلى منه مما لهم فيه الملك الأكبر ، وفوز الأبد ، وقد بين لهم غاية البيان ، وأقيم عليه واضح البرهان ، وهو يومئذ الطريق ، وأول سبيل السعادة ، فمن عجز عن ذلك كان عن غيره أعجز ، ومن سلكه على استقامة فالغالب عليه الوصول ، إن الله لايضيع أجر من أحسن عملا ، ومن وصل شاهد ، ومن شاهد علم ، وذلك غاية المطلوب ، ونهاية المرغوب والمحبوب ، ومن قعد حرم الوصول وما بعده ، (فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً [١]) ومن غاب لم تنفعه الأخبار : ولم يفده كثير من الأحاديث ، وأيضا فإن الأخبار بما وراء الحد الأول والثانى على وجهه لو كشف للخلق كافة ، وأمكن بما أعد من الكلام وجرى بين الناس من صرف التخاطب ، كان فيه زيادة محنة ، وسبب فيه إهلاك أكثرهم ممن ليس من أهل ذلك المقام ، وذلك لغرابة العلم ، وكثرة غموضه ودقة معناه ، وعلوه فى منازل الرفعة وبعده بالجملة والتفصيل ، من جميع ماعهد فى عالم الملك والشهادة ، وخروجه عن تلك الحدود المألوفة ومباينته لكل مانشئوا عليه ، ولم يشاهدوا غيره من محسوسات ومعقولات وضروريات ونظريات ، فلما كان لايدرك شيء من ذلك بقياس ، ولا يتصوّر بواسطة لفظ ولا يحمل عليه مثل ، كما قال عز وجل (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ [٢]) وحكي عن ابن عباس رحمه الله أنه قال : ليس عند الناس من علم الآخرة إلا الأسماء ، وأراد من لم ينكشف شيء له من علمها وحقائقها فى الدنيا ، وأيضا فلو جاز الإخبار بها لغير أهلها لم يكن لهم سبيل إلى تصورها إلا على خلاف ما هي عليه بمجرد تقليد ، ويتطرق إليه من أهل الغفلة وذوى القصور جحود وتبعيد ، فلهذا أمروا بالكتم إشفاقا على من حجب من العلم ولهذا قال سيد البشر صلى الله عليه وسلم « لَا تُحَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا لَمْ تَصِلْهُ عُقُولُهُمْ أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللّهُ وَرَسُولُهُ » وقال صلى الله عليه وسلم « ماحدّث

(١) النساء : ٩٥ (٢) السجدة : ١٧

أَحَدُكُمْ قَوْماً بِحَدِيثٍ لَمْ تَصِلْهُ عُقُولُهُمْ إِلَّا كَانَ عَلَيْهِمْ فِتْنَةً » وعلى هذا يخرّج قول المشايخ. إفشاء سر الربوبية كفر ، رزقنا الله وإياكم قلوبا واعية الخير ، إنه وليّ كل صالح ، وإذا علمت أن الحد الأوّل قد تقرر علمه فى كتب الرواية والدراية ؛ وملئت منه الطروس ، وكثرت به فى المحافل الدروس ، وهو غير محجوب عن طالب ، ولا ممنوع عن راغب ، قد أمر الجهال به أن يتعلموه ، والعلماء أن يبذلوه ويعلموه ، فلا نعيد فيه ههنا قولا ، ولما كان حكم الحد الثالث الكتم تارة ، وتسكيت الكلام عنه مع غير أهله على كل حال ، لم يكن لنا سبيل إلى تعدّ إلى محدودات الشرع فلنثن العنان إلى الكلام بالذى يليق بهذا الحال والمقام ، فنقول :

أرباب المقام الثالث فى التوحيد ، وهم المقربون ، على ثلاثة أصناف ، وعلى الجملة فكلهم نظروا إلى المخلوقات فرأوا علامات الحدوث فيها لائحة ، وعاينوا حالات الافتقار إلى الله تعالى عليهم واضحة ، وسمعوا جميعها تدل على توحيده وتفريده راشدة ناصحة ، ثم رأوا الله تعالى بإيمان قلوبهم ، وشاهدوه بغيب أرواحهم ، ولاحظوا جلاله وجماله بخفي أسرارهم ، وهم مع ذلك فى درجات القرب على قدر حظ كل واحد منهم فى اليقين وصفاء القلب ، وهؤلاء الأصناف الثلاثة إنما عرفوا الله سبحانه بمخلوقاته ، وانقسامهم فى تلك المعرفة كانقسام حفاظ تلاوة القرءان مثلا ، فمن حافظ لبعضه ويكون ذلك البعض أكثر ، أو كثيرا منه دون كماله ، ومن حافظ لجميعه لكنه متلعثم فيه ، متوقف على الانهمار فى قراءته ، ومن حافظ فى تلاوته غير متوقف فى شيء منه ، وكلهم ينسب إليه ويعد فى المشهد والمغيب من أهله ، وكذلك أهل هذه المرتبة أيضا منهم متوصل إلى المعرفة من قراءة صفحات أكثر المخلوقات ، أوكثير منها ، وربما كان فيما يقرأ من الصفحات مايغم عليه ، ومن قارىء لجميعها متفهم لها ، لكن بنوع تعب ، ولزوم فكرة ، ومداومة عبرة ، ومن ماهر فى قراءتها مستخرج لرموزها ، ناقد البصيرة فى رؤية حقيقتها ، مفتوح السمع ، تناطقه الأشياء فى فراغه وشغله ، وبحسب ذلك اختلف أحوالهم ، فى الخوف والرجاء والقبض والبسط والفناء والبقاء ولامزيد على هذا المثال ، فهو أصلح لذوى الأفهام من شمس النهار وقت الزوال ،

وعلمت لم سمي أهل هـذه المرتبة مقربين ؛ فذلك لبعدهم عن ظلمات الجهل وقربهم من أنوار المعرفة والعلم ، ولا أبعد من الجاهل ، ولاأقرب من العارف العالم ، والقرب والبعد ههنا عبارتان عن حالتين على سبيل التجوز فى لسان الجمهور ، وعلى الحقيقة عند المستعملين لهما فى هذا الفن أحد الحالتين ، عماء البصيرة ، وانطماس القلب ، والخلوّ عن معرفة الرب سبحانه وتعالى ، ويسمى هذا بعد مأخوذ من البعد عن محل الراحة والمنزل الواجب ، وموضع العمارة والأنس ، والانقطاع فى مهامـه القفر وأمكنة الخوف ، ومظان الانفراد والوحشة

والحالة الثانية : عبارة عن اتّقاد الباطن ، واشتعال القلب ، وانفساح الصدر ، بنور اليقين والمعرفة والعقل ، وعمارة البيت بمشاهدة ماغاب عنه أهل الغفلة واللهو ، ولكنه يدل على أنه لم يصل

لعلك تقول أرى بعض أئمة الكلام عن لحوق هذا المقام كأن لم يضربوا فيه بسهم ، ولم يفز قدحهم منه بحظ ولاسهم ، وأراهم عند الجمهور فى الظاهر . وعند أنفسهم أنهم أهل الدلالة على الله تعالى ، وقادة الخلق إلى مراشدهم ، ويجاهدون أرباب النحل المردية . والملل الضالة المهلكة ، وقـد سبق فى الإحياء أنهم مع العوام فى الاعتقاد سواء ، وإنما فارقوهم بإحسانهم حراسة عقودهم

فاعلم أن مارأيت فى الإحياء صحيح ، ولكن بقى فى كشفه أمر لايخفى على المستبصرين ولا يغيب عن الشاذين ، إذا كانوا منصفين ، وهو أن المتكلمين من حيث صناعة الكلام فقط ، لم يفارقوا عقود العوام ، وإنما فارقوهم بالجدل عن الانخرام ، والجدل علم لفظي ، وأكثره احتيال وهمي ، وهو عمل النفس ، وتخليق الفهم ، وليس بثمرة المشاهـدة والكشف ، ولأجل هذا كان فيه السمين والغث ، وشاع فى حال النضال إيراد القطعى وما هو حكمه من غلبة الظن ، وإبداء الصحيح ، وإلزام مذهب الخصم ، والمقام المشار إليه بالذكر وشبهه ، إنما هو علم التوحيد ،وفهم الأحوال ومعرفته باليقين التام ، والعلم المضارع للضرورى ، بأن لاإله إلا الله ، إذ لافاعل غيره ، ولا حاكم فى الدارين سواه ، ومشاهدة القلوب لما حجب من الغيوب ، ومن أين للنازل طي المنازل، ومالعلم الكلام مثل هذا المقام

بل هو من خدام الشرع ، وحراس متبعيه من أهل الاختلاس والقطع ، وله مقام على قدره ، ويقطع به ولكن ليس عن مطالع الأنوار ، ومدارك الاستبصار والمدار فى أوقات الضرورات والاختيار ، وبين مايراد لوقت حاجته إن دعت وخصام صاحب بدعة ومناضلة ذى ضلالة بما ينغص على ذوى اليقين العيش ، ويشغل الذهن ، ويكدر النفس . وما أهله الذين حفظ عنهم ووقع علمه فيما مضى من الزمان إليهم ، لانقول فى أكثرهم إنهم لايحسنون غيره ، ولا يختصون بالتوحيد بمقام سواه بما هو أعلى منه ، بل الظن بهم أنهم علماء مثل ماذكرنا ، فهم نصراء لكنهم لم يبدوا من العلم فى الظاهر إلا ما كانت الحاجة إليه أمس ، والمصلحة به لتوجه الضرورة أعم وأوكد ، ولما كان نجم فى وقتهم من البدع ، وظهر من الأهواء وشاع من تشتيت كلمة أهل الحق ، وتجرأ العوام مع كل ناعق ، فرأوا الرد عليهم ، والمنازعة لهم ، والسعي فى اجتماع الكلمة على السنة بعد افتراقها وإهلاك ذوى الكيد فى احتيالهم ، وإخماد نارهم الذين هم أهل الأهواء والفتن ، وأولى بهم من الكلام بعلوم الإشارات ، وكشف أحوال أرباب المقامات ، ووصف فقه الأرواح والنفوس ، وتفهم كل ناطق وجامد ، فإن هذه كلها وإن كانت أسنى وأعلى فإن ذلك من علم الخواص ، وهم مكفيون المؤنة ، والعامة أحق بالحفظ ، وعقائدهم أولى بالحراسة ، واستنقاذ من يخاف عليه الهلاك أولى من مؤانسة وحيد ، والتصدق على ذى بلغة من العيش ، فكيف إن كان عن غناء ، وأيضا فإن علم الكلام إنما يراد كما قلنا للجدال ، وهو يقع من العلماء العارفين مع أهل الإلحاد والزيغ ، لقصورهم عن ملاحظة الحق موقع السيف للأنبياء والمرسلين عليهم السلام ، بعد التبليغ مع أهل العناد ، والتمادى على الغي وسبيل الفساد ، فكما لايقال السيف أبلغ حجة النبي صلى الله عليه وسلم ، كذلك لايقال علم الكلام والجدال أبلغ مقام من ظهر منه من العلماء ، وكما لايقال فى الصدر الأول فقهاء الأمصار ، ومن قبلهم حين لم يحفظ عنهم فى الغالب إلا علوم أخر ، كالفقه والحديث والتفسير ، لأن الخلق أحوج إلى علم ماحفظ عنهم ، وذلك لغلبة الجهل على أكثرهم ، فلولا أن حفظ الله تعالى تلك العلوم بمن ذكرنا لجهلت العبارات ، وانقطع علم الشرع . ونحن مع هذه الحالة نعلم أنهم عارفون بالتوحيد على جهة اليقين ، بغير طريق علم الكلام

والجدل ، يتحلون بالمقامات المذكورة ، وإن لم يشتهر عنهم ذلك اشتهار ماأخذه عنهم الخاص والعام ، ومثل ذلك حالة الصحابة رضي الله عنهم بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، لما خافوا دروس الإسلام ، وأن يضعف ويقل أهله ، ويرجع البلاد والعامة إلى الكفر كما كانوا أول مرة ، فقد مات صاحب المعجزة صلى الله عليه وسلم ، والمبعوث لدعوة الحق عليه السلام ، رأوا أن الجهاد والرباط فى ثغر العدو والغزو فى سبيل الله ، وضرب وجوه الكفر بالسيف ، وإدخال الناس فى دين الله ، أولى بهم من سائر الأعمال ، وأحق من تدريس العلوم كلها ، ظاهرا وباطنا ، وإنما كانت تؤخذ عنهم علوم الشرع على الأقل ، وهم فى حال ذلك الشغل والنظر إلى حال العموم أوكد من النظر إلى الخصوص ، لأن الخصوص لهم بأنفسهم عناء ، ولهم بحالهم قيام ، والعموم إن لم يكن مشتغلا بهم ، ذائدا لهم عن هلكاتهم وسائقا بهم إلى مراشدهم وصلاحهم ، كان الهلاك إليهم أسرع ، ثم لايكون من بعد ذلك أن فسد حال العموم للخصوص قدر ، ولايظهر لهم نور ، ولايقدرون على شيء كامل من البر ، فلا خاصة إلا بعامة ، ولقد كانت رعاية النبي صلى الله عليه وسلم بحال الجماهير أكثر ، والخوف عليهم من الزيغ والضلال والهلاك أشد ، واللطف بهم فى تخفيف الوظائف والأخذ بالرفق أبلغ ، وكان أهل القوة وذوى البصائر فى الحقائق يأخذون أنفسهم بالمشقات ، وكان هو صلى الله عليه وسلم يحب أن يعمل بالعمل من الطاعة فيما يمنعه منه ، أو من المداومة عليه إلا خوف أن يفرض على أمته ، حين علم من أكثرهم الضعف ، ولم يكره لهم وفيه زيادة الأجر ، وكثرة الثواب والقرب من الله تعالى ، ولكن خاف عليهم أن يقعوا فى تضييع الفرض ، فيكون عليهم كفل من الوزر ، ألا ترى كيف نهى الخلق عن قيام الليل كله ، وكان عثمان رضي الله عنه يقومه فلم ينهه ، ومنع السيف من كل من أراد أخذه بما شرط عليه فيه ، حتى جاء من علم منه القدرة على الوفاء بما شرط عليه فأعطاه إياه ، وقال لعائشة رضي الله عنها « لَوْلَا حِدْثَانُ عَهْدِ قَوْمِكِ بِالْكُفْرِ لَرَدَدْتُ الْبَيْتَ عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ » وقال للأنصار « أَمَا تَرْوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاءِ وَالْبَعِيرِ فَتَذْهَبُونَ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى رِحَالِكُمْ » ومع ذلك فالذى حفظ عنه صلى الله عليه وسلم ، وعن الصحابة

من بعده ، وفقهاء الأمصار ، وأعيان المتكلمين من الإشارات لتلك العلوم المذكورة كثير لايحصى ، وإنما القليل من حمله اليوم عنهم ، وتفقه مثلهم فاقصد تجد ، واقصد لاقتباس الحديث والتواريخ ومصنفات العلوم توقن (وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ [1])

بيان

المرتبة الرابعة

وهو توحيد الصديقين : وأما أهـل المرتبة الرابعة ، فهم قوم رأوا الله سبحانه وتعالى وحده ، ثم رأوا الأشياء بعد ذلك به فلم يروا فى الدارين غيره ، ولااطلعوا فى الوجود على سواه ، فقد كان بيان إشارات الصحابة رضي الله عنهم أجمعين فيما خصوا من المعرفة فى هجيراهم ، فكان هجير أبي بكر الصدّيق رضى الله عنه لاإله إلا الله ، وكان هجير عمر رضى الله عنه الله أكبر ، وكان هجير عثمان رضى الله عنه سبحان الله ، وكان هجير عليّ رضي الله عنـه الحمد لله ، فاستقرى السابقون من ذلك أن أبا بكر لم يشهد فى الدارين غير الله سبحانه وتعالى ، فلذا كان الصدّيق وسمي به كما علمت ، وكان يقول : لاإله إلا الله، وكان عمر يرى مادون الله صغيرا مع الله فى جنب عظمته ، فيقول : الله أكبر ، وكان عثمان لايرى التنزيه إلا لله تعالى ، إذ الكل قائم به غير معرى من النقصان والقائم بغيره معلول ، فكان يقول : سبحان الله ، وعليّ لايرى نعمة فى الدفع والرفع والعطاء والمنع ، فى المكروه والمحبوب ، إلا من الله سبحانه ، فكان يقول :الحمدلله ، وأهل هذه الرتبة على الجملة فى حال خصوصهم فيها صنفان ، مريدون ومرادون ، فالمريدون فى الغالب لابد لهم من أن يحلوا فى المرتبة الثالثة ، وهي توحيد المقربين ، ومنها ينتقلون وعليها يعبرون إلى المرتبة الرابعة ، ويتمكنون فيها ، ومن أهـل هذا المقام يكون القطب والأوتاد والبدلاء ، ومن أهل المرتبة الثالثة ، يكون النقباء والنجباء والشهداء و الصالحون والله أعلم

فإن قلت : أليس الوجود مشتركا بين الحادث والقديم ، والمألوه والإله ،

---

(١) البقره : ٢٦٩

ثم معلوم أن الإله واحد ، والحوادث كثيرة فكيف يرى صاحب هذه المرتبة الأشياء شيئا واحدا ، أذلك على طريق قلب الأعيان ، فتعود الحوادث قديمة ، ثم تتحد بالواحد فترجع هي هو ، وفى هذا من الاستحاله والمروق عن مصدر العقل مايغنى عن إطالة القول فيه ، وإن كان على طريق التخييل للولي لما لاحقيقة له فكيف يحتج به ، أو كيف يعدّ حالا لولي أو فضيلة لبشر

الجواب عن ذلك : أن الحوادث لم تنقلب إلى القدم ، ولم تتحد بالفاعل ، ولا اعترى الولي تخييل فتخيّل مالا حقيقة له ، وإنما هو ولي مجتبى ، وصديق مرتضى ، خصه الله تعالى بمعرفته على سبيل اليقين ، والكشف التام ، وكشف لقلبه مالو رآه ببصره عيانا ماازداد إلا يقينا ، وإن أنكرت أن يكون وهب الله المعرفة به على هذا السبيل أحدا من خلقه ، فما أطمّ مصيبتك وما أعظم العزاء فيك ، حين فتشت الخلق بعيارك ، وكلتهم بمكيالك وفضلت نفسك على الجميع ، إذ لاسبب لإنكارك إن صح ، إلا أنك تخيلت أنه لم يرزق أحدا مالم ترزق ، أو يخص من المعرفة مالم تخص فإذا تقررت هذه القاعدة فصار ما كشف لقلبه لايخرج منه ، وما اطلع عليه لا يغيب عنه ، وما ذكره من ذلك لا ينساه ولا فى حال نومه وشغله ، وهذا موجود فيمن كثر اهتمامه بشيء ، وثبت فى قلبه حاله إنه إذا نام أو اشتغل لم يفقده فى شغله ونومه كما لايفقده فى يقظته وفراغه ، ولهذا والله أعلم إذا رأى الولي المتمكن فى رتبة الصدّيقين مخلوقا كان حيا أو جمادا صغيرا أو كبيرا ، لم يره من حيث هو هو ، وإنما يراه من حيث أوجده الله تعالى بالقدرة ، وميزه بالإرادة على سابق العلم القديم ، ثم أدام القهر عليه فى الوجود ، ثم لما كانت الصفات المشهورة آثارها فى المخلوقات ليست لغير الموصوف الذى هو الله عز وجل له ألهت الولي عن غيره ، وصار لم ير سواه ومعنى ذلك أنه لايتميز بالذكر فى سر القلب وخير المعرفة ولا بالإدراك فى ظاهر الحس ، دون ما كان موجودا به وصار عنه فانيا ، فبعد هذا على من أصحبه أن أن لايحتاج إليها مع هذا الوضوح ، ولا فهم إلا بالله ، ولا شرح إلا منه ، ولا نور إلا من عنده ، وله الحول والقوة وهو العلي العظيم

فصل

وأما معنى إفشاء سر الربوبية كفر فيخرج على وجهين

أحدهما . أن يكون المراد به كفرا دون كفر ، ويسمى بذلك تعظيما لما أتى به المفشى وتعظيما لما ارتكبه

ويعترض هذا بأن يقال لا يصح أن يسمى هذا كفرا ، لأنه ضد الكفر ، إذ الكفر الذى سمى على معناه ساتر ، وهذا المفشى للسر ناشر ، وأين النشر والإظهار من التغطية ، والإعلان من الكتم ، واندفاع هذا هين بأن يقال ، ليس الكفر الشرعي تابع الاشتقاق ، وإنما هو حكم لمخالفة الأمر ، وارتكاب النهي ، فمن رد إحسان محسن ، أو جحد نعمة متفضل ، فيقال عليه كافر لجهتين

إحداهما : من جهة الاشتقاق ، ويكون إذ ذاك اسما ينبىء عن وصف

والثانية : من جهة الشرع ، ويكون إذ ذاك حكما يوجب عقوبة ، والشرع قد ورد بشكر المنعم ، فافهم ولا تذهب مع الألفاظ ، ولا يغرنك العبارات ، ولا تحجبك التسميات ، وتفطن لخداعها ، واحترس من استدراجها ، فإذاً من أظهر ما أمر بكتمه كان كمن كتم ما أمر بنشره ، وفى مخالفة الأمر فيهما حكم واحد على هذا الاعتبار ، ويدل على ذلك من جهة الشرع ، قوله صلى الله عليه وسلم « لَا تُحَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا لَمْ تَصِلْهُ عُقُولُهُمْ » وفى ارتكاب النهي عصيان ، ويسمى فى باب القياس على المذكور كفران البدن ،

وقسمة أخرى : وذلك أن العلم إن حلل إلى ما علم من أجزائه بالاستقراء فرأس الإنسان تشابه سماء العالم ، من حيث إن كل ما علا فهو سماء ، وحواسه تشابه الكواكب والنجوم ، من حيث إن الكواكب أجسام مشفة تستمد من نور الشمس فتضيء بها ، والحواس أجسام لطيفة مشفة تستمد من الروح ، فيضيء مسلك المدركات ، وروح الإنسان مشابهة للشمس ، فضياء العالم ، ونور نباته ، وحركة ضواريه ، وحيوانه

وحياته ، فيها تظاهر بتلك الشمس ، وكذلك روح الإنسان به حصل فى الظاهر نمو أجزاء بدنه ، ونبات شعره ، وحاول حياته ؛ وجعلت الشمس وسط العالم ، وهي تطلع بالنهار ، وتغرب بالليل ، وجعلت الروح وسط جسم الإنسان ، وهي تغيب بالنوم ، وتطلع باليقظة ونفس الإنسان تشابه القمر ، من حيث إن القمر يستمد من الشمس ، ونفسه تستمد من الروح ، والقمر خالف الشمس ، والروح خالف النفس ، والقمر آية ممحوة ، والنفس مثلها ، ومحو القمر فى أن لايكون ضياؤه منه ، ومحو النفس فى أن ليس عقلها منها ، ويعترى الشمس والقمر وسائر الكواكب كسوف ، وتعترى النفس والروح وسائر الحواس غيب وذهول ، وفى العالم نبات ومياه ورياح وجبال ، وحيوان ، وفى الإنسان نبات ، وهو الشعر ، ومياه وهي العروق ، والدموع والريق والدم ، وفيه جبال ، وهي العظام ، وحيوان وهي هوام الجسم ، فحصلت المشابهة على كل حال ، ولما كانت أجزاء العالم كثيرة ، ومنها ماهي لنا غير معروفة ، ولا معلومة ، كان فى استقصاء مقابلة جميعها تطويل ، وفيما ذكرناه مايحصل به لذوى العقول تشبيه وتمثيل

فإن قلت : أراك فرقت بين النفس والروح ، وجعلت كل واحد منهما غير الآخر ، وهذا قلما تساعد عليه ، إذ قد كثر الخلاف فى ذلك

فاعلم أنه إنما على الإنسان أن يبنى كلامه على مايعلم لا على مايجهل ، وأنت لو علمت النفس والروح علمت أنهما اثنان

فإن قلت : فقد سبق فى الإحياء أنهما شيء واحد ، وقلت فى هذه الإجابة إن النفس من أسماء الروح ، فالذى سبق فى الإحياء ورأيت فى هذه الإجابة ، وهو شيء واحد لايتناقض مع ماقلناه الآن ، وذلك أن لهما معنى يسمى بالروح تارة ، وبالنفس أخرى ، وبغير ذلك ، ثم لايبعد أن يكون لها معنى آخر ينفرد باسم النفس فقط ، ولا يسمي بروح ولا غير ذلك ، فهذا آخر الكلام فى أحد وجهي الإضافة التى فى ضمير صورته ، والوجه الآخر وهو أن من حمل إضافة الصورة إلى الله تعالى على معنى التخصص به ، فذلك لأن الله سبحانه نبأ بأنه حي قادر ، سميع بصير ، عالم مريد ، متكلم ، فاعل ، وخلق آدم عليه السلام ، حيا ، قادرا ، ، عالما ، سميعا ، بصيرا ، مريدا ، متكلما ، فاعلا ، وكانت لآدم عليه

السلام صورة محسوسة ، مكنونة مخلوقة ، مقدرة بالفعل ، وهي لله تعالى مضافة باللفظ ، وذلك أن هذه الأسماء لم تجتمع مع صفات آدم إلا فى الأسماء التى هي عبارة تلفظ فقط ، ولا يفهم من ذلك نفي الصفات فليس هو مرادنا ، وإنما مرادنا تباين مابين الصورتين بأبعد وجوه الإمكان ، حتى لم تجتمع مع صفات الله تعالى إلا فى الأسماء الملفوظ بها لاغير ، وفرارا أن نثبت صورة لله تعالى ، ويطلق عليها حالة الوجود ، فافهم هذا ، فإنه من أدق مايقرع سمعك ، ويلج قلبك ، ويظهر لعقلك ، ولهذا قيل لك ، فإن كنت تعتقد الصورة الظاهرة ومعناه إن حملت إحدى الصورتين على الأخرى فى الوجود ، تكن مشبها مطلقا ومعناه تتيقن أنك من المشبهين لا من المنزهين ، على نفسك بالتشبيه معتقدا ، ولا تنكر كما قيل : كن يهوديا صرفا وإلا فلا تلعب بالتوراة ، أى تتلبس بدينهم وتريد أن لاتنسب إليهم ، أى لاتقرأ التوراة ولا تعمل بها ، وإن كنت تعتقد الصورة الباطنة ، منزها مجللا ومقدسا مخلصا ، أى ليس تعتقد من الإضافة فى الضمير إلى الله تعالى إلا الأسماء دون المعانى ، فتلك المعانى المسماة لايقع عليها اسم صورة على حال ، وقد حفظ عن الشبلي رحمة الله عليه ، فى معنى ماذكرناه من هـــذا الوجه قول بليغ مختصر ، حين سئل عن معنى الحديث ، فقال : خلقه الله على الأسماء والصفات ، لا على الذات .

فإن قلت ، فكذا قال ابن قتيبة فى كتابه المعروف بتناقض الحديث ، حين قال هو صورة لا كالصور ، فلم أخذ عليه فى ذلك ، وأقيمت عليه الشناعة به ، وأطرح قوله ، ولم يرضه أكثر العلماء وأهل التحقيق .

فاعلم أن الذى ارتكبه ابن قتيبة عفا الله عنه نحن أشد إعراضا عنه ، وأبلغ فى الإنكار عليه . وأبعد الناس عن تسويغ قوله ، وليس هو الذى ألممنا نحن به وأفدناك بحول الله وقوته إياه ، بل يدل منك أنك لم تفهم غرضنا ، وذهلت عن تعقل مرادنا ، ولم تفرق بين قولنا وبين ماقاله ابن قتيبة ، ألم أخبرك أننا أثبتنا الصورة فى التسميات ، وهو أثبتها حالة للذات ، فأين من لب الجوز ، قشور تفرقع ، والذى يغلب على الظن فى ابن قتيبة أنه لم يقرع سمعه هذه الدقائق التى أشرنا إليها وأخرجناها إلى حيز الوجود ، بتأييد الله تعالى بالعبارة عنها ، وإنما ظهر له شيء لم يكن له به إلف وعلاه الدهش ، فتوقف بين ظاهر الحديث الذى هو

موجب عنـد ذوى القصور تشبيها ، وبين التأويل الذى ينفيه ، فأثبت المنى المرغوب عنه ، وأراد نفي ما خاف من الوقوع فيه : فلم يتأت له اجتماع ما رام ، ولا نظام ما اقترف فيما هو صورة لا كالصورة ، ولـكل ساقطة لاقطة ، فتبادر الناس إلى الأخذ عنه

فصـــل

ومعنى قاطع الطريق فإنك بالواد المقدس طوى : أي دم على ما أنت عليه من البحث والطلب ، فإنك على هداية ورشد ، والوادى المقدس عبارة عن مقام الـكليم موسي عليه السلام ، مع الله تعالى فى الوادى وإنما تقدس الوادى بما أنزل فيه من الذكر ، وسمع كلام الله تعالى ، وأقيم ذكر الوادى مقام ما حصل فيه لحذف المضاف وأقام المضاف اليه مقامه و إلا فالمقصود ما حذف لا ما أظهر بالقول ، إذ المواضع لا تأثير لها وإنما هى ظروف

فصـــل

ومعنى فاستمع أى سر بقلبك لما يوحى ، فلعلك تجد على الناو هدى ، ولعلك من سرادقات العز تنادى بما نودي به موسى ، إنى أنا ربك ، أي فرغ قلبك لما يرد عليك من فوائد المزيد ، وحوادث الصدق ، وثمار المعارف ، وارتياح سلوك الطريق ، وإشارات قرب الوصول ، وسر القلب ، كما يقول أدن الرأس ، ووسع الآذان ، ومايوحى أي مايرد من الله تعالى بواسطة ملك ، أو إلقاء فى روع ، أو مكاشفة تحقيقية ، أو ضرب مثل مع العلم بتأويله ، ومعنى لعلك حرف ترويح ، ومعنى ان لم تدركك آفة تقطعك عن سماع الوحي من إعجاب بحال ، أو إضافة دعوى إلى النفس أوقنوع بما وصلت إليه ، واستبداد به عن غيره ، وسرادقات المجد ، هي حجب الملكوت ، وما نودي به موسى ، هو علم التوحيد التى وسعت العبارة اللطيفة عنه بقوله حين قال له ياموسي إنى أنا الله لا إله إلا أنا ، والمنادى باسمه أزلا وأبدا ، هو اسم موسى لما سمي السالك الموجود فى كلام الله تعالى فى أزل الأزل ، قبل أن يخلق موسى لا إلى أول ، وكلام الله تعالى صفة له لا يتغير كما لا يتغير هو ، إذ ليست صفاته المنوية لغيره ، وهو الذي لا يحول ولا يزول ، وقد ذل قوم عظم اقتراحهم وهو انهم ، حملوا صدور هذا القول على اعتقاد اكتساب النبوة

وعياذ بالله من أين يحتمل هذا القول ما حملوه من المذهب أليسوا وهم يعرفون أن كثيرا ممن يكون بحضرة ملك من ملوك الدنيا وهو يخاطب إنسانا آخر قلده ولاية كبيرة وفوض إليه عملا عظيما ، وحباه حباء خطيرا ، وهو ينادى باسمه أو يأمره بما يمتثل من أمره ، ثم إن السامع للملك الحاضر معه غير المولى ، لم يشارك المولى المخلوع عليه ، والمفوض إليه فى شيء مما ولي وأعطى ، ولم تجب له بسماعه ومشاهدته أكثر من حظوة القربة ، وشرف الحضور ، ومنزلة المكاشفة من غير وصول إلى درجة المخاطب بالولاية ، والمفوض إليه الأمر ، ولذلك هذا السالك المذكور إذا وصل فى طريقه ذلك ، بحيث يصل بالمكاشفة والمشاهدة واليقين التام الذى يوجب المعرفة والعلم بتفاصيل المعلوم ، فلا يمتنع أن يسمع مايوحى لغيره من غير أن يقصد هو بذلك ، إذ هو محل سماع الوحي على الدوام ، وموضع الملائكة ، وكفى بها أنها الحضرة الربوبية ، وموسى عليه السلام ما استحق الرسالة والنبوة ، ولا استوجب التكليم وسماع الوحي مقصودا بذلك ، بحلوله فى هذا المقام الذى هو المرتبة الثالثة فقط ، بل قد استحق ذلك بفضل الله تعالى حين خصه بمعنى آخر ترقى إلى ذلك المقام أضعافا ، فجاوز المرتبة الرابعة ، لأن آخر مقامات الأولياء أول مقامات الأنبياء ، وموسى عليه السلام نبي مرسل ، فمقامه أعلى بكثير مما نحن آخذون فى أطرافه لأن هذا المقام الذى هو المرتبة الثالثة ، ليست من غايات مقام الولاية بل هو إلى مباديها أقرب منه إلى غايتها ، فمن لم يفهم درجات المقام ، وخصائص النبوة ، وأحوال الولايات كيف يتعرض للكلام فيها ، والطعن على أهلها ، هذا لا يصلح إلا لمن لا يعرف أنه مؤاخذ بكلامه ، محاسب بظنه ويقينه ، مكتوب عليه خطراته ، محفوظ عليه لحظاته ، مخلصا منه يقظاته وغفلاته فا (مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ [١])

فإن قلت : أراك قد أوجبت له نداء الله تعالى ، ونداء كلامه ، والله تعالى يقول (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُم مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ [٢]) فقد نبه أن تكليم الله تعالى لمن كلمه من الرسل إنما هو على سبيل المبالغة فى التفضيل ، وهذا لا يصلح أن يكون لغيره ليس بنبي ولا رسول ، وإذا بان السبب وقصد

(١) ق : ١٨ (٢) البقرة : ٢٥٣

بادر الشك العارض فى مسالك الحقائق فنقول : ليس فى الآية مايرد ماقلنا ، ولا يكسره لأنا ماأوجبنا أنه كلمه قصدا ولا توخاه بالخطاب عمدا

وانما قلنا يجوز أن يسمع ما يخاطب الله تعالى به غيره مما هو أعلى منه أليس من يسمع كلام إنسان مثلا مما يتكلم به غير السامع فيقال فيه إنه كليمه وقد حكي أن طائفة من بنى إسرائيل سمعوا كلام الله تعالى الذى خاطب به موسى حين كلمه ثم اذا ثبت ذلك لم يجب لهم به درجة موسى عليه السلام ولا المشاركة فى نبوته ورسالته على أنا نقول نفس ورود الخطاب إلى السامعين من الله تعالى ، يمكن الاختلاف فيه فيكون النبي المرسل يسمع كلام الله تعالى عز وجل الذاتى القديم ، بلا حجاب في السمع ، ولا واسطة بينه وبين القلب ، ومن دونه يسمعه على غير تلك الصورة ، مما يلقى فى روعه ، ومما ينادى به فى سمعه أو سره ، وأشباه ذلك كما ذكر أن قوم موسى عليه السلام ، حين سمعوا كلام الله سبحانه مع موسى أنهم سمعوا صوتا كالشبور وهو القرءان ، فاذا صح ذلك فيتباين المقامات أختلف ورود الخطاب ، فموسى سمع كلام الله بالحقيقة الذى هو صفة له بلا كيف ولا صورة نظم الحروف ، ولا أصوات ، والذين كانوا معه أيضا ، سمعوا صوتا مخلوقا جعل لهم علامة ودلالة على صحة التكليم وخلق الله سبحانه لهم بذلك العلم الضرورى ، وسمى ذلك الذى سمعوه كلامه ، إذ كان دلالة عليه ، كما تسمى التلاوة وهي الحروف المتلو بها القرءان كلام الله تعالى إذ هي دلالة عليه

فان قلت : فما يبقى على السامع إذا سمع كلام الله تعالى الذى يستفيد معرفة وحدانيته وفقه أمره ونهيه ، وفهم مراده وحكمه ، يلحقه العلم الضروري فما أرى بأنه الشيء المرسل ، إلا بأن يشتغل بإصلاح الخلق دونه ، ولو كان عوضا منه أخر عنه ومقامه مقامه

فاعلم أن الذى أوجب عثورك ودوام زللك ، واعتراضك على الملوم بالجهل ، وعلى الحقائق بالمخايل ، أنك بعيد عن غور المطالب ، قعيد فى شرك المعاطب ، قعيد صوب الصوت ، عتيد صخب السحاب ، إن الذى استحق به الناظر السالك الواصل المرتبة الثالثة سماع نداء الله تعالى معنى ومقام وحال وخاصـــة أعلى من تلك الأولى وأجل وأكبر ، وبينهما ما بين من استحق المواجهة بالخطاب والقصد به ، وبين من لا يستحق أكثر من

سماعه من يخاطب به غيره ، فهذا من الإشارة باختلاف وورود الخطاب إليهما ، مما يوجب نفورا ، وتباين ما بينهما ، فإن فهمت الآن وإلا فقد عني لاندر بمحال .

فإن قيل : ألم يقل الله تعالى (فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَسُولٍ [1]) وسماع كلام الله تعالى بحجاب أو بغير حجاب ، وعلم ما فى الملكوت ومشاهدة الملائكة ، وما غاب عن المشاهدة والحس من أجل الغيوب ، فكيف يطلع عليها من ليس برسول ؟

قلنا : فى الكلام حذف يدل على صحة تقديره الشرع الصادق ، والمشاهدة الصورية ، أن يكون معناه إلا من ارتضى من رسول ، ومن اتبع الرسول بالإخلاص والاستقامة أو عمل بما جاء به ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال « اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللهِ » وهل يبقى إلا ما غاب عنه أن ينكشف إليه ، وقال « إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مُحَدَّثُونَ فَعُمَرُ » أو كما قال « الْمُؤْمِنُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللهِ » وفى القرءان العزيز (قَالَ الَّذِى عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ [2]) فعلم ما غاب عن غيره من إمكان بيان ما وعد به ، وأراد أنه قدر عليه ، ولم يكن نبيا ولا رسولا ، وقد أنبأ الله سبحانه وتعالى عن ذى القرنين من إخباره عن العلوم الغيبية ، وصدقه فيه حين قال (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا [3]) وإن كان وقع الاختلاف فى نبوة ذى القرنين فالإجماع على أنه ليس برسول ، وهو خلاف المسطور فى الآية ، وإن رام أحد المدافعة بالاحتيال لما أخبر به ذو القرنين ، وما ظهر على يدى الذي كان عنده علم من الكتاب ، وأراد أن يجوز على عمر التشبه بالحقائق ، فما يصنع فيما جرى للخضر ، وما أنبأ الله سبحانه ، وأظهر عليه من العلوم الغيبية ، وهو بعد أن يكون نبيا فليس برسول على الوفاق من الجميع والله تعالى يقول (إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَسُولٍ [4]) فدل على أن فى الآية حذف مضاف معناه ما تقدم

وانظر الى ما ظهر من كلام سعد رضي الله عنه ، أنه يرى الملائكة وهو غيب الله وأعلم أبو بكر بما فى البطن وهي من غيب الله ، وشواهد الشرع كثيرة جدا ، يعجز

---

(١) الجن : ٢٦ (٢) النمل : ٤٠ (٣) الكهف : ٩٨ (٤) الجن : ٢٦

المتأول ويلهو المعاند ، هذا والقول بتخصيص العموم أظهر من الجراءة وأشهرمما نقل الكافة و يحتمل أن يكون المراد فى الآية بالرسول المذكور فيها ملك الوحي ، الذي بواسطته تنجلي العلوم وتنكشف الغيوب ، فمتى لم يرسل الله ملكا بإعلام غيب ، أو يخاطب مشافهة أو إلقاء معنى فى روع ، أو ضرب مثل فى يقظة أو منام ، لم يكن إلى علم ذلك الغيب سبيل ، ويكون تقدير الآية ، فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول أن يرسله إلى من يشاء من عباده فى يقظة أو منام ، فإنه يطلع على ذلك أيضا ، ويكون فائدة الإخبار بهذا فى الآية ، الامتنان على من رزقه الله تعالى علم شيء من مكنوناته وإعلامه أنه لاتصل إليها نفسه ، ولا مخلوق سواه إلا بالله تعالى ، حين أرسل إليه الملك بذلك ، و بعثه الله حتى يتبرأ المؤمن من حوله ومن حول كل مخلوق وقوته ، ويرجع إلى الله تعالى وحده ، ويتحقق على أنه لا يرد عليه شيء من علم ، أو معرفة ، أو غير ذلك إلا بإرادته ومشيئته ، ويحتمل وجه آخر ، وهو أن يكون معناه والله أعلم ، فلايظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى ، يريد من سائر خلقه ، وأصناف عباده ، ويكون معنى من رسول أي عن يد رسول من الملائكة

فصل

ومعنى ولا يتخطى رقاب الصديقين إن قلت : ماالذى أوصله إلى مقامهم ، أو جاوز به ذلك ، وهو فى المرتبة الثالثة حال المقربين ماوصل حيث ظننت ، فكيف يجاوزه ؟ وإنما خاصية من هو فى رتبة الصديقين عدم السؤال ، لكثرة التحقق بالأحوال ، وخاصية من هو فى رتبة القرب كثرة السؤال ، طمعا فى بلوغ الآمال ، ومثالها فيما أشير اليه مثال إنسانين دخلا فى بستان ، أحدهما : يعرف جميع أنواع نبات البستان ، ويتحقق أنواع تلك الثمار ، ويعلم أسماءها ومنافعها ، فهو لا يسأل عن شيء مما رآه ، ولايحتاج إلى أن يخبر به ، والثانى لايعرف مما رأى شيئا ، أو يعرف بعضا ويجهل أكثر مما يعرف ، فهو يسأل ليصل إلى علم الباقى ، وذلك من تكلمنا عليه حين أكثر السؤال مما يبعد عنه حاله ويتخلف عن مقامه إلى ماهو أعلى منه ، وكان غير مراد لذلك إما فى ذلك الوقت أوالأبد

وتلك العلوم التى كانت لاتنال بالكسب ، وإنما تنال بالمنح ، فقيل له لاتتخط رقاب الصديقين بالسؤال ، فذلك مما لايخطر به ، وليس هو من الطرق الموصلة إلى مقامهم فارجع إلى الصديق الأكبر، فاقتد به فى حاله وسيرته ، فمسالك ترزق مقامه ، فإن لم يكن فتبقى على حالة القرب وهى تتلو الصدّيقية ، فهذا معناه

فصل

ومعنى انصراف السالك الناظر بعد وصوله إلى ذلك الرفيق الأعلى ، إما أنه لما وصل إليه بالسؤال صرف إليه مالاق به من الأحوال ليحكم ما بقى عليه من الأعمال ، كما قال المصطفى صلى الله عليه وسلم للذى سأله أن يعلمه غرائب العلم ، « إِذْهَبْ فَأَحْكِمْ مَا هُنَاكَ وَبَعْدَ ذَلِكَ أُعَلِّمُكَ غَرَائِبَ ٱلْعِلْمِ » وأما صفة انصرافه فإنه نهض بالبحث ورجع بالتذكر وفوائد المزيد ووجهه أن من لم يستطع المقام فى ذلك الموضع بعد وصوله إليه فذلك لتعلق خبر المعرفة بالبدن ، ومسكنه عالم الملك ، ولم يفارقه بعد الموت وطول الغيب عنه لايمكن فى العادة ، ولو أمكن لهلك الجسم وتفرقت الأوصال ، والله تعالى أراد عمارة الدنيا : وقد سبق فى علمه ولن تجد لسنة الله تبديلا ، ومعنى قول أبى سليمان الدارانى لو وصلوا ما رجعوا مارجع إلى حالة الانتقاص من وصل إلى حالة الإخلاص والذى طمع الناظر فى الحصول فيه سؤاله وتماديه إلى حال القرب منه إذا لم يصلح لذلك ولم يصف ولم يخلص أعماله

فصل

ومعنى بأن ليس فى الإمكان أبدع من صورة هذا العالم ، ولا أحسن ترتيبا ، ولا أكمل صنعا ، ولو كان وادخره مع القدرة كان ذلك بخلا ، يناقض الكرم الإلهي ، وإن لم يكن قادرا عليه كان ذلك عجزا ، يناقض القدرة الإلهية ، فكيف يقضى عليه بالعجز فيما لم يخلقه اختيارا ، وكان ذلك ولم ينسب إليه ذلك قبل خلق العالم ، ويقال ادخار إخراج العالم من العدم إلى الوجود عجز مثل ماقيل فيما ذكرنا ، وما الفرق بينهما ، وذلك لأن تأخيره بالعالم

قبل خلقه عن أن يخرجه من العدم إلى الوجود يقع تحت الاختيار الممكن ، من حيث إن الفاعل المختار له أن يفعل فإذا فعل فليس فى الإمكان أن يفعل إلا نهاية ماتقتضيه الحكمة التي عرفنا أنها حكمة ، ولم يعرفنا بذلك إلا لنعلم مجارى أفعاله ، ومصادر أموره ، وأن نتحقق أن كل مااقتضاه ويقضيه من خلقه ، بعلمه ، وإرادته ، وقدرته أن ذلك على غاية الحكمة ، ونهاية الاتقان ، ومبلغ جودة الصنع ، ليجعل كال ماخلق دليلا قاطعاً ،وبرهانا على كماله فى صفات جلاله الموجبة لإجلاله فلو كان ماخلق ناقصا بالإضافة إلى غيره ماقدر على خلقه ، ولو لم يخلق لـكان يظهر النقصان المدعى على هذا الوجود من خلقه ، كما يظهر على ماخلقه على غير ذلك ، ويكون الجميع من باب الاستدلال على ماصنع من النقصان قطعا ، وما يحمل عليه من القدرة على أكمل منـه ظنا ، إذ خلق للخلق عقولا وجعل لهم فهو ما ، وعرفهم ماأ كن ، وكشف لهم ماحجب وأجن ، فيكون من حيث عرفهم بكماله دلهم على نقصه ، ومن حيث أعلمهم بقدرته بصرهم بعجزه ، فتعالى الله رب العالمين ، الملك الحق المبين .

وأيضا فلا يعترض هنا ويتزر به ، إلا من لايعرف مخلوقاته ، ولم يصرف الـكلام الصحيح فى مشابه ذلك أصلا فى العلم ، أو كان نسخا له ومعنى نقيس عليه غـيره ، وأما انكشافه بخير ممن رزق علم ذلك كان بطلان العلم في حق المخـبر ، إذ أفشاه لغـير أهله ، وأهداه لمن لايستحقه ، كما روي عن عيسى على نبينا وعليه السلام ، لاتعلقوا الدر فى عناق الخنازير ، وإنما أراد قطاع العلم غير أهله ، وقد جاء لاتمنعوا الحـكمة أهلها ، فتظلموهم ، ولا تضعوها عند غير أهلها فتظلموها .

وأما سر العـلم الذى يوجب كشفه بطلان الأحكام ، فإن كان كشفه من الله سبحانه لقـلوب ضعيفة بطلت الأحكام ، فى حقها لمن يطلع عليـه فى ذلك السر من معرفة مآل الأشياء ، وعواقب الخلق ، وكشف أسرار العباد ، وما يظن من مقدور ، فمن عرف نفسه مثلا أنه من أهل الجنة لم يصلّ ، ولم يصم ، ولم يتعب نفسه فى خير ، وكذلك لو انكشف له أنه من أهل النار ، كمل انهما كه فلا يحتاج إلى تعب زائد ، ولا تصيبه مكابدة ، فلو عرف كل واحد عاقبته ومآله بطلت الأحكام الجارية عليه ، وإن كان كشفها من مخبر

استروح الضعيف إلى مايسمع من ذلك ، فيتعطل وينخرم حاله ، وينحل قيده ، وبعد هذا فلا يحمل كلام سهل إلا على مايقدر لاعلى مايوجد ، ولذلك جعله مقرونا بحرف لو ، الدال على امتناع الشيء ، لامتناع غيره ، كما يقال : لو كان للإنسان جناحان لطار، ولوكان للسماء درج لصعد عليها ، ولو كان البشر ملكا لفقد الشهوات ، فعلى هذا يخرج كلام سهل في ظاهر العلم .

فصـــل

وأما خطاب العقلاء للجمادات فغير مستنكر فقديماً ندب الناس الديار ، وسألوا الأطلال واستخبروا الآثار وقد جاء في أشعار العرب وكلامها من ذلك كثير وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم « أُسْكُنْ أُحُدُ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدَانِ » وقال بعضهم : اسأل الأرض تخبرك عمن شق أنهارها ، وفجر بحارها ، وفتق أهواءها ، ورتق أجواءها وأرسى جبالها ، إن لم تجبك أجابتك اعتباراً ، وإنما الذي يتوقف على الأذهان ويتحير في قوله السامعون ، وتتعجب منه العقول ، هو كيفية كلام الجمادات والحيوانات الصامتات ، ففي هذا وقع الإنكار ، إذ اضطرب النظار ، وكذب في تصحيح وجوده والسمع من الاعتبار ، ولكن لتعلم أن تلقي الكلام للعقلاء ، ممن لم يعقل عنه في المشهود يكون على جهات ، من ذلك سماع الكلام الذاتي ، كما تلقى من أهل النطق إذا قصدوا إلى نظم اللفظ ، وذلك أكثر ما يكون للأنبياء والرسل صلوات الله عليهم في بعض الأوقات ، كحنين الجذع للنبي صلى الله عليه وسلم ، وكان حجر يسلم عليه في طريقه قبل مبعثه

ومنها تلقي الكلام في حسن السامع من غير أن يكون له وجود من خارج الحس ، ويعتري هذا سائر الحواس ، كمثل مايسمع النائم في منامه ، من مثال شخص من غير مثال والمثال المرئي للنائم ليس له وجود في سمعه ، وأما مايجده غير النائم في اليقظة فمنها خاصة وعامة ، فقد ورد أن الحجر في زمن عيسى ينادي المسلم يامسلم خلفي يهودي فاقتله ، وان لم يخلق الله تعالى للحجر حياة ونطقا ، ويذهب عنه معنى الحجرية ؛ أو يوكل بالحجر من يتكلم عنه ممن يستتر عن الأبصار في العادة من الملائكة والجن ، أو يكون كلام يخلقه الله

عز وجل فى أذن السامع ، ليفيده العلم باختفاء اليهودي ، حتى يقتله وكما يقال فى العرض الأكبر يوم القيامة ، إذا نودي فيه باسم كل واحد على الخصوص ، وفى الخلائق مثل اسم المنادى به كثير ، وقد قالت العلماء : انه لايسمع النداء فى ذلك الجمع إلا من نودى ، فيحتمل أن يكون ذلك النداء يخلق المنادى فى حاسة أذنه ليتحرك إلى الحساب وحده دون من يشاركه فى اسمه، ولايكون نداء من خارج ، والأمثلة كثيرة فى الشرع ، وفيما سمعت غنية ومقنع .

ومنها تلقى الكلام فى العقل، وهو المستفاد بالمعرفة ، المسموع بالقلب، المفهوم بالتقدير على اللفظ المسمى بلسان الحال كما قال قيس :

وأجهشت للتوادد حين رأيته ... وكبر للرحمن حيث رآنى

فقلت له أين الذين عهدتهم ... حواليك فى عيش وخفض زمان

فقال مضوا واستودعونى بلادهم ... ومن الذى يبقى على الحدثان

وفى أمثال العوام قال الحائط للوتد لم تشقنى ؟ فقال الوتد للحائط سل من يدقنى ، فلو كانت العبارة تتأتى منها ماعبرت إلا بما قد استعير لها ، وعلى هـذا المعنى حمل كثير من العلماء قوله تعالى إخبارا عن السماء والأرض حين (قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ [1]) وفى قوله تعالى (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا [2]) ومنها تلقى الكلام من الجبال مثل قوله صلى الله عليه وسلم « كَأَنِّى أَنْظُرُ إِلَى يُونُسَ بْنِ مَتَّى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَيْهِ عَبَاءَتَانِ قَطْوَانِيَّتَانِ يُلَبِّى وَتُجِيبُهُ الْجِبَالُ وَاللهُ يَقُولُ لَبَّيْكَ يَا يُونُسُ » فقوله كأنى يدل على أنه تخيل حالة سبقت لم يكن لها فى الحال وجود ذاتي ، لأن يونس بن متى عليه السلام قد مات ، وتلك الحالة منه سلفت ، وفى هـذا الحديث منه إخبار عن الوجود الخيالي فى البصر ، والوجود الخيالي فى السمع .

ومنها تلقى الكلام بالشبه ، وهو أن يسمع السامع كلاما أو صوتا من شخص حاضر ، فيلقى عليه شبه غيره مما غاب عنه ، كقوله عليه السلام فى صوت أبى موسى

---

(1) فصلت : ١١ (2) الأحزاب : ٧٢

الأشعرى ، إذ سمعه يترنم بالقرءان « لَقَدْ أُعْطِيَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ » ومزامير آل داود قد عدمت وذهبت ، وإنما شبه صوته بها ، وكما إذا سمع المريد صوت مزمار ، أو عود فجأة على غير قصد ، يتخيل صرير أبواب الجنة وشبهها ، بما فجأ صوته من ذلك

فهذه مراتب الوجود ، فأنت إذا أحسنت التصرف بين أساليبها ، ولم يعترك غلط فى بعضها ببعض ، ولا اشتبهت عليك ، وسمعت عمن نظر بمشكاة نور الله تعالى إلى كاغد ، وقد رآه أسود وجهه بالحبر ؛ فقال له ما بال وجهك وقد كان أبيض أشقر مونقا ، والآن قد ظهر فيه السواد ، فلم سودت وجهك ؟ فقال : سل الحبر فإنه كان مجموعا فى المحبرة التي هي مستقره ووطنه ، فسافر عن الوطن ، ونزل بساحة وجهي ظلماً وعدوانا ، فقال : صدقت ، ثم أنت إذا سمعت أمثال هذه المراجعات اعمل الفكر ، وجدد النظر ، وحل الكلام إلى أجزائه التى ينتظم منها جملة ما بلغك ، فسأل عن معنى الناظر ، ومعني المشكاة ومعني نور الله سبحانه ، وما سبب أنه لم يعرف الناظر الكتابة والمكتوب ، و بأي لسان خاطب الكاغد ، وكيف مخاطبة الكاغد ، وهو ليس من أهل النطق ، وفيما صدق الناطق الكاغد ، ولم صدقه بمجرد قوله دون دليل ولا شاهد ، فيبدوا لك ههنا من الناظر هو ناظر القلب ، فيما أورده عليه الحس ، والمشكاة استعارة من مشكاة الزجاجة ، التى أسمرت بسراج النار إلى خير المعرفة الملقب بسر القلب ، شبيها بها ، لأنها مسرجة الرب سبحانه وتعالى شعلها بنوره ، ونوره المذكور ههنا عبارة عن صفاء الباطن ، واشتعال السر بطلوع نيران كواكب المعارف الذاهبة بإذن الله تعالى ، ظلم جهالات القلوب ، ووجه إضافته إلى الله تعالى على سبيل الإشارة بالذكر لأجل التخصيص بالشرف ، والكاغد والحبر كناية عن أنفسهما لا عن غيرهما ، وجعلهما مبدأ طريقه ، وأول سلوكه ، إذ هما فى عالم الملك والشهادة الذى محل جولة الناظر فى حال نظره ، وأما سبب أنه لم يعرف الكتابة والمكتوب فلأجل أنه كان أميا لا يقرأ الكتاب الصناعى ، وإنما يروم معرفة قراءة الخط الالهى ، الذى هو أبين وأدل على الفهم منه ، وأما مخاطبة الناظر الكاغد وهو جماد ، فسبق الكلام على مثله ، ومراجعة الكاغد له ، فعلى قدر حال الناظر إن كان مرادا فيلتى الكلام فى الحس

بما ينبئه عن المطلوب من الحق ، وهو من باب الإلقاء فى الروع فيودعه الحس المشترك المحفوظ فيه على الإنسان صور الأشياء المحسوسة ، وإن كان مريدا فيتلقاه بلسان الحال المسموع بسمع القلب بواسطة المعرفة ، والعقل ، وتصديق الناظر للكاشف فى عذره وإحالته على الخبر ، لم يكن لمجرد قوله بل بشهادة أولى الرضا والعدل ، وهو البحث ، والتجربة لم تكن ، وشهادة النفس وهذا يسلك إلى القدرة وهو آخرها ، سئل عن أجزاء عالم الملك

وأما ماسمعته فى حد عالم الجبروت ، فذلك من القدرة المحدثة إلى العقل . والعلم ، الموجودين فى الإنسان المستقرة فى القوة الوهمية المدركة جميع مالايستدعى وجوده جسما ولكن قد يعرض له أنه فى جسم ، كما تدرك السخلة عداوة الذئب ، وعطف أمها ، فتتبع العطف وتنفر من العداوة .

وأما ماسمعته فى حد عالم الملكوت ، وذلك من العلم الالهي إلى ماوراء ذلك مما هو داخل فيه ، ومعدود منه فسر القلب الذى يأخذ به عن الملائكة ، ويسمع به مابعد مكانه ورق معناه ، وعزب عن القلوب من جهة الفكر بصوره ، فأما أي شيء حقائق هذه المذكورات ، وما كنه كل واحد منها ، على نحو معرفتك لا جزاء عالم الملك والشهادة فذلك علم لا ينتفع بسماعه مع عدم المشاهدة . والله قد عرفك باسمائها ، فإن كنت مؤمنا فصدق بوجودها على الجملة ، لعلمك أنك لا تخبر بتسميات ليس لها مسميات، إلى أن يلحقك الله بأولى المشاهدة وتحصل خالص الكرامات ، ومن كفر فإن الله غني حميد

فصل

والفرق بين العلم المحسوس فى عالم الملك وبين العلم الالهي فى عالم الملكوت ، أن العلم كما اعتقدته مجسما ، بطيء الحركة بالفعل سريع الإنتقال بالهلاك ، مخلفا عن مثله فى الظاهر مجمولا تحت قهر سلطان الآدمي الضعيف الجاهل فى أكثر أوقاته ، متصرف بين أحوال متنافية كالعلم ، والجهل : والعدل ، والظلم ، والشك ، والصدق ، والإفك ، فالعلم الالهي عبارة عن خلق الله فى عالم الملكوت مختص بخلاف خصائص الجواهر الحسية الكائنة فى عالم الملك : يرى من أوصاف ماسمي به القلم المحسوس كليا ، مصرفا يتميز الخالق بحكم

إرادته على ماسبق به علمه فى أزل الأزل ، وإنما سمي بهذا الاسم لأجل شبهه بعمل ماسمي به ، غير أنه لايكتب إلا حقائق الحق ، والفرق بين يمين الآدمي ويمين الله عز وجل ، أن يمين الآدمى كما علمت مركبة من عصب استعصى بقوتها ، وعضل تعضل أدواؤها ، وعظام يعظم بلاؤها ، ولحم ممتد ، وجلد غير جلد ، موصولة كلها فى الضعف والانفعال ، ملقبة باليد وهي عاجزة على كل حال ، ويمين الله تعالى هي عند بعض أهل التأويل ، عبارة عن قدرته ، وعند بعضهم صفة لله تعالى غير قدرة وليست بجارحة ولا جسم ، وعند آخرين إنها عبارة عن خلق لله واسطة بين القلم الالهى النافش العلوم ، المحدثة وغيرها ، وبين قدرته التى هى صفة له صرف بها اليمين الكاتبة بالقلم المذكور بالخط الإلهى المثبوت على صفحات المخلوقات الذى ليس بعربي ولا عجمي ، يقرؤه الأميون إذا شرحت صدورهم وتستعجم على القارئين إذا كانوا عبيد شهواتهم ولم يشارك يمين الآدمي إلا فى بعض الأسماء ، لأجل الشبه اللطيف الذى بينهما بالفعل ، وتقريبا إلى كل ناقص الفهم عساه يعقل ماأنزل على رسل الله تعالى من الذكر

فصل

وحد عالم الملك ماظهر للحواس : ويكون بقدرة الله تعالى بعضه من بعض ، وصحة التعبير : وحد عالم الملكوت ماأوجده سبحانه بالأمر الازلى بلا تدريج ، وبقى على حالة واحدة من غير زيادة فيه ولانقصان منه ، وحد عالم الجبروت : هو ما بين العالمين مما يشبه أن يكون فى الظاهر من عالم الملك ، فجبر بالقدرة الأزلية بما هو من عالم الملكوت

فصل

ومعنى إن الله خلق آدم على صورته ، فذلك على ماجاء فى الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم : وللعلماء فيه وجهان

فمنهم من يرى للحديث سببا ، وهو أن رجلا ضرب غلامه فرآه النبي صلى الله عليه وسلم فنهاه وقال « إِنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ » وتأولوا عود الضمير على المضروب

على هذا لايكون للحديث مدخل فى هذا الموضع لم يرده مورد آخر فى غير هذا الموطن ويكون الايمان به إلى غير هذا المعنى المذكور فى السبب الحادث ،واثباته فى غير موطن ذلك السبب المنقول مما يعز ويعسر ، فليبق المسبب على حاله ولينظر فى وجه الحديث غير هذا مما يحتمل ويحسن الاحتجاج به فى هذا الموطن

والوجه الآخر : أن يكون الضمير الذى فى صورته عائدا إلى الله سبحانه ، ويكون معنى الحديث ، أن الله خلق آدم على صورته ، هي إلى الله سبحانه ، وهذا العبد المضروب على صورة آدم ، فاذا هذا العبد المضروب على الصورة المضافة إلى الله تعالى ، ثم ينحصر بيان معنى الحديث ، ويتوقف على بيان معنى هذه الإضافة ، وعلى أي جهة يحمل فى الاعتقاد العلمي على الله سبحانه ففيها وجهان

أحدهما : أن إضافته إضافة ملك إلى الله تعالى كما يضاف إليه العبد والبيت والناقة ، واليمين على أحد الأوجه .

والوجه الآخر :أن تكون إضافة تخصيص به تعالى ، فمن حملها على إضافة الملك له رأى أن المراد بصورته هو العالم الأكبر بجملته، وآدم مخلوق على مضاهاة صورة العالم الأكبر لكنه مختصر صغير ، فإن العالم إذا فصلت أجزاؤه بالعلم ، وفصلت أجزاء آدم عليه السلام بمثله وجدت أجزاء آدم عليه السلام مشابهة للعالم الأكبر ، وإذا شابهت أجزاء جملة أجزاء جملة فالجملتان بلاشك متشابهتان ،فالذى نظر فى تحليل صورة العالم الأكبر فقسمه على أنحاء من القسمة ، وقسم آدم عليه السلام ، كذلك فوجد كل نحوين منهما شبيهين ، فمن ذلك أن العالم ينقسم إلى قسمين، أحد القسمين: ظاهر محسوس كعالم الملك،والثانى باطن معقول كعالم الملكوت ، والإنسان كذلك ينقسم إلى ظاهر محسوس ، كالعظم واللحم والدم وسائر أنواع الجواهر المحسوسة ، وإلى باطن ، كالروح والعقل والعلم والإرادة والقدرة وأشباه ذلك

وقسم آخر: وذلك أن العالم قد انقسم بالعوالم إلى عالم الملك : وهو الظاهر للحواس ، وإلى عالم الملكوت : وهو الباطن فى العقول ، وإلى عالم الجبروت : وهو المتوسط الذي أخذ بطرف من كل عالم منها ، والإنسان كذلك انقسم

إلى ماشابه هذه القسمة ، فالمشابه لعالم الملك الأجزاء المحسوسة ، وقد علمتها والمشابهة لعالم الملكوت ، فثل الروح والعقل والقدرة والإرادة وأشباه ذلك ، والمشابه لعالم الجبروت فكالإدراكات الموجودة بالحواس ، والقوى الموجودة بأجزائه ،

والوجه الثانى : أن يكون معناه كفرا للسامع لا للمخبر، بخلاف الوجه الأول، ويكون هذا مطابقا لحديث النبي صلى الله عليه وسلم « لَا تُحَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا لَمْ تَصِلْهُ عُقُولُهُمْ أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ » فمن حدث أحدا بما لم يصله عقله ، ربما سارع إلى التكذيب ، وهو الأكثر ، ومن كذب بقدرة الله تعالى وبما أوجدتها ، فقد كفر ولو لم يقصد الكفر ، فإن أكثر اليهود والنصارى وسائر الكفار ماقصدت الكفر ولا تظنه بأنفسها ، وهي كفار بلا ريب ، وهذا وجه واضح قريب ، ولا تلتفت إلى مامال إليه بعض من لايعرف وجوه التأويل ، ولا يعقل كلام أولى الحكمة والراسخين في العلم ، حين ظن أن قائل ذلك أراد الكفر الذى هو نقيض الإيمان والإسلام بتعلق مخبره وتلحق قائله وهذا لايخرج إلا على مذاهب أهل الأهواء ، الذين يكفرون بالمعاصي وأهل السنن لا يرضون بذلك ، وكيف يقال لمن آمن بالله واليوم الآخر ، وعبد الله بالقول الذى ينزه به ، والعمل الذى يقصد به المتعبد لوجهه ، الذى يستزيد به إيمانا ومعرفة له سبحانه ثم يكرمه الله تعالى على ذلك بفؤاد المزيد ، وينيله ماشرف من المنح ، ويريه أعلام الرضا ، ثم يكفره أحد بغير شرع ولا قياس عليه ، والإيمان لايخرج عنه إلا بنبذه وإطراحه وتركه ، واعتقاد مالا يتم الإيمان معه ، ولا يحصل بمقارنته وليس فى إفشاء سر الولي مايحصل به تناقض الإيمان ، اللهم إلا أن يريد بإفشائه وقوع الكفر من السامع له ، فهذا عات متمرد وليس بولي ، ومن أراد بأحد من خلق الله أن يكفر بالله فهو لامحالة كافر ، وعلى هذا يخرج قوله تعالى (وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ [١]) ثم إنه من سب أحدا منهم على معنى مايجد له من العداوة والبغضاء ، قيل له أخطأت وأثمت من غير تكفير ، وإنه أيما فعل ذلك وسب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كافر بالإجماع

(١) الانعام : ١٠٨

سؤال

فإن قيل : فما معنى قول سهل رحمه الله تعالى : ونسب إليه للإلٰهية سر لو انكشف لبطلت النبوات ، وللنبوات سر لو انكشف لبطل العلم ، وللعلم سر لو انكشف بطلت الأحكام ، وجاء فى الإحياء على أثر هذا القول ، وقائل هذا القول إن لم يرد به إبطال النبوة فى حق الضعفاء ، فما قالوا ليس بحق ، فإن الصحيح لا يتناقض ، والكامل من لا يطفىء نور معرفته نور ورعه ، وهـذا وإن لم يكن من الأسئلة المرسومة فهو متعلق بها بما فرع من الـكلام فيها آنفا ، وناظر إليه إذا ماأدى إفشاؤه إلى إبطال النبوة والأحكام والعلم كفر

فالجواب إن الذى قاله رحمه الله وإن كان مستعجما فى الظاهر ، فهو قريب المسلك بادٍ للمتأمل الذى يعرف مصادر أغراضهم ، ومسالك أفوالهم الإلهٰية ، ومن وصل إليه اليقين الذى لولاه لم يكن نبيا ، لايخلو أن يكون انكشافه من الله بما يطلع على القلوب من أنوار الشمس ، التى هي غائبة عنها ، بأن كانت القلوب ضعيفة طرأ عليها من الدهش والاصطلام والحيرة والتيه مايبهر المقول ، ويفقد الحس ، ويقطع عن الدنيا وما فيها ، وذلك لضعفه ، ومن انتهى إلى هذه الحالة فتبطل النبوة فى حقه أن يعرفها ، أو يعقل ماجاء من قبلها إذ قد شغله عنها ماهو أعظم لديه منها ، وربما كان سبب موته لعجزه عن حمل مايطرأ عليـه ، كما حكي أن شابا من سالـكي طريق الآخرة ، عرض عليـه أبو يزيد ، ولم يره من قبل ، فلما رآه انكشف له ذلك ، وكان فى مقام الضعفاء من المريدين ، فلم يطق حمله فمـات به ، وإما أن يكون انـكشافه من عالم به على وجه الخبر عنه فتبطل النبوة فى حق المخبر ، حين نهى أن لا يفشى فأفشى ، أو أمر أن لا يتحدث فلم يفعل ، فخرج بهذه المعصية عن طاعة النبي صلى الله عليه وسلم فيها ، فلهذا قيل فى ذلك بطلت النبوة فى حقه

فإن قيل : فلم لا تـكفروه على هذا الوجه ، إذا بطلت النبوة فى حقه بإخباره

قلنا : ما بطلت فى حقه جميعا ، وإنما بطل فى حقه منهـا ما خالف الأمر الثابت من قبلها ، ويعدّ هذا من الـكلام على تغليظ حق الإفشاء ، وقد سبق الـكلام عليه فى معنى إفشاء سر الربوبية كفر ، وأما سر النبوة الذي أوجب العلم لمن رزقها ، أو رزق معرفتها

على الجملة ، إذ النبوة لا يعرفها بالحقيقة إلا نبي ، فإن انكشف ذلك لقلب أحد بطل العلم في حقه بارتفاع المحنة له ، بالأمر المتوجه عليه بطلبه ، والبحث عنه ، والتفكر فيه ، فيكون كالنبي إذا سئل عن شيء لو وقعت له واقعة لم يحتج إلى النظر فيها ، ولا إلى البحث عنها ، بل ينتظر ما عود من كشف الحقائق بإخبار ملك ، أو ضرب مثل ، يفهم عنه أو اطلاع على اللوح المحفوظ ، أو إلقاء في روع ، فيعود مخترعاته ولم يعلم مقدار الدنيا وترتيب الآخرة عليها ، ولا عرف خواصها ، ولا تنزه في عجائبها ، ولا لاحظ الملكوت ببصر قلبه ، ولا جاوز التخوم إلى أسفل من ذلك بسره ولبه ، ولا فهم أن الجنة أعلى النعيم ، وأن النار أقصى العذاب الأليم ، وأن النظر إليه منتهى الكرامات ، وأن رضاه وسخطه غاية الدرجات والدركات ، وأن منح المعارف والعلوم أسنى الهبات ، ويرى أن العالم بأسره أخرجه من العدم الذي هو نفي محض إلى الوجود الذي هو إثبات صحيح ، وقدره منازل وجعله لميقات ، فمن حي وميت ، ومتحرك وساكن ، وعالم وجاهل ، وشقي وسعيد ، وقريب وبعيد ، وصغير وكبير ، وجليل وحقير ، وغني وفقير ، ومأمور وأمير ، ومؤمن وكافر ، وجاحد وشاكر ، وذكر وأنثى ، وأرض وسماء ، ودنيا وأخرى ، وغير ذلك مما لا يحصى ، والكل قائم به موجود بقدرته ، وباق بعلمه ، ومنته إلى أجله ، ومصرف بمشيئته ، وذلك على بالغ حكمته ، فما أكمل جهل من لا يجدبه إلا قدماه ، ولا من يصرفه إلا استبداده ، ولا ملكه إلا ملكه فيعود المحدث قديما ، والمربوب ربا ، والمملوك مالكا ، فيعود الخلق من خلق الله كهو ، تعالى الله عن جهل الجاهلين ، وتخييل المتوهين ، وزيغ الزائغين

فصل

وأما حكم هذه العلوم المكتوبة في الطلب وسلوك هذه المقامات ، ورقي هذه الدرجات ، واستفهام هذه المخاطبات ، أهي من قبيل الواجبات أو المندوبات أو المباحات

فاعلم أن المسئول عنه على ضربين ، أحدهما : ماهو في حكم المبادي ، والثاني : في حكم الغايات ، فأما الذي هو في حكم المبادي فطلبه فرض على كل أحد ، بقدر بذل المجهود وإفراغ الوسع ، وجميع مايقدر عليه من العبادة ، وذلك ماتضمنه أصول علم المعاملة ، مثل

إخلاص التوحيد ، والصدق فى العمل ، وعدم الإجحاف بالخوف والرجاء ، والتزين بالصبر والشكر ، لأن هذه كلها وما يتعلق بها من علم الأمر والنهي واجبة ، قال الله تعالى (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ [١]) وقد سبق التنبيه عليه ، وأما الذى هو فى حكم الغايات مثل انقلاب الهيئات ، والنظر بالتوفيق بحكم الموافقة والرضا بالإثبات ، والتوكل بالتجريد ، وحقيقة علم معانى التوحيد وسير معانى التقرير ، وأوصاف أهل أبيات اليقين ، فهو درجات ومقامات ، ومنازل ومراتب ، ومنح يخص الله تعالى بها من شاء من عباده ، من غير أن ينال بطلب ولا بحث ولا تعليم ، ولو كان ذلك لما قيل للناظر السالك حين أراد الارتقاء إلى درجة أعلى من درجته بلسان السؤال ، ارجع لا تتخطى رقاب الصديقين ، لكنها مواهب أكرم الله تعالى بها أهل صفوته ، وولايته ، وهي مراتب الصدق فى العلم ، وبركات الإخلاص فى العمل ، فمن لم يرث من علمه وعمله المفترض عليه ، فطلبه والعمل به شتان من هذه المعانى ، فليس فى شيء من الحقيقة ، وإن كان حقا غير أن حاله مملول ، إما مفتون بدنياه ، أو محجوب بهواه ، وربك على كل شيء قدير .

فصل

وأما لأي شيء ذكرت هذه العلوم بالإشارات دون العبارات ، وبالرموز دون التصريحات ، وبالمتشابه من الألفاظ دون المحكمات ، وإن كان قد سبق هذا من الشارع فيما له أن يمتحن به من كلف ، ويبتلو من بعيد ، ولكن للعلم رجال مخصوصون فما بال من لم يجعل شارعا ، ولم يبعث لغير أن يسلك ذلك

والجواب عنه أن العالم هو وارث النبي صلى الله عليه وسلم ، وإنما ورث العلم ليتجمل بعمله ، ويحل فيه كمحله ، والنبي صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ، علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى ، وحكم الوارث فيما ورث حكم الموروث فيما ورث عنه ، فما عرف فيه الحكم من فصل الموروث عنه امتثله ، وما لم يصل إليه فيه شيء كان له اجتهاده ، فإن أخطأ كان له أجر ، وإن أصاب كان له أجران

---

[١] التغابن : ١٦

ثم إن الوارث رأى النبي صلى الله عليه وسلم يصرح بعلوم المعاملات وأشار مما وراءها
بما لا يفهمه إلا أرباب التخصيص ، كما قال الله عز وجل (وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ)
فلم يكن للوارث تعدّ عن حكم الموروث ، كما حكي عن أبى هريرة رضي الله عنه قال ،
إنى رويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاءين

أحدهما : هو الذى بثثته فيكم ، وأما الثانى ، فلو بثثته لحززتم السكين على هذا البلعوم
وأشار إلى حلقه ، وبعد كل شيء ، ففى القدوة بصاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه
النجاة ، وفى اتباعه الفوز بحب الله ، ويد الله مع الجماعة ، وفوق كل ذى علم عليم ، وقد
أفدناك من طرائف ماعندنا ، وأهدينا إليك من غرائب ما لدينا ، وإلى الله يرد العلم مما دق
وجل ، وكثر وقل ، وعظم وصغر ، وظهر واستتر ، وإنما ينطق الإنسان بما أنطقه الله
تعالى ، وهو مستعمل بما استعمله فيه ، إذ كل ميسر لما خلق له ، فاستنزل ماعنـــد ربك
وخالقك من خير ، واستجلب ما تؤمله منه من هداية وبر ، بقراءة السبع المثانى والقرءان
العظيم التى أمرت بقراءتها فى كل صلاة ، وكذا عليك أن تعيدها فى كل ركعة ، وأخبرك
الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم ، أن ليس فى التوراة ، ولا فى الإنجيل ، ولا فى الفرقان
مثلها ، وفى هذا تنبيه بل تصريح بأن يكثر منها بما ضمنت من الفوائد ، وخصت به من
الذخائر والعوائد ، بما لو سطر لكان فيه أوقار الجمال ، فافهم وانتبه واعقل ما خلقت له
واعرف ما أعدّ لك ، والله تعالى سبحانه حسيب من أراده ، وهادى من جاهد فى سبيله
وكافيه من توكل عليه ، وهو الغنى الكريم

انتهى الجواب عما سألت عنه ، وفرغنا منه بحسب الوسع من الكلام ، ونسأل الله
تعالى المباعد بين حيلات قلوب البشر أن يصرف عنا حجب الــــكدرات والأهواء ،
ومراتب الغين ، فبيده مجارى المقدورات ، وهو إله من ظهر وغبر ، واليه يرجع من آمن
وكفر ، ومجازى الخلائق بنعيم أو سقر ، والصلاة على سيدنا محمد سيد البشر ، وكافى الضرر
وعلى آله السادات الغرر ، وسلم تسليما والحمد لله رب العالمين

كتاب تعريف الأحياء
بفضائل الإحياء

للأستاذ الفاضل العلامة

الشيخ عبد القادر بن شيخ بن عبد الله بن شيخ بن عبد الله العيدروس

باعلوي قدس الله سره

كتاب تعريف الأحياء
بفضائل الإحياء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى وفق لنشر المحاسن وطيها فى أحسن كتاب ؛ وجعل ذلك قرة لأعين الأحباب ، وذخيرة ليوم المآب ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى أحيا بإحياء شريعته وطريقته قلوب ذوى الألباب ، وعلى آله الطيبين الطاهرين وجميع الأصحاب ، ماأشرقت شمس الإحياء للقلوب ، وتوجهت همة روحانية مصنفه الولي الموهوب ، إلى إسعاف ملازمى مطالعته ومحبيه بالمطلوب .

وبعد : فإن الكتاب العظيم الشان ، المسمى بإحياء علوم الدين ، المشهور بالجمع والبركة والنفع بين العلماء العاملين ، وأهل طريق الله السالكين ، المشايخ العارفين المنسوب إلى الإمام الغزالى رضي الله عنه ، عالم العلماء ، وارث الأنبياء ، حجة الإسلام ، حسنة الدهور والأعوام ، تاج المجتهدين ، سراج المتهجدين ، مقتدى الأئمة ، مبين الحل والحرمة ، زين الملة والدين ، الذى باهى به سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، وعلى جميع الأنبياء ، ورضي عن الغزالى وعن سائر العلماء المجتهدين .

لما كان عظيم الوقع ، كثير النفع ، جليل المقدار ، ليس له نظير فى بابه ، ولم ينسج على منواله ، ولا سمحت قريحة بمثاله ، مشتملا على الشريعة ، والطريقة والحقيقة كاشفا عن الغوامض الخفية ، مبينا للأسرار الدقيقة . رأيت أن أضع رسالة تكون كالعنوان والدلالة ، على صبابة صبابة ، من فضله وشرفه ، ورشحة من فضل جامعه ومصنفه ، ورتبته على مقدمة ، ومقصد ، وخاتمة .

فالمقدمة فى عنوان الكتاب ، والمقصد فى فضائله وبعض المدائح والثناء من الأكابر عليه ، والجواب عما استشكل منه وطمن بسببه فيه ، والخاتمة فى ترجمة المصنف رضي الله عنه ، وسبب رجوعه إلى هذه الطريقة .

المقـــدمة

في عنوان الكتاب

اعلم أن علوم المعاملة التى يتقرب بها إلى الله تعالى . تنقسم إلى ظاهرة وباطنة والظاهرة قسمان : معاملة بين العبـد وبين الله تعالى ، ومعاملة بين العبد وبين الخلق . والباطنة أيضا قسمان : مايجب تزكية القلب عنه من الصفات المذمومة ، ومايجب تحلية القلب به من الصفات المحمودة ، وقد بنى الإمام الغزالى رحمه الله كتاب إحياء علوم الدين على هذه الأربعة أقسام ، فقال فى خطبته : ولقد أسسته على أربعة أرباع . ربع العبادات وربع العادات ، وربع المهلـكات ، وربع المنجيات .

فأما ربع العبادات فيشتمل على عشرة كتب . كتاب العلم ، كتاب قواعد العقائد ، كتاب أسرار الطهارة ، كتاب أسرار الصلاة ، كتاب أسرار الزكاة ، كتاب أسرار الصيام كتاب أسرار الحج ، كـتاب تلاوة القرءان ، كـتاب الأذكار والدعوات ، كـتاب ترتيب الأوراد فى الأوقات .

وأما ربع العادات فيشتمل على عشرة كـتب : كـتاب آداب الأكل ، كتاب آداب النكاح ، كتاب آداب الـكسب ، كتاب الحلال والحرام ، كتاب آداب الصحبة ، كتاب العزلة ، كتاب آداب السفر ، كتاب آداب السماع والوجد ، كتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، كتاب أخلاق النبوة

وأما ربع المهلـكات فيشتمل على عشرة كتب : كتاب شرح عجائب القلب ، كتاب رياضـة النفس ، كتاب آفة الشهوتين البطن والفرج ، كتاب آفة اللسان ، كتاب آفة الغضب والحقد والحسد ، كتاب ذم الدنيا ، كتاب ذم المال والبخل ، كتاب ذم الجاه والرياء كتاب الـكبر والعجب ، كـتاب الغرور .

وأما ربع المنجيات فيشتمل على عشرة كتب : كتاب التوبة . كتاب الصبر والشكر . كتاب الخوف والرجاء ، كتاب الفقر والزهد ، كتاب التوحيد والتوكل ، كتاب المحبة والشوق والرضا ، كتاب النيـة والصـدق والإخلاص ، كتـاب المراقبة والمحـاسبة ،

كتاب التفكر ، كتاب ذكر الموت .

ثم قال رحمه الله : فأما ربع العبادات .فأذكر فيه من خفايا آدابها ودقائق سننها وأسرار معانيها ، مايضطر العالم العامل إليها ، بل لا يكون من علماء الآخرة من لم يطلع عليها ، وأكثر ذلك مما أهمل فى الفقهيات .

وأما ربع العادات : فأذكر فيه أسرار المعاملات الجارية بين الخلق ، ودقائق سننها ، وخفايا الورع فى مجاريها ، وهي مما لا يستغنى المتدين عنها .

وأما ربع المهلكات :فأذكر فيه كل خلق مذموم ورد القرءان بإماطته وتزكية النفس عنه وتطهير القلب منه ، وأذكر فى كل واحد من هذه الأخلاق حده وحقيقته ، ثم سببه الذى منه يتولد ، ثم الآفات التى عليها يترتب ، ثم المعاملات التى بها يتعرف ، ثم طرق المعالجة التى منها يتخلص ، كل ذلك مقرونا بشواهد من الآيات والأخبار والآثار .

وأما ربع المنجيات: فأذكر فيه كل خلق محمود ، وخصلة مرغوب فيها ، من خصال المقربين والصديقين التى يتقرب بها العبد من رب العالمين ، وأذكر فى كل خصلة حدها وحقيقتها ، وسببها الذى به تجتلب ، وثمرتها التى منها تستفاد ، وعلامتها التى بها تعرف وفضيلتها التى لأجلها فيها يرغب، مع ماورد فيها من شواهد الشرع والعقل .

المقصد

فى فضل الكتاب المشار إليه وبعض المدائح والثناء من الأكابر عليه

والجواب عما استشكل منه وطعن بسببه فيه

اعلم أن فضائل الإحياء لا تحصى ، بل كل فضيلة له باعتبار حيثياتها لا تستقصى ، جمع الناس مناقبه فقصروا وما قصروا ، وغاب عنهم أكثر مما أبصروا ، وعز من أفردها فيما علمت بتأليف ، وهي جديرة بالتصنيف ، غاص مؤلفه رضي الله عنه فى بحار الحقائق ، واستخرج جواهر المعانى ، ثم لم يرض إلا بكبارها ، وجال فى بساتين العلوم ، فاجتنى ثمارها ، بعد أن اقتطف من أزهارها ، وسما إلى سماء المعانى فلم يصطف من كواكبها إلا السيارة ، وجلبت عليه عرائس أسرار المعانى ،

فلم ترق فى عينه منهن إلا بادية النضارة ، جمع رضي الله عنه فأوعى ، وسعى فى إحياء علوم الدين ، فشكر الله له ذلك المسعى ، فلله دره ، من عالم محقق مجيد ، وإمام جامع لشتات الفضائل ، محرر فريد ، لقد أبدع فيما أودع كتابه ، من الفوائد الشوارد ، وقد أغرب فيما أعرب فيه من الأمثلة والشواهد ، وقد أجاد فيما أفاد فيه ، وأملى بيد أنه فى العلوم صاحب القدح المعلّى ، إذ كان رضي الله عنه ، من أسرار العلوم بمحل لايدرك ، وأين مثله وأصله أصله ، وفضله فضله .

هيهات لايأتى الزمان بمثله إن الزمان بمثله لشحيح

وما عسيت أن أقول فيمن جمع أطراف المحاسن ، ونظم أشتات الفضائل ، وأخذ برقاب المحامد ، واستولى على غايات المناقب ، فشجرته فى فوارة العلم ، والعمل والعلا ، والفهم ، والذكا أصلها ، وفروعها فى السماء ، مع كونه رضي الله عنه ، ذا الصدر الرحيب ، والقريحة الثاقبة ، والدراية الصائبة ، والنفس السامية ، والهمة العالية

ذكر الشيخ عبد الله بن أسعد اليافعى رحمة الله عليه ، أن الفقيه العلامة ، قطب اليمن اسماعيل بن محمد الحضرمى ، ثم اليمنى ، سئل عن تصانيف الغزالى فقال : من جملة جوابه محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، سيد الأنبياء ، ومحمد بن ادريس سيد الأئمة ، ومحمد بن محمد بن محمد الغزالى ، سيد المصنفين ، وذكر اليافعى أيضا ، أن الشيخ الإمام الكبير ، أبا الحسن علي بن حرزهم ، الفقيه المشهور المغربى ، كان بالغ فى الإنكار على كتاب إحياء علوم الدين ، وكان مطاعا ، مسموع الكلمة ، فأمر بجمع ماظفر به ، من نسخ الإحياء ، وهم بإحراقها فى الجامع يوم الجمعة ، فرأى ليلة تلك الجمعة كأنه دخل الجامع ، فإذا هو بالنبي صلى الله عليه وسلم فيه ، ومعه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما والإمام الغزالى قائم بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما أقبل ابن حرزهم ، قال الغزالى هذا خصمى يارسول الله ، فإن كان الأمر كما زعم تبت إلى الله ، وإن كان شيئا حصل لى من بركتك ، واتباع سنتك ، فخذلى حق من خصمى ، ثم ناول النبي صلى الله عليه وسلم كتاب الإحياء . فتصفحه النبي صلى الله عليه وسلم ، ورقة ورقة ، من أوله إلى آخره ، ثم قال والله إن هذا لشيء حسن ، ثم ناوله الصدّيق رضي الله عنه ، فنظر فيه فاستجاده ، ثم قال نعم والذى بعثك

بالحق إنه لشيء حسن ،ثم ناوله الفاروق عمر رضي الله عنه ، فنظر فيه وأثنى عليه كما قال الصدّيق ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بتجريد الفقيه عليّ بن حرزهم عن القميص ، وأن يضرب ويحد ، حد المفترى ، فجرد وضرب ، فلما ضرب خمسة أسواط تشفع فيه الصدّيق رضي الله عنه، وقال يارسول الله لعله ظن خلاف سنتك فأخطأ فى ظنه ، فرضي الإمام الغزالى وقبل شفاعة الصدّيق ، ثم استيقظ ابن حرزهم ، وأثر السياط فى ظهره، وأعلم أصحابه ، وتاب إلى الله ، عن إنكاره على الإمام الغزالى واستغفر ، ولكنه بقي مدة طويلة متألما من أثر السياط ، وهو يتضرع إلى الله تعالى، ويتشفع برسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلى أن رأى النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليه ومسح بيده الكريمة على ظهره ، فعوفي وشفي بإذن الله تعالى ، ثم لازم مطالعة إحياء علوم الدين ، ففتح الله عليه فيه ، ونال المعرفة بالله ، وصار من أكابر المشايخ ، أهل العلم الباطن والظاهر ، رحمه الله تعالى .

قال اليافعى : روينا ذلك بالأسانيد الصحيحة ، فأخبرنى بذلك ولي الله عن ولي الله عن ولي الله عن ولي الله الشيخ الكبير ، القطب شهاب الدين أحمد ابن الميلق الشاذلى ، عن شيخه الشيخ الكبير ، العارف بالله ياقوت الشاذلى ، عن شيخه الشيخ الكبير العارف بالله أبى العباس المرسى ، عن شيخه الشيخ الكبير ، شيخ الشيوخ أبى الحسن الشاذلى ، قدس الله ارواحهم ، وكان معاصراً لابن حرزهم . قال : وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى ، ولقد مات الشيخ أبو الحسن بن حرزهم رحمه الله يوم مات ، وأثر السياط على ظهره ، وقال الحافظ بن عساكر رحمه الله : وكان أدرك الإمام الغزالى واجتمع به ، قال : سمعت الإمام الفقيه الصوفى سعد بن علي بن أبى هريرة الاسفرايني يقول : سمعت الشيخ الإمام الأوحد ، زين القراء جمال الحرم ، أبا الفتح الشاوى بمكة المشرفة يقول : دخلت المسجد الحرام يوما ، فطرأ علي حال وأخذني عن نفسى فلم أقدر أن أقف ولاأجلس لشدة مابى ، فوقعت على جنبي الأيمن ، تجاه الكعبة المعظمة وأنا على طهارة ، وكنت أطرد عن نفسى النوم ، فأخذتنى سنة بين النوم واليقظة ، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم فى أكمل صورة ، وأحسن زي من القميص والعمامة، ورأيت الأئمة ، الشافعي، ومالكا ، وأبا حنيفة، وأحمد، رحمهم الله، يعرضون

عليه مذاهبهم واحدا بعد واحد وهو ، صلى الله عليه وسلم يقررهم عليها . ثم جاء شخص من رؤساء المبتدعة ليدخل الحلقة ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بطرده ، وإهانته فتقدمت أنا وقلت يارسول الله هكذا الكتاب، أعني إحياء علوم الدين معتقدي، ومعتقد أهل السنة والجماعة . فلو أذنت لي حتى أقرأه عليك ، فأذن لي ، فقرأت عليه من كتاب قواعد العقائد : بسم الله الرحمن الرحيم . كتاب قواعد العقائد وفيه أربعة فصول : الفصل الأول في ترجمة عقيدة أهل السنة، حتى انتهيت إلى قول الغزالي، وأنه تعالى بعث النبي الأمي القرشي محمداً صلى الله عليه وسلم إلي كافة العرب والعجم، والجن والإنس ، فرأيت البشاشة في وجهه صلى الله عليه وسلم ، ثم التفت وقال : أين الغزالي وإذا بالغزالي واقف بين يديه فقال : هاأنا ذا يارسول الله وتقدم وسلم فرد عليه السلام عليه الصلاة والسلام ، وناوله يده الكريمة فأكب عليها الغزالي يقبلها ويتبرك بها ، وما رأيت النبي صلى الله عليه وسلم ، أشد سروراً بقراءة أحد عليه ، مثل ما كان بقراءتي عليه الإحياء ، ثم انتهيت والدمع يجري من عيني من أثر تلك الأحوال والكرامات ، وكان تقريره صلى الله عليه وسلم لمذاهب أئمة السنة واستبشاره بعقيدة الغزالي وتقريرها ، نعمة من الله عظيمة ، ومنة جسيمة ، نسأل الله تعالى أن يحيينا على سنته ويتوفانا على ملته آمين

فصل

أثنى على الإحياء ، عالم من علماء الإسلام، وغير واحد من عارفي الأنام ، بل جمع أقطاب وأفراد . فقال فيه الحافظ : الإمام الفقيه أبو الفضل العراقي في تخريجه ، أنه من أجل كتب الإسلام ، في معرفة الحلال والحرام ؛ جمع فيه بين ظواهر الأحكام ونزع إلى سرائر دقت عن الأفهام ، لم يقتصر فيه على مجرد الفروع والمسائل ، ولم يتبحر في اللجة بحيث يتعذر الرجوع إلى الساحل ، بل مزج فيه علمي الظاهر والباطن ، ومزج معانيها في أحسن المواطن ، وسبك فيه نفائس اللفظ وضبطه ، وسلك فيه من النمط أوسطه ، مقتديا بقول علي كرم الله وجهه ، خير هذه الأمة النمط الأوسط ، يلحق بهم التالي ، ويرجع إليهم الغالي ، إلى آخر ماذكره ، مما الأولى بنا في هذا المحل طيه ، ثم الانتقال إلى نشر

محاسن الإحياء ، فيظهر للمحب والمبغض رشده وغيه

وقال عبد الغافر الفارسى : فى مثال الإحياء أنه من تصانيفه المشهورة التى لم يسبق إليها . وقال فيه النووى : كاد الإحياء أن يكون قرءانا ، وقال الشيخ أبو محمد الكازرونى: لو محيت جميع العلوم لاستخرجت من الإحياء ، وقال بعض علماء المالكية : الناس فى فضل علوم الغزالى ، أي والإحياء جماعها ، كما سيأتى أنه البحر المحيط ، وكان السيد الجليل كبير الشأن ، تاج العارفين ، وقطب الأولياء الشيخ عبد الله العيدروس رضي الله عنه يكاد يحفظه نقلا. وروي عنه أنه قال : مكثت سنين أطالع كتاب الإحياء، كل فصل وحرف منه وأعاوده وأتدبره ، فيظهر لى منه فى كل يوم، علوم وأسرار عظيمة ،ومفهومات غزيرة غير التى قبلها ، ولم يسبقه أحد ، ولم يلحقه أحد ، أثنى على كتاب الإحياء ،بما أثنى عليه، ودعا الناس بقوله وفعله إليه وحث على التزام مطالعته والعمل بما فيه ، ومن كلامه رضي الله عنه عليكم ياإخوانى بمتابعة الكتاب والسنة ،أعنى الشريعة المشروحة فى الكتب الغزالية،خصوصا كتاب ذكر الموت ، وكتاب الفقر والزهد ، وكتاب التوبة ، وكتاب رياضة النفس ،

ومن كلامه :عليكم بالكتاب، والسنة أولا وآخرا ،وظاهراً وباطنا وفكرا واعتبارا واعتقادا ،وشرح الكتاب والسنة مستوفى فى كتاب إحياء علوم الدين،للإمام حجة الإسلام الغزالى رحمه الله ونفعنا به . ومن كلامه وبعد : فليس لنا طريق ومنهاج سوى الكتاب والسنة ، وقد شرح ذلك كله سيد المصنفين، وبقية المجتهدين،حجة الإسلام الغزالى،فى كتابه العظيم الشأن ، الملقب أعجوبة الزمان إحياء علوم الدين ،الذي هو عبارة عن شرح الكتاب والسنة والطريقة .

ومن كلامه : عليكم بملازمة كتاب إحياء علوم الدين ، فهو موضع نظر الله ، وموضع رضا الله ، فمن أحبه وطالعه وعمل بما فيه ، فقد استوجب محبة الله،ومحبة رسول الله،ومحبة ملائكة الله وأنبيائه وأوليائه ، وجمع بين الشريعة ، والطريقة، والحقيقة ، فى الدنيا والآخرة وصار عالما فى الملك والملكوت .

ومن كلامه الوجيز العزيز : لو بعث الله الموتى لما أوصوا الأحياء إلا بما فى الإحياء

ومن كلامه :اعلموا أن مطالعة الإحياء تحضر القلب الغافل فى لحظة ، كحضور سواد

الحبر بوقوع الزاج في المفص والمياه، وتأثير كتب الغزالي واضح ظاهر مجرب عند كل مؤمن

ومن كلامه : أجمع العلماء العارفون بالله على أنه لاشيء أنفع للقلب ،وأقرب إلى رضا الرب من متابعة حجة الإسلام الغزالى ، ومحبة كتبه ، فإن كتب الإمام الغزالي ، لباب الكتاب والسنة ، ولباب المعقول والمنقول ، والله وكيل على ماأقول .

ومن كلامه : أنا أشهد سراً وعلانية، أن من طالع كتاب إحياء علوم الدين ، فهو من المهتدين . ومن كلامه : من أراد طريق الله وطريق رسول الله وطريق العارفين بالله وطريق العلماء بالله ، أهل الظاهر والباطن ، فعليه بمطالعة كتب الغزالى ، خصوصا إحياء علوم الدين ، فهو البحر المحيط . ومن كلامه : اشهدوا على أن من وقع على كتب الغزالى فقد وقع على عين الشريعة والطريقة والحقيقة . ومن كلامه : من أراد طريق الله ورسوله ورضاهما فعليه بمطالعة كتب الغزالى ، وخصوصا البحر المحيط إحياءه أعجوبة الزمان . ومن كلامه: نطق معانى ممنوى القرءان ، ولسان حال قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلوب الرسل والأنبياء ، وجميع العلماء بالله وجميع العلماء بأمر الله الأتقياء ، بل جميع أرواح الملائكة ، بل جميع فرق الصوفية، مثل العارفين والملامتية ، بل جميع سر حقائق الكائنات والمعقولات ، وما يناسب رضا الذات والصفات ، أجمع هؤلاء المذكورون ، أن لاشيء أرفع وأنفع وأبهى وأبهج وأتقى وأقرب إلى رضا الرب ، كمتابعة الغزالى ومحبة كتبه ، وكتب الغزالى قلب الكتاب والسنة ، بل قلب المعقول والمنقول ، وأنفع يوم ينفخ اسرافيل فى الصور ، وفى يوم نقر الناقور ، والله وكيل على ماأقول (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ [1])

ومن كلامه : كتاب إحياء علوم الدين ، فيه جميع الأسرار ، وكتاب بداية الهداية ، فيه التقوى ، وكتاب الأربعين ، الأصل فيه شرح الصراط المستقيم ، وكتاب منهاج العابدين ، فيه الطريق إلى الله ، وكتاب الخلاصة فى الفقه ، فيه النور . ومن كلامه: السر كله فى اتباع الكتاب والسنة ، وهو اتباع الشريعة ، والشريعة مشروحة فى كتاب إحياء علوم الدين ، المسمي أعجوبة الزمان .

(١) آل عمران : ١٨٥

ومن كلامه : بخ بخ بخ لمن طالع إحياء علوم الدين ، أو كتبه ، أو سمعه .

وكلامه رضى الله عنه، فى تصانيفه وغيرها مشحون من الثناء على الإمام الغزالى وكتبه والحث على العمل بها ، خصوصا إحياء علوم الدين ، وقد كان سيدي ووالدى الشيخ العارف بالله تعالى ، شيخ ابن عبد الله العيدروس رضى الله عنه يقول : إن أمهل الزمان جمعت كلام الشيخ عبد الله ، فى الغزالى وسميته الجوهر المتلالى ، خصوصا من كلام الشيخ عبد الله فى الغزالى ، فلم يتيسر له ، وأرجو أن يوفقنى الله لذلك تحقيقا لرجائه ،ورجاء أن يتناولنى دعاء الشيخ عبد الله رضي الله عنه ،فإنه قال :غفر الله لمن يكتب كلامى فى الغزالى ، وناهيك ببشارة فى هذه العبارة ،التي برزت من ولي عارف ، وقطب مكاشف ، لايجازف فى مقال ، ولاينطق إلا عن حال ، وفى هذا من الشرف للغزالى وكتبه مالا يحتاج معه إلى مزيد (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ[1]) فإن العظيم لايعظم فى عينه إلا عظيم ،ولا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا أهل الفضل وإذا تصدى العيدروس لتعريفه فقد أغنى تعريفه عن كل تعريف ، ووصف الشهادة منه خير من شهادة ألف ألف وحصل من الإحياء فى زمانه بسببه نسخ عديدة ،حتى أن بعض العوام حصلها لما رأى من ترغيبه فيه ، وألزم أخاه الشيخ عليًا قراءته ، فقرأه عليه مدة حياته خمسا وعشرين مرة ، وكان يصنع عند كل ختم ضيافة عامة للفقراء وطلبة العلم الشريف ، ثم إن الشيخ عليا ألزم ولده عبد الرحمن قراءته عليه مدة حياته ، نختمه عليه أيضا خمسا وعشرين مرة ،وكان ولده سيدى الشيخ أبو بكر العيدروس صاحب عدن ، التزم بطريقة النذر على نفسه مطالعة شيء منه كل يوم ، وكان لايزال يحصل منه نسخة بعد نسخة ويقول : لاأترك تحصيل الإحياء أبدا ماعشت ، حتى اجتمع عنده منه نحو عشر نسخ .

قلت : وكذلك كان سيدى الشيخ الوالد شيخ ابن عبد الله بن شيخ بن الشيخ عبد الله العيدروس رضي الله عنه ، مدمنا على مطالعته وحصل منه نسخا عديدة نحو السبع ،وأمر بقراءته عليه غير مرة ، وكان يعمل فى ختمه ضيافة عامة ، فملازمته ميراث عيدروسى ، وتوفيق قدوسى ، فمن وفقه الله لامتثاله والعمل بما فيه واستعماله بلغ الرتبة العليا ،

---

(1) ق : ٣٧ .

وجاز شرف الآخرة والدنيا .

وقال السيد الكبير العارف بالله الشهير على بن أبي بكر بن الشيخ عبد الرحمن السقاف لو قلّب أوراق الإحياء كافر لأسلم ، ففيه سر خفي يجذب القلوب شبه المغناطيس قلت : وهو صحيح فإني مع خسيس قصدى وقساوة قلبي أجد عند مطالعتى له من انبعاث الهمة وعزوف النفس عن الدنيا مالامزيد عليه ، ثم يفتر برجوعى إلى ما أنا فيه ، ومخالطة أهل الكثافات ، ولاأجد ذلك عند مطالعة غيره من كتب الوعظ والرقائق وماذاك إلا لشيء أودعه الله فيه وسر نفس مصنفه ، وحسن قصده ، والمراد بالكافر هنا فيما يظهر الجاهل لعيوب النفس ، المحجوب عن إدراك الحق أي فبمجرد مطالعته للكتاب المذكور يشرح الله صدره ، وينور قلبه ، وذلك لأن الوعظ اذا صدر عن قلب متعظ كان حريا أن يتعظ به سامعه ، وكما أن الله تعالى جعل لعباده الذين لاخوف عليهم ولاهم يحزنون ، رتبة فوق غيرهم ، كذلك جعل لما يبرز منهم ، ويؤخذ عنهم بركة زائدة على غيره لأن ألسنتهم كريمة ، وأنوار قلوبهم عظيمة ، وهممهم علية ، وإشاراتهم سنية ، حتى يكون للقرءان أثر عظيم عند سماعه منهم ، وللأحاديث بهجة وجلالة زائدة إذا أخذت عنهم ، وللمواعظ منهم تأثير فى القلوب ظاهر ، ولعلومهم وفقههم أنوار ونفع متظاهر ، حتى تجد الرجل له العلم القليل ، وبعد ذلك ينتفع به كثير ، لحسن نيته ، ووجود بركته ، وغيره له أكثر من ذلك العلم ، ولم ينتفع به مثله ، لأنه دونه فى منزلته ، ومن تأمل ذلك وجده أمرا ظاهرا معهودا . وشيئا مجربا موجودا ، فانظر إلى نفع الناس ، بكتاب الخلاف فى مذهب مالك رحمه الله تعالى ، والتنبيه فى مذهب الشافعي رحمه الله تعالى ، والجمل فى العربية والإرشاد فى علم الكلام ، وانتشارها مع أن ماحوت من العلم فى فنونها قليل ، وقد جمع غير هؤلاء فى هذه الفنون فى مثل أجرام هذه الكتب أضعاف مافيها ، مع تحقيق تحرير العبارات وتشقيق المعانى ، وتلخيص الحدود بعد هذا ، فالنفع بهذه أكثر ، وهي أظهر وأشهر ، لأن العلم بمزيد التقوى ، وقوة سر الإيمان ، لابكثرة الذكاء وفصاحة اللسان ، كما بين ذلك مالك رحمه الله تعالى بقوله : ليس العلم بكثرة الروايه ، إنما العلم نور يضعه

الله في القلب قلت ومما أنشده الشيخ علي بن أبي بكر رضي الله عنه، انفسة فيه قوله :

أخي انتبه والزم سلوك الطرائق ... وسارع إلى المولى بجد وسابق
أيا طالبا شرح الكتاب وسنة ... وقانون قلب القلب بحر الرقائق
وإيضاح منهج للحقيقة مشرق ... وشرب حميا صفو راح الحقائق
وإجلاء أذكار المعانى ضواحكا ... يباهج حسن جاذب للخلائق
عليك بإحياء العلوم ولبها ... وأسرارها كم قد حوى من دقائق
وكم من لطيفات لذى اللب منهل ... وكم من مليحات سبت لب حاذق
كتاب جليل لم يصنف قبله ... ولا بعده مثل له فى الطرائق
فكم فى بديع اللفظ يجلى عرائسا ... وكم من شموس فى حماه شوارق
معانيه أضحت كالبدور سواطعا ... على در لفظ للمعانى مطابق
وكم من عزيزات زهت فى قبابها ... محجبة من غير كفؤ مسابق
وكم من لطيف مع بديع وتحفة ... حلاوتها كالشهد تحلو لذائق
بساتين عرفان ورض لطائف ... وجنة أنواع العلوم الفوائق
رعى الله صبارا تعافى جنانها ... يروح ويغدو بين تلك الحقائق
ويقطف من ذا كى جناها فواكها ... بساحل بحر بالجواهر دافق
خضم طمى حتى علا فوق من علا ... بشامخ مجد مشرق بالحقائق
فإن لم بهذا القول تؤمن فجربن ... وأقبل على تلك المعانى وعانق
وارجع طرفا فى بديع جمالها ... وطف فى حماها منشدا كل سابق
ترى فى بدور الحي أقمار قد بدت ... بمالى جمال مدهش لب عاشق
فكم أنهلت صبا وكم قشمت عمى ... وكم قد سعت فى غربها والمشارق
فيضحى براح الحب سكران مغرما ... أصم عن العذال غير موافق
ويمسى يناديها طريحا ببابها ... منعم عيش فى الربوع النوادق
صلاة على سر الوجود شفيعنا ... محمد المختـــــار خير الخلائق
وأصحابه أهل المكارم والعلا ... وعترته وراث علم الحقائق

فصل

وأما ما أنكر عليه فيه من مواضع مشكلة الظاهر وفى التحقيق لا إشكال أو أخبار وآثار تكلم فى سندها . فأما من جهة تلك المواضع فمن أجاب عنها المصنف نفسه فى كتابه المسمى بالأجوبة ، وأسوق لك نبذة من ذلك هنا . قال رحمه الله : سألت يسرك الله لمراتب العلم تصعد مراقيها ، وقرب لك مقامات الأولياء تحل معاليها ، عن بعض ماوقع فى الإملاء المقلب بالإحياء ، مما أشكل على من حجب وقصر فهمه ، ولم يفز بشيء من الحظوظ الملية قدحه وسهمه ، وأظهرت التحزن لما شاهدته من شركاء الطغام ، وأمثال الأنعام ، وأتباع العوام ، وسفهاء الأحلام : وعار أهل الإسلام ، حتى طعنوا عليه ، ونهوا عن قراءته ومطالعته ، وأفتوا بالهوى ، مجردا على غير بصيرة ، بإطراحه ومنابذته ، ونسبوا ممليه إلى ضلال وإضلال . ورموا قراءه ومنتحليه بزيغ عن الشريعة واختلال ، إلى أن قال (سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ [١]) ثم ذكر آيات أخرى فى المعنى ، ثم وصف الدهر وأهله ، وذهاب العلم وفضله ، ثم ذكر عذر المعترضين ، بما يرجع حاصلها إلى الحسد وإلى الجهل وقلة الدين ، بل أفصح بذلك فى الآخر حيث قال : حجبوا عن الحقيقة بأربعة ، الجهل ، والإصرار ، ومحبة الدنيا وإظهار الدعوى ، ثم بين ماورثوه عن الأربعة المذكورة ، فالجهل أورثهم السخف ، إلى آخر ماذكره وأما مااعترض به من تضمينه أخباراً وآثارا موضوعة أو ضعيفة ، وإكثاره من الأخبار والآثار ، والإكثار يتحاشى منه المتورع لئلا يقع فى الموضوع ، وحاصل ماأجيب به عن الغزالى ومن المجيبين الحافظ العراقى أن أكثر ماذكره الغزالى ليس بموضوع كما برهن عليه فى التخريج ، وغير الأكثر وهو فى غاية القلة ، رواه عن غيره أو اتبع فيه غيره متبرئا منه بنحو صيغة روي . وأما الاعتراض عليه أن فيما ذكره الضعيف بكثرة ، فهو اعتراض ساقط لما تقرر أن يعمل به فى الفضائل ، وكتابه فى الرقائق فهو من قبيلها ولأن له أسوة بأئمة الأئمة الحفاظ فى اشتمال كتبهم علي الضعيف بكثرة المنبه على ضعفه

---

(١) الزخرف : ١٩

تارة والمسكوت عنه أخرى، وهذه كتب الفقه للمتقدمين، وهي كتب الأحكام لا الفضائل توردون فيها الأحاديث الضعيفة ساكتين عليها، حتى جاء النووى رحمه الله فى المتأخرين ونبه على ضعف الحديث، وخلافه كما أشار إلى ذلك كله العراقى. قال عبد الغافر الفارسى سبط القشيرى، ظهرت تصانيف الغزالى وفشت، ولم يبد فى أيامه مناقضة لما كان فيه ولا لما آثره إلى آخر ماذكره، ومما يدلك على جلالة كتب الغزالى، مانقل ابن السمعانى من رؤيا بعضهم فيما يرى النائم، كأن الشمس طلعت من مغربها، مع تعبير ثقات المعبرين ببدعة تحدث، فحدثت فى جميع المغرب بدعة الأمر بإحراق كتبه، ومن أنه لما دخلت مصنفاته إلى المغرب، أمر سلطانه علي بن يوسف بإحراقها، لتوهمه اشتمالها على الفلسفة وتوعد بالقتل من وجدت عنده بعد ذلك، فظهر بسبب أمره فى مملكته منا كير، ووثب عليه الجند، ولم يزل من وقت الأمر والتوعد، فى عكس ونكد، بعد أن كان عادلا.

خاتمة

فى الإشارة إلى ترجمة المصنف رضى الله عنه وعنا به ونفعنا بعلومه وأسراره
وسبب رجوعه إلى طريقة الصوفية رضى الله عنهم

أما ترجمته رضي الله عنه: فهو الإمام زين الدين، حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد ابن محمد الغزالى الطوسى النيسابورى الفقيه الصوفى الشافعي الأشعري الذى انتشر فضله فى الآفاق وفاق، ورزق الحظ الأوفر فى حسن التصانيف وجودتها والنصيب الأكبر فى جزالة العبارة وسهولتها، وحسن الإشارة، وكشف المعضلات، والتبحر فى أصناف العلوم، فروعها، وأصولها، ورسوخ القدم فى منقولها ومعقولها، والتحكم والاستيلاء على إجمالها وتفصيلها، مع ماخصه الله به من الكرامة، وحسن السيرة والاستقامة، والزهد والعزوف عن زهرة الدنيا، والإعراض عن الجهات الفانية، وإطراح الحشمة والتكلف، قال الحافظ العلامة ابن عساكر: والشيخ عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليافعى، والفقيه جمال الدين عبد الرحيم الإسنوى رحمهم الله تعالى، ولد الإمام الغزالى بطوس سنة خمسين وأربعمائة وابتدأ بها فى صباه بطرف من الفقه، ثم قدم نيسابور ولازم دروس إمام الحرمين وجد

واجتهد ، حتى تخرج فى مـدة قريبة ، وصار أنظر أهل زمانه ، وأوحد أقرانه ، وجلس للإقراء وإرشاد الطلبة فى أيام إمامه وصنف ، وكان الإمام يتبجح به ويعتد بمكانه منه ، ثم خرج من نيسابور ، وحضر مجلس الوزير نظام الملك ، فأقبل عليه ، وحل منه محلا عظيما ، اعلو درجته ، وحسن مناظرته ، وكانت حضرة نظام الملك محطا لرجال العلماء ، ومقصد الأئمة والفضلاء ، ووقع للإمام الغزالى فيها اتفاقات حسنة ، من مناظرة الفحول فظهر اسمه ، وطار صيته ، فرسم عليه نظام الملك بالمسير إلى بغداد ، للقيام بتدريس المدرسة النظامية ، فسار إليها ، وأعجب الكل تدريسه ومناظرته ، فصار إمام العراق ، بعد أن حاز إمامة خراسان ، وارتفعت درجته فى بغداد ، على الأمراء ، والوزراء ، والأكابر ، وأهل دار الخلافة ، ثم انقلب الأمر من جهة أخرى ، فترك بغداد ، وخرج عما كان فيه من الجاه والحشمة ، مشتغلا بأسباب التقوى ، وأخذ فى التصانيف المشهورة التى لم يسبق إليها ، مثل إحياء علوم الدين وغيره ، التى من تأملها عرف محل مصنفها من العلم . قيل أن تصانيفه وزعت على أيام عمره فأصاب كل يوم كراس ، ثم سار إلى القدس ، مقبلا على مجاهدة النفس ، وتبديل الأخلاق ، وتحسين الشمائل ، حتى مرن على ذلك ، ثم عاد إلى وطنه طوس ؛ لازما بيته ، مقبلا على العبادة ، ونصح العباد وإرشادهم ، ودعائهم إلى الله تعالى ، والاستعداد للدار الآخرة ، مرشد الضالين ، ويفيد الطالبين ، دون أن يرجع إلى ما انخلع عنه من الجاه والمباهاة ، وكان معظم تدريسه فى التفسير والحديث والتصوف حتى انتقل إلى رحمة الله تعالى ، يوم الإثنين الرابع عشر من جمادي الأولى سنة خمس وخمسمائة ، خصه الله تعالى بأنواع الكرامة فى أخراه ، كما خصه بها فى دنياه .

قيل وكانت مـدة القطبية للغزالى ثلاثة أيام على ما حكي فى كرامات الشيخ سعيد العمودى نفع الله به ، وذكر الشيخ عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليافعى رحمه الله تعالى بإسناده الثابت ، إلى الشيخ الكبير القطب الربانى ، شهاب الدين أحمد الصياد اليمني الزبيدى ، وكان معاصرا للغزالى ، نفع الله بهما ،

قال : بينما أنا ذات يوم قاعد ، إذ نظرت إلى أبواب السماء مفتحة ، وإذا عصبة من الملائكة الكرام قد نزلوا ومعهم خلع خضر ، ومركوب نفيس ، فوقفوا على قبر

من القبور ، وأخرجوا صاحبه وألبسوه الخلع ، وأركبوه وصعدوا به من سماء إلى سماء إلى أن جاوز السموات السبع، وخرق بعدها ستين حجابا ، ولاأعلم أين بلغ انتهاؤه ، فسألت عنه فقيل لى هذا الإمام الغزالى ، وكان ذلك عقيب موته رحمه الله تعالى .

ورأى فى النوم السيد الجليل أبو الحسن الشاذلى رضي الله عنه النبي صلى الله عليه وسلم وقد باهى موسي وعيسى عليهما الصلاة والسلام بالإمام الغزالى وقال : أفى أمتكما حبر هكذا ؟ قالا : لا وكان الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه يقول لأصحابه : من كانت له منكم إلى الله حاجة فليتوسل بالغزالى . وقال جماعة من العلماء رضى الله عنهم : منهم الشيخ الإمام الحافظ بن عساكر فى الحديث الوارد عن النبي صلى الله عليه وسلم، فى أن الله تعالى يحدث لهذه الأمة من يجدد لها دينها على رأس كل مائة سنة ، أنه كان على رأس المائة الأولى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، وعلى رأس المائة الثانية الإمام الشافعي رضي الله عنه ، وعلى رأس المائة الثالثة الإمام أبو الحسن الأشعرى رضي الله عنه ، وعلى رأس المائة الرابعة أبو بكر الباقلانى رضي الله عنه ، وعلى رأس المائة الخامسة أبو حامد الغزالى رضي الله عنه .

وروي ذلك عن الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه فى الإمامين الأولين أعنى عمر ابن عبد العزيز والشافعي ،ومناقبه رضي الله عنه أكثر من أن تحصر ، وفيما أوردناه مقنع وبلاغ ومن مشهورات مصنفاته، البسيط، والوسيط، والوجيز والخلاصة فى الفقه؛ وإحياء علوم الدين ، وهو من أنفس الكتب وأجلها ، وله فى أصول الفقه المستصفى ، والمنخول والمنتحل فى علم الجدل ، وتهافت الفلاسفة ، ومحك النظر ، ومعيار العلم ، والمقاصد والمضنون به على غير أهله ، ومشكاة الأنوار ، والمنقذ من الضلال ، وحقيقة القولين ، وكتاب ياقوت التأويل فى تفسير التنزيل أربعين مجلدا ، وكتاب أسرار علم الدين ، وكتاب منهاج العابدين ، والدرة الفاخرة فى كشف علوم الآخرة ، وكتاب الأنيس فى الوحدة ، وكتاب القربة إلى الله عز وجل ، وكتاب أخلاق الأبرار والنجاة من الأشرار وكتاب بداية الهداية ، وكتاب جواهر القرءان ، والأربعين فى أصول الدين ، وكتاب المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى ، وكتاب ميزان العمل ، وكتاب القسطاس المستقيم

وكتاب التفرقة بين الإسلام والزندقة ، وكتاب الذريعة إلى مكارم الشريعة وكتاب مبادى الغايات ، وكتاب كيمياء السعادة ، وكتاب تلبيس إبليس ، وكتاب نصيحة الملوك ، وكتاب الاقتصاد فى الاعتقاد ، وكتاب شفاء العليل فى القياس والتعليل وكتاب المقاصد ، وكتاب إلجام العوام عن علم الكلام ، وكتاب الانتصار ، وكتاب الرسالة اللدنية ، وكتاب الرسالة القدسية ، وكتاب إثبات النظر ، وكتاب المأخذ ، وكتاب القول الجميل فى الرد على من غيّر الإنجيل ، وكتاب المستظهرى ، وكتاب الأمالى وكتاب فى علم أعداد الوفق وحدوده ، وكتاب مقصد الخلاف ، وجزء فى الرد على المنكرين فى بعض ألفاظ إحياء علوم الدين ، وكتبه كثيرة وكلها نافعة .

وقال يمدحه تلميذه الشيخ الإمام أبو العباس الأقليشى المحدث الصوفى صاحب كتاب النجم والكواكب .

أبا حامد أنت المخصص بالمجد ... وأنت الذى علمتنا سنن الرشد

وضعت لنا الإحياء تحيى نفوسنا ... وتنقذنا من طاعة النازع المردى

فربع عبادات وعاداته التى ... يعاقبها كالدر نظم فى العقد

وثالثها فى المهلكات وإنه ... لمنج من الهلك المبرح والبعد

ورابعها فى المنجيات وإنه ... ليسرح بالأرواح فى جنة الخلد

ومنها ابتهاج للجوارح ظاهر ... ومنها صلاح للقلوب من الحقد

وأما سبب رجوعه إلى هذه الطريقة واستحسانه لها فذكر رحمه الله فى كتابه المنقذ من الضلال ماصورته ،

أما بعد : فقد سألتني أيها الأخ فى الدين أن أبث لك غاية العلوم وأسرارها ، وغاية المذاهب وأغوارها ، وأحكى لك ماقاسيته فى استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق مع تباين المسالك والطرق ، وما استأجرت عليه من الارتفاع من حضيض التقليد إلى يفاع الإستبصار ، وما استفدته أولا من علم الكلام ، وما احتويته من طرق أهل التعليم ، القاصرين لدرك الحق على تعليم الإمام ، وما ازدريته ثالثا من طرق أهل التفلسف

وما ارتضيته آخرا من طرق أهل التصوف ، وما تنحل لى فى تضاعيف تفتيشى عن أقاويل أهل الحق ، وما صرفنى عن نشر العلم ببغداد مع كثرة الطلبة ، وما دعانى إلى معاودته بنيسابور بعد طول المدة . فابتدرت لإجابتك إلى طلبتك ، بعد الوقوف على صدق رغبتك . فقلت مستعينا بالله تعالى ومتوكلا عليه ومستوفقا منه ، وملتجئا إليه

• اعلموا أحسن الله إرشادكم ،وألان إلى قبول الحق انقيادكم . أن اختلاف الخلق فى الأديان والملل ، ثم اختلاف الأئمة فى المذاهب على كثرة الفرق وتباين الطرق ، بحر عميق غرق فيه الأكثرون ، وما نجا منه إلا الأقلون ، وكل فريق يزعم أنه الناجى ، (كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ [1])

ولم أزل فى عنفوان شبابى مذ راهقت البلوغ ، قبل بلوغ العشرين ، إلى أن أناف السن على الخمسين ، أقتحم لجة البحر العميق ، وأغمرته خوض الجسور ، لا خوض الجبان الحذور ، وأتوغل فى كل مظلمة ، وأهجم على كل مشكلة ، وأقتحم كل ورطة ، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة ، وأتكشف أسرار مذاهب كل طائفة ، لأميز بين كل محق ومبطل ، ومستن ومبتدع ، لاأغادر باطنيا إلا وأحب أن أطلع على باطنيته ، ولا ظاهريا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظاهريته ، ولافلسفيا إلا وأقصد الوقوف على فلسفته ولامتكلما إلا وأجتهد فى الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولا صوفيا إلا وأحرص على العثور على سر صوفيته ، ولامتعبدا إلا وأريد مايرجع إليه حاصل عبادته ، ولازنديقا معطلا إلا وأتجسس وراءه للتنبه لأسباب جراءته فى تعطيله وزندقته ، وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبى وديدنى من أول أمرى وريعان عمرى ، غريزة من الله ، وفطرة وضعها الله فى جبلتى ، لا باختياري وحيلتى ، حتى انحلت عنى رابطة التقليد ، وانكسرت عنى العقائد الموروثة على قرب عهد منى بالصبا ، فإذا رأيت صبيان النصارى لايكون لهم نشوء إلا على التنصر ، وصبيان اليهود لايكون لهم نشوء إلا على التهود ، وصبيان الإسلام لايكون لهم نشوء إلا على الإسلام ، وسمعت الحديث المروى عن النبي

---

(١) الروم: ٣٢

صلى الله عليه وسلم « كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ » فتحرك باطنى إلى طلب الفطرة الأصلية ، وحقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدين ، والأستاذين ، والتمييز بين هذه التقليدات ، وأوائلها تلقينات ، وفى تمييز الحق منها من الباطل اختلافات .

فقلت فى نفسى أولا : إنما مطلوبى العلم بحقائق الأمور ، ولا بد من طلب حقيقة العلم ماهي ؟ فظهر لى أن العلم اليقين هو الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافا لايبقى معه ريب ، ولا يقارنه إمكان الغلط كالوهم ، ولا يتسع العقل لتقدير ذلك ، بل الأمان من الخطأ ، ينبغى أن يكون مقارنا للنقص ، مقارنة لو تحدى بإظهار بطلانه مثلا ، من يقلب الحجر ذهبا ، والعصا ثعبانا ، لم يورث ذلك شكا وإمكانا ، فإنى إذا علمت أن العشرة أكثر من الواحد ، لو قال لى قائل ، الواحد أكثر من العشرة ، بدليل أنى أقلب هذه العصا ثعبانا ، وقلبها وشاهدت ذلك منه ، لم أشك فى معرفتى لكذبه ، ولم يحصل معى منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه ، وأما الشك فيما علمته ، فلا ثم علمته ، أن كل مالا أعلمه على هذا الوجه ، ولا أتيقنه من هذا النوع من اليقين ، فهو علم لاثقة به ، وكل علم لاأمان معه ؟ ليس بعلم يقيني ، ثم فتشت عن علومى ، فوجدت نفسى عاطلا ، عن علم موصوف بهذه الصفة ، إلا فى الحسيات والضروريات ، فقلت الآن بعد حصول اليأس ، لامطمع فى اقتباس المستيقنات إلا من الجليات ، وهي الحسيات والضروريات ؟ فلا بد من إحكامها أولا : لأتبين أن يقينى بالمحسوسات ، وأمانى من الغلط فى الضروريات من جنس أمانى الذى كان من قبل فى التقليدات ، أو من جنس أمان أكثر الخلق فى النظريات ، وهو أمان محقق ، لاتجوز فيه ولا غائلة له ، فأقبلت بجد بليغ أتأمل فى المحسوسات والضروريات أنظر هل يمكننى أشكك نفسى فيها ؟ فانتهى بعد طول التشكك بى إلى أنه لم تسمح نفسى بتسليم الأمان فى المحسوسات ، وأخذ يتسع الشك فيها ، ثم إلى ابتدأت لعلم الكلام ، فحصلته وعلقته ، وطالعت كتب المحققين منهم ، وصنفت ماأردت أن أصنفه ، فصادفته علما وافيا بمقصوده ، غير واف بمقصودى ، ولم أزل أتفكر فيه مدة ، وأنا بعد على مقام الاختيار أصمم عزمى على الخروج عن بغداد ، ومفارقة تلك الأحوال يوما ، وأحل العزم

يوما ، وأقدم فيه رجلا ، وأؤخر فيه أخرى ، ولا تصدق لى رغبة فى طلب الآخرة ، إلا حمل عليها جند الشهوة حملة ، فيفيرها عشية ، فصارت شهوات الدنيا تجاذبنى، بسبب ميلها إلى المقام ، ومنادى الإيمان ينادى الرحيل الرحيل ، فلم يبق من العمر إلا القليل ، وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ماأنت فيه من العمل رياء وتخييل ؛ وإن لم تستعد الآن للآخرة فتى تستعد ، وإن لم تقطع الآن هذه العلائق فتى تقطعها ؛ فعند ذلك تنبعث الرغبة وينجزم الأمر على الهرب والفرار ، ثم يعود الشيطان ويقول :هذه حالة عارضة ، إياك أن تطاوعها ، فإنها سريعة الزوال ، وإن أذعنت لها وتركت هذا الجاه الطويل العريض . والشأن المظيم الخالى عن التكدير والتنغيص ، والأمر السالم الخالى عن منازعة الخصوم ، ربما التفتت إليه نفسك ، ولا تتيسر لك المعاودة ،

فلم أزل أتردد بين التجاذب بين شهوات الدنيا والدواعي ، قريبا من ستة أشهر ، أولها رجب من سنة ست وثمانين وأربعمائة ، وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار ، إذ قفل الله على لسانى ، حتى اعتقل عن التدريس ، فكنت أجاهد نفسى أن أدرس يوما واحدا تطييبا لقلوب المختلفة إلىّ ، فكان لاينطق لسانى بكلمة ، ولا أستطيعها ألبتة ، حتى أورثت هذه العقلة فى اللسان حزنا فى القلب ، بطلت معه قوة الهضم ومرى الطعام والشراب ، وكان لاتنساغ لى شربة ولاتنهضم لى لقمة ، وتعدى ذلك إلى ضعف القوى ، حتى قطع الأطباء طمعهم فى العلاج ، وقالوا هذا أمر نزل بالقلب ، ومنه سرى إلى المزاج ، فلاسبيل إليه بالعلاج ، إلا بأن يتروح السر عن الهم المهم ، ثم لما أحسست بعجزى ، وسقط بالكلية اختيارى، التجأت إلى الله التجاء المضطر الذى لاحيلة له ، فأجابنى الذى يجيب المضطر إذا دعاه ، وسهل على قلبي الإعراض عن المال والجاه ، والأهل والأولاد ، وأظهرت عزم الخروج إلى مكة ، وأنا أدبر فى نفسى سفر الشام حذرا من أن يطلع الخليفة ، وجملة الأصحاب على غرضى فى المقام بالشام ؛ فتلطفت بلطائف الحيل فى الخروج من بغداد ، على عزم أن لا أعاودها أبدا ،واستهزأ بى أئمة العراق كافة إذ لم يكن فيه من يجوز أن يكون الإعراض عما كنت فيه سببا دينيا ، إذ ظنوا أن ذلك هو المنصب الأعلى فى الدين ، فكان ذلك هو مبلغهم من العلم ، ثم ارتبك الناس

فى الاستنباطات ، فظن من بعد عن العراق ، أن ذلك كان لاستشعار من جهة الولاة ، وأما من قرب منهم فكان يشاهد لجاجهم فى التعلق بى والإنكار علي ، واعراضى عنهم وعن الالتفات إلى قولهم ، فيقولون هذا أمر سماوي ، ليس له سبب إلا عين أصابت أهل الإسلام ، وزمرة العلم ، ففارقت بغداد ، وفارقت ما كان معي من مالى ، ولم أدخر من ذلك إلا قدار الكفاف ، وقوت الأطفال ، ترخصا بأن مال العراق مرصد للمصالح ، لكونه وقفا على المسلمين ، ولم أر فى العالم ما يأخذ العالم لعيال أصلح منه .

ثم دخلت الشام وأقمت فيه قريبا من سنتين ، لاشغل إلا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة اشتغالا بتزكية النفس ، وتهذيب الأخلاق ، وتصفية القلب لذكر الله تعالى ، كما كنت حصلته من علم الصوفية ، وكنت أعتكف مدة بمسجد دمشق أصعد منارة المسجد طول النهار ، وأغلق بابها على نفسى ، ثم تحركت بى داعية فريضة الحج ، والاستمداد من بركات مكة والمدينة وزيارة النبي صلى الله عليه وسلم بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله عليه وسلامه ، وثم سرت إلى الحجاز ، ثم جذبتنى الهمم ، ودعوات الأطفال إلى الوطن وعاودته ، بعد أن كنت أبعد الخلق عن أن أرجع إليه ، وآثرت العزلة ، حرصا على الخلوة : وتصفية القلب للذكر ، وكانت حوادث الزمان ، ومهمات العيال ، وضرورات المعيشة ، تغير فى وجه المراد ، وتشوش صفوة الخلوة ، وكان لا يصفولى الحال ، إلا فى أوقات متفرقة ، لكن مع ذلك لا أقطع طمعى عنها ، فيدفعنى عنها العوائق ، وأعود إليها ودمت على ذلك مقدار عشر سنين ، وانكشف لى فى أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها ، واستقصاؤها ، والقدر الذى ينبغى أن نذكره ، لينتفع به ، أنى علمت يقينا ، أن الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة ، وأن سيرتهم أحسن السير ، وطريقتهم أصوب الطرق ، واخلاقهم أزكى الأخلاق ، بل لو جمع عقل العقلاء ، وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ، ليغيروا شيئا من سيرتهم ، واخلاقهم ، ويبدلوه بما هو خير منه ، لم يجدوا إليه سبيلا ، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم فى ظاهرهم وبطانهم ، مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به

وبالجملة : ماذا يقول القائل فى طريقة أول شروطها ، تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى ، ومفتاحها الجارى منها مجرى التحرم في الصلاة . استغراق القلب بذكر الله ، وآخرها الفناء بالكلية فى الله تعالى ، وهو أقواها بالإضافة إلى ما تحت الاختيار . إنتهى

قال العراقى. فلما نفذت كلمته ، وبعد صيته ، وعلت منزلته : وشدت إليه الرحال ، وأذعنت له الرجال ، شرفت نفسه عن الدنيا ، واشتاقت إلى الأخرى ، فأطرحها ؛ وسعى فى طلب الباقية ، وكذلك النفوس الزكية ، كما قال عمر بن عبد العزيز : إن لى نفساً تواقة لما نالت الدنيا تاقت إلى الآخرة ، قال بعض العلماء: رأيت الغزالى رضى الله عنه فى البرية وعليه مرقعة وبيده عكازه وركوة ، فقلت له ياإمام أليس التدريس ببغداد أفضل من هذا؟ فنظر إلي شذرا وقال : لما بزغ بدر السعادة فى فلك الإرادة وظهرت شموس الوصل

تركت هوى ليلى وسعدى بمنزل وعدت إلى مصحوب أول منزل

ونادتنى الأشواق مهلا فهذه منازل من تهوى رويدك فانزل

إنتهى كتاب تعريف الأحياء بفضائل الإحياء بحمد الله وعونه

فهرست الجزء السادس عشر

فهرست كتاب الاملاء

دار الشعب
٩٢ شارع قصر العيني بالقاهرة
تليفون ٣١٨١٠